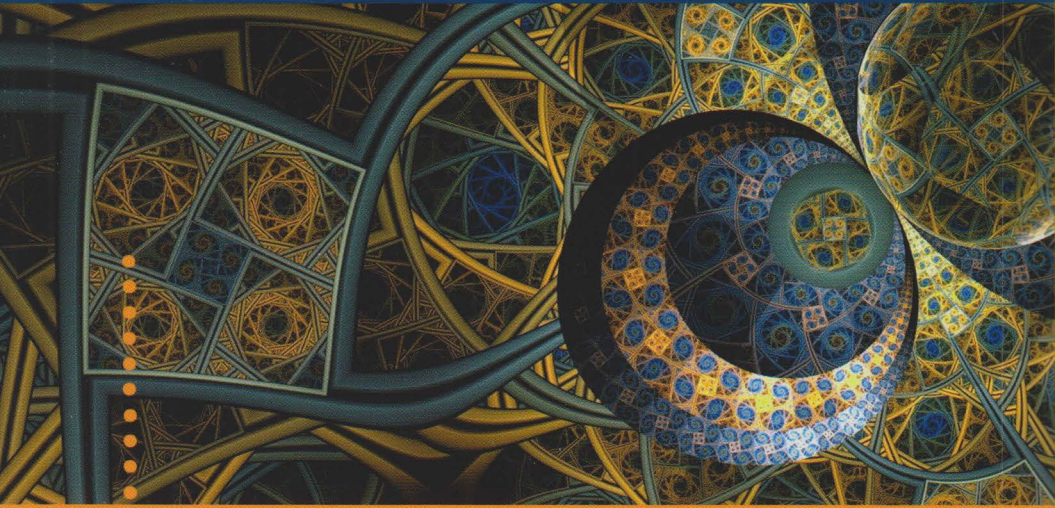


خالص جلبي

# في نقد الفكر الديني

## النقد التاريخي





خالص جلبي

في نقد الفكر الديني  
النقد التاريخي



خالص جلبي

# في نقد الفكر الديني النقد التاريخي



الكتاب : في نقد الفكر الديني : النقد التاريخي

تأليف : خالص جلبي

الطبعة الأولى ، 2014

عدد الصفحات : 320

القياس : 21 × 14



ISBN: 978-9953-68-670-7

الناشر : المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب : 4006 (سيدنا) - 42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف : +212 522 303339 - +212 522 307651

فاكس : +212 522 305726

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان

ص.ب : 113 /5158 - الحمراء - شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف : +961 1 750507 - +961 1 352826

فاكس : +961 1 343701

Email: cca\_casa\_bey@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود

مؤسسة دراسات وأبحاث

www.mominoun.com

الرباط المدينة - ص.ب : 10596 - المملكة المغربية

هاتف : +212 537 730450 - فاكس : +212 537 730408

Email: info@mominoun.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات  
يتبناها المركز الثقافي العربي ومؤسسة مؤمنون بلا حدود.

## الفهرس

- I - مدخل تاريخي : بداية الانهيار ..... 13
- الحلقة المفقودة؟ ..... 15
- إنسان مابعد الموحدين (نحو نظرية كوبرنيكوس اجتماعية) 1198 ..... 31
- ابن رشد ومعركة العقاب عام 1212 ..... 37
- الاجتياح المغولي 1258 ..... 47
- شتاء عام 1258 م ..... 48
- آلية حدوث المرض عموماً ..... 54
- فلسفة وقانون المرض ..... 56
- فلسفة القرآن في مرض ظلم النفس ..... 57
- علة انهيار الحضارات بالانتحار الداخلي ..... 58
- معركة سهل أنقرة 1402 ..... 62
- الانقلاب الكوني 1453 ..... 75
- حصار فيينا الثالث 1683 ..... 84
- آلية انهيار الدول ..... 85
- حفريات الحضارات ..... 86
- صعود أوروبا الفكري ..... 88
- الذهول الخفي عن تبدل أحوال الأمم ..... 89

- 91 ..... كيف بدأ الخلق - علم الجذور
- 92 ..... معنى ارتطام قوتين إسلاميتين
- 94 ..... رؤية التاريخ بشكل ديناميكي
- 95 ..... خلفية انهيار الفكر الآبائي في أوروبا
- 96 ..... حوار الله والملائكة
- 98 ..... الصدمة الحضارية: معركة سفح الأهرام (يوليو/ تموز 1798 م)
- 107 ..... قصة الملك عبد العزيز والإخوان 1912
- 113 ..... ولادة إسرائيل 1948
- II - ولادة الجملوكيات** ..... 121
- 123 ..... جمهوريات الرعب والبطالة
- 126 ..... عصر الانقلابات والمؤامرات
- 129 ..... ولادة الأنظمة الشمولية
- ولادة جيل التيه والخوف (المجتمع العربي أمام استعصاء تاريخي  
في مثلث مكون من مواطن تائه ومثقف مدجن وفقه غائب  
عن العصر) ..... 137
- مثلث المواطن والمثقف والسياسي (الحاجة إلى رياضيات  
اجتماعية جديدة) ..... 144
- III - موت الثقافة وتدجين المثقفين** ..... 151
- المثقف وعلاقات القوة؟ (مثقفو العالم العربي يتوزعون في  
قسمة ضيزى بين الوهمي الكاذب والمهاجر المنسحب  
والحقيقي المقتول) ..... 153



- 163 ..... الهجرة سفينة تغرق؟ (لماذا يهاجر المواطن العربي؟)
- 170 ..... أسرار الانقلاب التاريخي (آثار رحلة كولومبوس)
- 173 ..... فكرة الكرونولوجيا التاريخية
- 174 ..... جدلية السبب والنتيجة
- 174 ..... الخلفية السياسية للصراع المذهبي
- 176 ..... الإبحار باتجاه المجهول عبر بحر الظلمات
- 176 ..... الآثار الخطيرة الناجمة عن سقوط القسطنطينية
- 177 ..... أخطر ما حدث على الإطلاق
- 178 ..... خسارة المحيط وآثارها المأساوية
- 179 ..... نقطتا التحجر ونتائجهما
- 181 ..... الانهيار بدأ قبل ستة قرون
- 182 ..... الأدوات المعرفية التاريخية
- 183 ..... فلسفة ولادة الحدث التاريخي
- 184 ..... الارتظام الحضاري الحزين
- الإبحار للمجهول عبر بحر الظلمات (الخلفية التاريخية
- 186 ..... لظروف اكتشاف العالم الجديد)
- 188 ..... الاختراق العلمي والتطبيق الميداني
- 189 ..... تطوير السفينة المحيطية على يد العرب:
- 190 ..... كسر حاجز بحر الظلمات تقنيا
- 191 ..... قصور طاقة الإبداع العربية
- 194 ..... فكرة تعدد العناصر وتضافر العوامل
- 195 ..... التحدي الحضاري وظاهرة صدام الحضارات
- 197 ..... ولادة المغامرة الكبرى

- 198 ..... لعنة المبشر (لاس كاساس) على الإسبان
- 200 ..... مأساة اصطدام الحضارات
- 202 ..... الميزان العالمي في القرن الخامس عشر للميلاد
- 205 ..... من يملك البحار يملك العالم و ثروته
- 206 ..... قانون هيرودوت في تصادم الحضارات
- 207 ..... التعاقب التاريخي للصدم الحضاري
- 209 ..... انتهاء عهد المتوسط وبدء مرحلة الأطلنطي
- 210 ..... الأثر الثقافي للانسيح الإسباني في العالم القديم
- 210 ..... مخبر التاريخ لفهم الأحداث الحضارية
- 215 ..... وتلك الأيام نداولها بين الناس!
- 217 ..... التدمير المروع لحضارات أمريكا (الوجه الآخر لاكتشاف أمريكا)
- 218 ..... بين صناعة هوليوود والواقع
- 218 ..... أشبه شيء بالصدمة!!
- عملية الامتلاك والتسمية ونهب العالم الجديد منذ
- 219 ..... اللحظة الأولى
- 220 ..... كيف وصف كولومبس أهالي الجزيرة في اللقاء الأول
- 221 ..... يوميات الرحلة الأخيرة
- 222 ..... قصة خسوف القمر في جامايكا
- 223 ..... حملة التطهير العرقي الإسباني في العالمين
- 224 ..... سوء حظ القارة ومأساة الاصطدام الحضاري
- 225 ..... العلاقة بين نمو الرأسمالية الحديثة وحركة الإصلاح الديني
- 226 ..... لنقرأ التاريخ في بدايته ونهايته
- 227 ..... ظاهرة التسمم بالذهب

- عاقبة طرد المسلمين من إسبانيا ..... 230
- هولوكوست العالم الجديد (الوجه الآخر لاكتشاف أمريكا) (2) .. 232
- حركة انعطاف التاريخ ..... 234
- تدمير حضارة المكسيك ..... 236
- كيف تم هذا الإنجاز الجهنمي؟ ..... 237
- إفناء وتفريغ جزر الكاريبي من سكانها الأصليين ..... 238
- كيف تم إفناء شعب التايانو في جزر بحر الكاريبي ..... 239
- كارثة بحجم فلكي خرافي ..... 240
- لعنة المبشر الإسباني (لاس كاساس) ..... 242
- حمى الذهب والمذابح الجماعية الصليبية ..... 243
- بين السيانيد والصدمة البكتريولوجية ..... 243
- مذبحة كاوناو في كوبا ..... 244
- قصة الحساء الهندية ..... 246
- حضارات مفقودة (الوجه الآخر لاكتشاف أمريكا) (3) ..... 247
- قانون مكيا فيللي في قراءة أنواع المجتمعات  
(النحل والذئاب) ..... 248
- وصف شبنجلر الخلاب لحضارة الأزتيك ..... 249
- الخيال الإسبانية لا تموت ودوي المدافع هو قصف الرعد! . 251
- جدلية الخوف والجهل والهرب والكراهية ..... 251
- قصة الأمير والفيلسوف وقدر النحاس ..... 252
- فدية ملك الإنكا غرفة من الذهب الخالص وغرفتان  
من الفضة ..... 252
- طاعون الحضارة الغربية حسب رأي (تشومسكي) ..... 253

- 255 ..... سريان اللعنة إلى كل أوروبا
- 256 ..... آليات الانتقام التاريخية في سقوط إسبانيا
- 257 ..... الرد الحضاري حسب توينبي (استقراء التاريخ)
- 259 ..... أين الإشكالية إذن؟
- 261 ..... الطرح الإنساني وتجاوز القهر
- 261 ..... مشكلة الآخر: إلغاء أم إيجاد؟!
- 263 ..... ماجلان يحقق حلم كولومبس (1)
- 265 ..... انقلاب العالم الثلاثي وما تلاها من اختراقات معرفية
- ..... قصة المسلم ليو الأفريقي - نشوء الإثنوغرافيا
- 267 ..... (علم الأعراق)
- 268 ..... حمى الكشف الجغرافي وروح المغامرة
- 269 ..... مشروع ماجلان
- 270 ..... التعهد والعقد الملكيان
- 270 ..... التحضير للرحلة
- 271 ..... المرايا والأجراس لأهل الجزر البدائيين
- 271 ..... كائن فوق البشر لا يمكن قهره؟!
- 272 ..... نوعية رجال الحملة
- 274 ..... شخصية ماجلان (فرنان دي ماجلان)
- 275 ..... متاعب الرحلة
- 276 ..... كرونولوجيا الرحلة (تتابع أحداث الرحلة الزمني)
- 279 ..... عاقبة الغزاة الإسبان
- 279 ..... آثار الرحلة

## رحلة ماجلان في منظورها التاريخي (2) الآثار الجانبية

- 281 ..... البعيدة للرحلة
- 281 ..... أعجب قرار تاريخي
- 282 ..... آثار جانبية لا تصدق من مشاريع فاشلة لكولومبس وماجلان
- 284 ..... جدلية الرئيسي والجانبية
- 284 ..... مبدأ السير في الأرض
- 286 ..... فانظروا كيف بدأ الخلق؟! .....
- 288 ..... الخلفية التاريخية للرحلة
- 289 ..... بين معركة الأرمادا ومعركة أنقرة
- 290 ..... كرونولوجيا الرحلة
- 292 ..... الرجل الحديدي بيكي
- 292 ..... السير في المحيط العظيم
- 293 ..... المعاناة الرهيبة
- 294 ..... المرض يتفشى
- 295 ..... نهاية ماجلان بحماقة
- 296 ..... فكرة تقرير المصير عند الشعوب
- 299 - IV ..... إعادة النظر في بعض الأحداث والمكونات التاريخية
- 301 ..... الثقافة الإمبراطورية: هارون الرشيد
- 306 ..... صلاح الدين الأيوبي تحت المجهر
- 312 ..... سقوط القسطنطينية من منظور جديد 1453 م



I

**مدخل تاريخي**  
**بداية الانهيار**





## الحلقة المفقودة؟

يصاب القارئ عموماً بالدهشة حينما يقرأ التاريخ الفلسفي العلمي الحضاري من مثل قصة الفلسفة ل ويل ديورانت (Will Durant) - وهو كتاب ممتع بحق - أو تاريخ الطب حيث يرى فجوة تاريخية يحار أمامها، بل هناك قفزة لا يمكن تفسيرها ما بين أرسطو وفرانسيس بيكون، أي ما بين النهضة العقلية الهلينية والنهضة الأوروبية الحالية!

هل وقف التاريخ ألف عام فلم يتحرك؟ أم هل بدأ العقل الغربي يتحرك من لا شيء؟ أم أن عقلية قتل المفكرين لأنهم سحرة ومارقين، تحولت من تلقاء نفسها إلى الحرية الفكرية، والبحث الخالد عن الحقيقة، والنهم بغير حدود عن المعرفة، والعطش الإبراهيمي إلى اليقين، والتعامل مع الطبيعة من خلال مفهوم السنن لتسخير نواميسها؟! .

يبقى التساؤل القرآني الخالد ينطبق تماماً على هذه الحالة كما كان في حواراته مع العقل الجاهلي القديم: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾؟

لا يتم الخلق من لا شيء ولا يخلق الخلق نفسه. لا يستطيع الخلق أن يخلق نفسه لأنه غير مخلوق فكيف يخلق نفسه؟ ولا يأتي

الخلق من مصدر غير موجود فكيف يوجد أو كيف ينبثق ولا وجود قبله؟

بل يبقى أمامنا مهمة اكتشاف هذه الحقيقة المهمة لمعرفة نظم التاريخ ونبضه الخلاق، وبالتالي لانصباب بالإحباط أو الحسرة والحزن، حينما يستولي علينا الشعور بأننا كنا على هامش التاريخ. عندما أراد المؤرخ البريطاني جون أرنولد توينبي<sup>(1)</sup> دراسة التاريخ البريطاني وجده غير قابل للفهم وحده، بل لا بد من دراسته ضمن حقل أوسع، وهو ما اهتدى إليه أخيراً في فهم المجتمع البريطاني ضمن حقل أعظم يمكن فهم تطور المجتمع البريطاني من خلاله بشكل واضح، أي فهمه من خلال (الحضارة الغربية). عندها انتقل توينبي - وهو المؤرخ والحجة في التاريخ - لفهم حقول جديدة فالحضارة الغربية هي خلق من خلق الله، وليست الحضارة الوحيدة التي مرت على ظهر البسيطة، كما أنها لن تكون الأخيرة والأفضل، ذلك أن عمر الحضارات قصير (6000 سنة) فيما لو قورن مع عمر الإنسان على ظهر الأرض (2,3 مليون سنة) أو لو قورن مع بداية الثدييات أو عديدات الخلايا (500 مليون سنة) أو عمر الأرض التي نعيش عليها (5,4 مليار سنة).

وصل توينبي إذاً إلى حقول جديدة وحضارات متنوعة، هي متميزة بعضها من بعض، ولكنها متجانسة للغاية ضمن حقلها الخاص، هذه الدراسة قادته وفي مدى يزيد عن نصف قرن إلى فهم

(1) راجع الدراسة القيمة: مختصر دراسة التاريخ - جون أرنولد توينبي - أربعة مجلدات - ترجمة فؤاد محمدم شبل.

عميق لإظاهرة قيام (الحضارات) ونموها ثم تحليلها وتفسخها واندثارها، كمثل أي كائن عضوي ينمو ويشد عوده ثم يشيخ ويهرم ويسلمه الموت إلى انقطاع.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾<sup>(2)</sup>.

يرى توينبي ضعف الروح النقدية عند من يشتغل في التاريخ ويكتب فيه فيقول: «المؤرخون على وجه العموم؛ أميل إلى توضيح آراء الجماعات التي يعيشون ويكدحون في محيطها، منهم إلى تصحيح تلك الآراء»<sup>(3)</sup> وسبقه إلى المفهوم نفسه، مع عبارة أوضح في الدلالة وأعمق في الأثر، ابن خلدون حينما انتبه إلى (مطب) العقلية النقلية، بدون تكوين العقلية النقدية، فسَطَّرَ قلمه هذا المفهوم (السنني) ولكن بعبارات متألقة ومثيرة «لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تُحكَم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يُؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق»<sup>(4)</sup>.

كما انتبه العلامة ابن خلدون إلى فكرة القانون الاجتماعي الذي ينتظم حركة نهوض الدول وانبثاقها، ثم تطورها وقوتها، ثم

(2) سورة الروم الآية رقم 54. والآية في صدر المقالة سورة الطور الآية رقم 25.

(3) مختصر دراسة التاريخ - الجزء الأول - الفصل الأول - بحث وحدة دراسة التاريخ ص 3.

(4) مقدمة ابن خلدون - فصل فضل علم التاريخ - ص 9.

شيخوختها وإذعانها إلى الأرض لتكمل دورة الحياة والموت: ﴿كَمَا  
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾<sup>(5)</sup>

ووصل في اكتشافه المدهش هذا إلى أن عمر الدولة في المتوسط هو (120 سنة)، وإذا بقيت دولة تحكم بعد هذا العمر فليس لأنها خرقت القانون بل لـ (عدم وجود الطالب!). ولكن ابن خلدون لم يتوصل إلى إدراك (فكرة القانون الحضاري) الأشمل وكان على مرمى حجر منه، وإن كان قد أشار إلى كلمة حضارة بمفهوم مجتمع المدينة، وليس على النحو الذي وصل إليه في ما بعد توينبي أو شبينجلر، والذي ينتظم دولاً، وأنظمة حكم شتى، ولكنه حقل موحد يتنفس فيه الإنسان من الهواء الحضاري نفسه، ويسبح في البلاسما الثقافية نفسها.

يعتبر مفهوم (الحضارة) حديثاً نسبياً، وانتبه له المؤرخون المحدثون ومنهم توينبي الذي كرّس عمره لدراسة هذه الظاهرة على وجه البسيطة منذ أن تشكلت بدايات الحضارات، واستطاع الكشف عن ما لا يقل عن 28 حضارة، انبثقت من (600 مجتمع بدائي) مثل مجتمعات النمل والدجاج، فحيث يقف المجتمع في التاريخ لا تدخل الحضارة، وحيث يبدأ في التطور وهو يملك وسائل تطوره تدخل الحضارة، فالنمل أو النحل أو الطيور أو النمرور بل وحتى أرقى الكائنات القريبة من الإنسان، مثل الشمبانزي والغوريلا والقروود من أمثال أورانج أوتان هي هي منذ آلاف السنوات، تعيد دورة الحياة اليومية بدون أي رقي أو تطور في حياتها، في حين أن الإنسان (الذي

(5) الآية سورة الأنبياء رقم 104.

دخل الحضارة) قفز في حياته الاجتماعية من اختراع الكتابة إلى الكمبيوتر، إلى الاتصال بسرعة الضوء، إلى بناء الحكومات والبرلمانات، إلى أسرار الذرة والنسبية وميكانيكا الكم والشفرة السرية للوراثة.

إذن فليس كل مجتمع بدأ بالحضارة، وليس كل مجتمع بدائي استطاع القفز إلى الحضارة، وهناك حتى اليوم مجتمعات لم تدخل الحضارة، كما هو الحال في مناطق من الفيليبين أو أستراليا، كما أن نكس مجتمع ما حضارياً وارد، بل إن موت الحضارة هو قانون مرعب، والقرآن أشار إلى موتين: (موت الأفراد) و(موت الأمم) فأما موت الأفراد فقال عنه ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ نَحِيْدًا﴾<sup>(6)</sup>، وأما موت الأمم فقال عنه: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجْرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾<sup>(7)</sup>، وساعة الأمم هي ليست كساعة الأفراد، وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون، كما أن هناك ظاهرة (القصم والهضم) بين حضارة ماتت وحضارة تبني نفسها، من المواد الخام (الخردة) من الأمة المتبقية، والحضارة حين تموت، لا يموت أفرادها لأن موتها نوعي مثل موت الأفراد بالضبط، فالفرد حينما يموت يحافظ على شكله أولاً ولكن بدون فعالية، بدون نبض حياة، ثم يدخل المرحلة المريعة الثانية حيث يبدأ بالتفسخ، وهو ما يحصل للجثث، بل إن الجثة قبل أن تتفسخ تمر في مرحلة عجيبة، يعرفها الأطباء هي مرحلة (الصمل الجيفي) حيث تتصلب الجثة، وقد

(6) الآية سورة ق رقم 19.

(7) يونس رقم 49.

تمر الأمم في مرحلة تشبه هذا حين تتخشب في شكلها، فيظن الجاهل أنها علامات قوة وعافية، وهي قد فارقت الحياة منذ زمن طويل!. وفي النهاية يرجع كل شيء إلى مصدره الذي خرج منه، فالإنسان في حقيقته ليس أكثر من برميل ماء وقبضة من كالسيوم العظام، وحفنة من (حديد) الدم و(يود) الدرق، ونشارة من (فوسفور) الدماغ و(كلور) المعدة و(آزوت) البول. وبذا فمع الموت يضيع الإنسان ككيان ووحدة عضوية وشخصية، ولكن لا يضيع منه شيء ك (وحدات بناء أولية)، وهو ما أشار إليه القرآن: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْزٌ حَفِيظٌ﴾<sup>(8)</sup> كذلك يحصل للأمم حينما تموت حيث تتوقف (الوظيفة الحضارية) أولاً، ثم تدخل المرحلة الثانية من ضياع الشكل، والتحول إلى الوحدات الأولية، وهي هنا الأفراد، ليتم استخدامهم ك (طوب ولبنات بناء) في حضارة ثانية، كما حصل مع الإمبراطورية الرومانية وهي تبتلع مخلفات ثلاث مجتمعات ماتت (القرطاجني والغالي والفرعوني).

درس المؤرخ البريطاني 28 حضارة بشكل موسع، منها خمس حضارات بشكل مكثف، واعترف بحضور خمس حضارات في الوقت الراهن في التاريخ العالمي، منها الحضارة الغربية وخصيمتها الحضارة الإسلامية!... وبذا بدأنا في الاقتراب من ملء الفجوة السحرية والحلقة الناقصة المفقودة!.

لقد اتفق المؤرخون على (ظاهرة الحضارة) ولكنهم اختلفوا في النشأة والحياة، والمصير والمنتهى ويعتبر المؤرخ والفيلسوف الألماني

(8) سورة ق رقم 4.

شبينجلر<sup>(9)</sup> من المتشائمين، لأنه وضع سفرأً ضخماً بعنوان سقوط الحضارة الغربية "Der Untergang Des Abendlandes = The Decline of the West" مدشناً النهاية التي لا محيص عنها للحضارة الغربية، خاصة إذا علمنا الفكرة التي فهم بموجبها تطور الحضارة، فهو يرى مثلما رأى ابن خلدون مع الفرق في مستوى الرؤية، حيث يراها ابن خلدون في مستوى الدولة في حين أن شبينجلر يراها في مستوى الحضارة من أن الهرم إذا نزل بها فلا يرتفع، كما لا يمكن أن يصلح العطار ما أفسد الدهر ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟<sup>(10)</sup>. واختلف توينبي في هذا، الذي يتفاءل بمد فسحة الحياة للحضارة الغربية، من خلال التدخل في قانون نمو الحضارة الذي ينتظم نموها وتطورها.

مع هذا، فإن حديثنا الآن هو ليس عن النهاية التي هي في عالم الغيب والتي يُرجم فيها كما رجم الناس في عدّة أصحاب الكهف! بل حديثنا عن البدايات. . . والآن إذا كانت الحضارة الغربية قد ولدت فهل لها أب وجد وأم وجدة؟ أي هل ولدت بالقانون الذي يسري عليها وعلى غيرها أم ولدت بدون قانون؟ هل هي كائن غير شرعي وُلد سفاحاً وترك لقيطاً، فلا تريد الحضارة الغربية الاعتراف بأب وأم؟ أم هي كائن خارق للعادة، وكأنه المسيح الذي خلق من بويضة بدون نطفة؟

هذا السؤال عذبنى كثيراً، ولم يشفني فيه مجرد كلمات المديح

(9) شبينجلر، سقوط الغرب - ثلاث مجلدات ترجمة أحمد الشيباني.

(10) سورة يس رقم 68.

والثناء والانتفاخ، عن أثر الحضارة الإسلامية في إنجاب هذا الطفل (العاق والمتمرد) والمتنكر لإصله؟ فرحت أحاول مسك الخيوط التاريخية، وبالأسماء والتواريخ على وجه الدقة، فاصطدمت بمعالم واضحة ارتسمت على محياها عبر التاريخ، خاصة منعطف منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، الموافق لمنتصف القرن السابع الهجري، حيث يشكل هذا التاريخ (انعطافاً نوعياً) ليس في تاريخ الغربيين فحسب، بل في تاريخ الجنس البشري قاطبة، حيث خسر العالم الإسلامي قيادة الجنس البشري على الرغم من بدايات تحول خطير لتحول حضاري نوعي من خلال أمرين هما التراكم المعرفي وتكدس الثروة.

في هذا المنعطف بدأ في التشكل تياران، أو منعطفان، مشى فيه المخطط الأول باتجاه القوة والتقدم، والثاني باتجاه الانحطاط والتراجع، وبذا انقلبت محاور العالم ليصبح الشمال جنوباً والجنوب شمالاً، ولنولد نحن في خط الجنوب، حيث تنقل لنا الإذاعات الأخبار التي لا تسر تنصب علينا مع كل شروق شمس!.

ولكن ما بالننا نستعجل التحليل التاريخي بدون مقدماته؟

لنرجع إلى التحليل التاريخي عند توينبي في محاولته فهم التاريخ البريطاني... عندما أراد توينبي فهم تاريخ الأمة البريطانية بشكل مستقل عجز في ذلك ورأى أنه «لن نقع على أمة بمفردها، أو على دولة قومية في أوروبا تطلعنا على تاريخ يمكن أن يقوم مفسراً لنفسه بنفسه»<sup>(11)</sup>. ثم يتساءل المؤرخ أنه لو كان هناك حقل قابل للفهم بذاته

(11) مختصر دراسة التاريخ - توينبي - الجزء الأول، ص 4.



وجب أن يكون تاريخ بريطانيا العظمى، الذي كانت والدته تقص عليه كل ليلة طرفاً منه! .

إذن ما هو الحقل الذي يمكن فيه فهم التاريخ الإنجليزي؟ .

يقوم المؤرخ توينبي بعملية عودة إلى الخلف، في محاولة تفكيك هذه الظاهرة للوصول إلى وحداتها الأولية، وللكشف عن جذورها الأصلية، أي القيام بعملية (حفريات) للمعرفة على حد تعبير فيلسوف الحدائث (ميشيل فوكو) لاكتشاف الطبقات الجيولوجية التاريخية التي تغطي الحقبة التي يعيش فيها المؤرخ، وهذا الشيء ينطبق أيضاً على الكيان النفسي المتراكم من خلال الخبرات عبر الزمن، حيث نرى دوماً طبقات اللاوعي مختبئة تحت طبقة الوعي. كما أشرنا سابقاً إلى القانون الجدلي التراكمي في بحث سابق (باعتبار أن الإنسان هو المحصلة التراكمية البطيئة الجدلية للجهد الواعي من خلال وحدات الزمن).

عندما مشى توينبي في رحلته المثيرة هذه وصل إلى منعطفات متدرجة عبر التاريخ، وصلت فيها الطبقات الجيولوجية الفكرية التاريخية الاجتماعية الحضارية، إلى سبع طبقات منضدة فوق بعضها (كما هي تماماً في حفريات سليمان الألماني في اكتشاف مدينة طروادة ذات الطبقات السبع ولكن أركيولوجياً)، هذه الطبقات كل منها يأخذ برقبة الأخرى، ويتداخل معها، ويولدها ويخرجها إلى النور، بحيث إن كل طبقة تفسر التي بعدها، هذه الطبقات السبع عند توينبي بدأت من ولادة العصر الصناعي، ومرت بالحكومة البرلمانية، فالتوسع عبر البحار (يرجى الانتباه أننا نرجع إلى الخلف عبر الزمن)، فالإصلاح الديني، فالنهضة (وهي بشكل واضح من الفسائل التي غرست ما يشبه

المحميات النباتية في شمال إيطاليا)، بإقامة النظام الإقطاعي، فالتحول إلى المسيحية. وعندما يضع توينبي كل حقبة جيولوجية تحت الدراسة الأركيولوجية التاريخية، فإنه يكتشف أن العنصر الخارجي يشتد مع حركة القهقري التاريخية بشكل أكثر كثافة. وهكذا فالمسيحية من الشرق الأوسط، والنظام الإقطاعي من الغزو النورمندي، والنهضة نسمة حياة هبت من شمال إيطاليا، والبروتستانتية التي شكلت المناخ النفسي للتحول الصناعي على النحو الذي شرحه (ماكس فيبر) في كتابه الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية هي حركة ألمانية، ويصل المؤرخ توينبي إلى تقرير هذه الحقيقة «توضح هذه اللمحة العكسية التي ألقيناها على مجرى التاريخ الإنجليزي ابتداءً من يومنا هذا أنه كلما رجعنا القهقري ضعفت شواهد الاستكفاء الذاتي أو العزلة»<sup>(12)</sup>.

وإذا كانت حلقات الارتباط على هذا النحو من الوضوح والترابط العضوي ضمن الحضارة الواحدة، فهل تشذ عن ذلك علاقة التأثير المتبادل المزوج بين الحضارات المتعاصرة والمتصلة؟ فضلاً عن مجتمعاتٍ ممتلئة بالحضارة، في جوار مجتمعاتٍ تعتبر التفكير هرطقةً، والعلم سحراً يُعاقب عليه بالحرق، والمرض لعنةً من إبليس يستخدمه فيها الله كأداة تعذيب للمذنبين، وانتشار الطاعون متعلق بالأبراج السماوية؟! .

هل يعقل أن يصل نيوتن إلى قوانين الميكانيكا بدون مقدمات؟ أو باسكال إلى قانون الأواني المستطرقة بدون علم متراكم؟ أو غاليليو

(12) مختصر دراسة التاريخ - الفصل الأول - ص (4 - 7).

غالييلي إلى حركة الأجرام السماوية بدون إرهاصات مبدئية؟  
 أما في كتاب قصة الفلسفة لـ (ويل ديورانت) فإننا نفقر بأشد من  
 أبطال السيرك بدون أن تدق لنا عنق، متجاوزين ألف سنة بجرة قلم،  
 توقف خلالها التاريخ، فنضبت العصارات الذهنية عن أي عمل  
 خلاق، وشح العقل الإنساني عن أي إنتاج مبدع، وعقمت الأرحام  
 عن إنجاب أي عبقرية؟! ولا غرابة لأنه لا إبداع إلا مع جلد أبيض!  
 ولا عبقرية إلا مع عيون زرق! هكذا يفهم العقل الأوروبي المتمركز  
 حول نفسه نبض التاريخ وحركته التي تطوي أكبر منه ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ  
 نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾<sup>(13)</sup> ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتَهُم لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا  
 لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾<sup>(14)</sup> ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا  
 عَمَرُوهَا﴾<sup>(15)</sup>.

أما في تدريسنا الطب عندما كنا طلاباً فكانت فنون الطب تنظ  
 بشكل سحري من جالينوس وأبقراط إلى هارفي ومالبيكي! وكان  
 أدلارد الباثي (Adelard of Bath) وألبرت ماجنوس (Albert  
 Magnus) وروجر بيكون (Roger Bacon) لم يقولوا: «لقد تعلمت  
 عن أساتذتي العرب أن أسترشد بالعقل . . إذ لا شيء أكثر ضماناً من  
 العقل»<sup>(16)</sup>.

أين تم التحول الغربي الإسلامي؟ في أي وقت؟ تحت أي

(13) سورة آل عمران الآية 140 .

(14) سورة الكهف الآية 59 .

(15) سورة الروم الآية 9 .

(16) قصة الحضارة - ويل ديورانت - المجلد 17 ص 200 .

ظروف؟ ما هي الملابس التي طوقت ظاهرة الصعود - الهبوط؟  
 في مراجعة كتاب قصة الفلاسفة العظام لمؤلفه الألماني (إيرهارد  
 أورثوباند)<sup>(17)</sup> يقف المؤلف عند حادث هام وفريد، بل ومفصلي في  
 تاريخ العقل الأوروبي: إنه عام 1215 ميلادي حيث انعقد المجلس  
 الكنسي الرابع في (لاتيران).

في هذا المجلس وبحضور البابا (إينوسنس الثالث) وبتاريخ  
 الثالث عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر من العام المذكور، تمت مناقشة  
 طبيعة الأمراض وانتشارها وكيف يمكن تحليلها؟ وخرج المجلس  
 بالأفكار الآتية: إن المرض وسيلة يستخدمها الله لغرض يفرد بعلمه،  
 قد يكون عقوبة للمذنبين، أو للكمال من خلال المعاناة، حيث  
 يستخدم الله الشيطان كوسيلة لهذا الغرض، وهو يطابق ما جاء من  
 تعليمات المسيح في الإنجيل، وبناء على هذا فكل وباء ينتشر يجب  
 اعتباره عقوبة من الله، تخيم فوق رؤوس الناس، وعليهم مكافحتها  
 بالصلوات وممارسة التطهير الروحي ودفع أموال الندم، من أجل  
 تخفيف غضب الله، أو أن أمامهم الموت أو العذاب؟! . هكذا كان  
 يفسر انتشار الأمراض في أوروبا في تلك الأيام، وهكذا كان يعالج  
 مرض خطير مثل الطاعون، وبذا حُلدت الكثير من اللوحات الفنية  
 عقلية الناس تلك الأيام.

يقول المؤلف الألماني (أورثوباندت) معقباً على ما مر: في  
 الوقت نفسه كان هناك طرز آخر من التفكير، وبشكل معاكس تماماً،  
 ومن خلال الفهم السببي لعلوم الطبيعة، تلك التي كان المسلمون

(17) كتاب إيرهارد أورثوباندت - مرجع ألماني - نشر دار داوسين .

يمارسونها في الأندلس مثل الطبيب العربي الأندلسي (ابن الخطيب)، الذي كان يرى أن انتشار الأوبئة يحدث من خلال العدوى، وهنا يستشهد بما كتبه ابن الخطيب بالذات: إن واقع العدوى يمكن الوصول إليه من خلال الخبرة، والبحث، والنظر في الواقع، وتشريح الجثث، والشهادات الميدانية، هذه الوقائع تعطينا الحجج التي لا يمكن دحضها أن المرض ينتشر من خلال العدوى المرضية عبر الاتصال بالمرضى، وأن الذي لا يتصل بالمرضى يبقى محفوظاً من المرض، كما أن الذين يحملون المرض ويأتون إلى الموانئ ينقلون المرض، فإذا عزلوا لم ينتشر المرض.

يقول المؤلف الألماني معقياً على ما مر: من هذا الاستشهاد يمكن أن نقرر وجهة نظر المسلمين في كيفية فهمهم لآلية انتشار الأمراض أنها: «استخدام الحواس للفهم والإدراك، الخبرة العملية، جمع الوقائع وتقييمها الإحصائي، البحث في الأسباب وتقسيم وحدات الواقعة المذكورة، ويمكن إيجاز كل هذا بكلمات قليلة: المراقبة الدؤوبة الدقيقة لكيفية عمل الطبيعة، وكأن الطبيعة تقوم بالتجارب التي لا تنتهي، ولكن النتائج فقط هي التي تُكشف للعيان. وبهذه العقلية السببية للطبيعة بدأ تشكل الفلسفة المدرسية في أوروبا»<sup>(18)</sup>.

إذن مع منتصف القرن الثالث عشر الميلادي حصلت بدايات التحول الأولى، في توليد ما عرف بالمدرسة (السكولاستيكية) ولكنها لتولد نتائج مريعة بسبب خروجها من بوتقتها الأصلية لتصطدم بمناخ

ديني غير مناسب، وهكذا حصل الفصام النكد بعد ذلك بين الإيمان والعلم، وأصبحت كلمة (الظن) باللغة الألمانية تعني العقيدة (Glaube) وهو الشيء الذي اصطدمت به أثناء إقامتي الطويلة في ألمانيا، في حين أن كلمة العلم (Wissen) تعني اليقين، وهي شيء آخر غير الاعتقاد الظني الوهمي الهلامي غير الراسخ، وتشبث في أرض سبخة من هذا النوع، يعني تمسكاً أخرقاً يطلق عليه الدوغما (Dogma)، وهو الشيء الذي حصل معي أثناء مناقشتي لهم، حيث كانوا يقولون لي هل (تعتقد = تظن) (Glauben Sie) أو (تعلم = توفن) (Wissen) بالطبع كان جوابي أن لا عقيدة بدون يقين، والعقيدة تبنى بالعقل، وهو المطمح الإبراهيمي الدائم ولكن ليطمئن قلبي ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾<sup>(19)</sup>.

هنا أدركت عمق وجذر هذه الكلمة (الظن = العقيدة) المتصلة بالتاريخ، وفي هذا الوقت من منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، بدأت أوروبا في التشكل بخلق جديد، ونشأة مستحدثة، وطور مستأنف، حيث قام بعض الرواد الذين لا نسمع عنهم الكثير، مثل روجر بيكون، ودنس سكوتس (Duns Scotus)، وأوكهام (Ockham)، ومارسيلوس (Marsilius)، يشقون الطريق إلى عالم فكري جديد عبر مغامرة كبرى للعقل الأوروبي.

هذه الفلسفة المدرسية السكولاستيك كانت هي النواة الجينية الأولى المختبئة تحت الأرض، والتي ضربت جذورها لتقوم عليها بعد

(19) آل عمران الآية رقم 190.

ذلك الحركة الإنسانية والنهضة الأوروبية العقلية الجبارة بعد ذلك .  
كان من أخطر توجهات العقل الجديد المتأثر بالعقلية الإسلامية  
سواء من الأندلس أو صقلية مناطق حواف الاحتكاك، هي أن الفكر  
الكنسي لا يمكن أن ينتظم مع العقل العلمي، وبدأت بوادر الانشقاق  
الفكري التي ترى أن الحرية الفكرية لا يمكن أن تمشي مع الفكر  
الديني جنباً إلى جنب، وبالطبع فإن الكنيسة تحمل الوزر الأكبر في  
هذه المعركة المشؤومة، ومازالت ذيول هذه المعركة تمتد حتى الوقت  
الراهن إلى الدرجة التي نشرت فيها مجلة الشبيجل الألمانية في عددها  
51 / 93 صورة لقس جديد يقول: نعم . . لله لا . . للكنيسة تحت  
عنوان الثائر الجديد درويرمان .

بالطبع قامت الكنيسة بمحاولة توفيقية، من خلال الجهود الفكرية  
التي نظمها توماس الأكويني، في محاولة منه لبناء العقيدة مع العقل،  
واعتبر فكره درع الكنيسة الحصين ضد فكر أبو الوليد ابن رشد، ثم  
قامت الكنيسة في بناء المراكز العلمية لمقاومة الغزو الفكري الإسلامي  
بسلاحه نفسه، ونشطت حركة الترجمة، حيث تم ترجمة معظم الفكر  
الإسلامي - لحسن الحظ - لأن مئات الآلاف من المجلدات كانت  
تحرق في ذلك الوقت بيد الآلة الجهنمية المغولية الزاحفة من الشرق .  
تمت الترجمة من اللغة العربية التي كانت لغة العلم العالمية في  
ذلك الوقت والتي كان يتقنها فلاسفة الفترة السكولاستيكية، وتخمرت  
هذه الجهود في مدى قرنين، إلا أن الذي حدث هو أن هذه المراكز  
تحولت في ما بعد إلى جامعات تكرس الفكر العلمي وتودع الكنيسة  
الوداع الأخير، وبذلك وضع الختم النهائي على علاقة العلم -  
الإيمان .

وإذا كانت بدايات الصعود الأوروبي قد تم إلقاء بعض الضوء على خلفياتها، فما هو سر الانحطاط الإسلامي المرافق في الوقت نفسه، حيث نلاحظ وفي مدى عشر سنوات بالضبط بين عامي 1248 م التي تؤرخ سقوط إشبيلية، و1258 م التي تعلن سقوط كعبة العلوم بغداد، ومعهما يعلن سقوط جناحي العالم الإسلامي، كما يسقط الطير من السماء بدون جناحين مخضباً بدمه في مذابح مروعة، وحرائق مخيفة، تأخذ مع ألسنتها عصارات الفكر الإنساني في نكبة لا يضارعها شيء، ذلك أن ذبح ثمانمئة ألف إنسان في بغداد قابل للتعويض، فطبيعة الوجود هي بين أرحام تدفع وقبور تبلع، ولكن الذي لا يعوض ولم يعوض، هو ذلك التراكم المعرفي الذي كدس في المكتبات العامرة للمدن الإسلامية الزاهية أمثال سمرقند وبخارى والرها ومرو وخراسان وأصفهان وتبريز وحلب، والذي يشكل أساس التحول النوعي الحضاري فتقوض تحت السيف المغولي الرهيب.

هذا الالتقاء المشؤوم في الصعود والهبوط، هو المنعطف الذي يشكل واقع العالم الإسلامي، ووضع العالم الغربي الذي يقول: أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبعد هذه أبداً؟!!



## إنسان ما بعد الموحدين (نحو نظرية كوبرنيكوس اجتماعية)

1198

في عام 1198 م مات (ابن رشد) بعد أن طرده الغوغاء من مسجد قرطبة ونفاه الملك الموحدى إلى قرية الليسانة اليهودية بعمر السبعين . وبعد عشرين عاماً طحنت الدولة الموحدية بجنب مدينة (ثيوداد رويال) في الأندلس في معركة العقاب في أفضع عقاب . وبعدها تهاوت الحواضر الأندلسية كورق الخريف : بالنسيا 1236 ، قرطبة 1238 ، وأخيراً إشبيلية عام 1248 م ، ومع أفول عصر الموحدين دخل العالم العربي ليل التاريخ وأنتج إنسان ما بعد الحضارة كما في نفايات الطاقة بعد استهلاكها . وهكذا تفعل الحضارة بالإنسان تستهلكه مادة خام وتصنعه إنساناً متفوقاً ويخرج منها متبخر الطاقة الابداعية . يظهر بعدها على السطح إنسان يتقن التمثيل ويؤدي كل الأدوار بدءاً من الصعلوك وانتهاءً بالإمبراطور . قد تبخر عنده المثل الأعلى ووقع في شبكة (علاقات القوة) في مجتمع فرعونى تحول إلى (مستكبرين ومستضعفين) . يعيش (كالاميبيا) على شكل كائن رخوي بدون مفاصل تحدد حركته أو عمود فقري يقيم صلبه . يحل مشاكله بمد أذرعة كاذبة قابلة للتشكل على أي صورة فيمكن أن يأخذ صورة (قلم) يوقع كلمة نعم في كل انتخاب ، كما يمكن أن يكون (بوقاً) مردداً ما يطلب منه

من شعارات، أو (بندقية) تقوم بحفلات الإعدام حسب الأوامر، أو (سيارة) جاهزة للقيادة لمن يحكم قبضته على مقودها ولو كان لصاً يخطفها فمتى اعترضت سيارة على هوية السائق. وبتعبير مالك عن هذا الكائن الاجتماعي: (ثم يبدأ تاريخ الانحطاط بإنسان (مابعد الموحدين) ففي عهد ابن خلدون استحال القيروان قرية مغمورة بعد أن كانت في عهد الأغالبة قبة الملك وقمة الأبهة والعاصمة الكبرى التي يقطنها مليون من السكان، ولم يكن حظ بغداد وسمرقند خيراً من ذلك؛ لقد كانت أعراض الانهيار العام تشير إلى نقطة الانكسار في المنحنى البياني). تروي لنا السيرة والتاريخ واقعتان على التشكل الصحي للمجتمع أو الانحراف المرضي. فأما الأول فهو موقف أحد الصحابة في معركة أحد وهو يفارق الحياة قائلاً: لا عذر لكم إن خُلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف. وأما الثاني فهو عقيل ابن أبي طالب يواجه مصادرة الحياة الراشدية على يد البيت الأموي: (إن صلاتي خلف علي أقوم لديني وإن معاشي مع معاوية أقوم لحياتي)، فالتاريخ ينقل لنا هنا مأساة انفكاك الضمير عن الواقع. في الوقت الذي كان أكيل نموذج يندمج فيه الضمير مع المثل الأعلى والحياة (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين). إن حادثة السيرة تروي أقصى ما يمكن أن تفعله التربية بالإنسان، والمجتمع يمكن أن يحدد بين الصحة والمرض بموجب مؤشرين: إنتاج (النموذج الإنساني) و(الكمية الحرجة) من هذه الكتلة كما في أي تغير نوعي في أي وسط، فالقنبلة النووية لم تنفجر إلا بكتلة حرجة، كما أن تغير الماء النوعي يتم وفق الدرجة الحرجة سواء في التجمد أو التبخر، وهذا ينطبق على اندلاع الثورات في المجتمع عندنا تصل إلى الوضع

الحرص بين سوء الأوضاع من جهة والوعي الجماهيري من طرف مقابل . وهناك ثلاث مستويات يمكن أن يتشكل وفقها (الإنسان الاجتماعي) ففي الأول يبرز إنسان مستلب الإرادة والثاني محرر الإرادة والثالث إيجابي الإرادة. فأما الأول فممسوخ الآدمية أقرب إلى القردة والخنازير يفعل ما يوحى إليه في مجتمع متدني الفعالية يعبد سادته وكبراءه يعيش حالة وثنية سياسية بأصنام وصور مشرعة. وهو ما شبهناه بشكل القلم أو البوق أو البندقية، فلا يرد القلم ما تخطه اليد من الموافقة بنعم، أو بوق يردد رجيع الصوت بدون مناقشة، أو يقوم بالجريمة بأكبر حجم لأن الأوامر جاءت هكذا. إن إنسان ما بعد الموحدين مستعد أن يهدم الكعبة لو أمر بذلك. ولربما بكى وهو يفعلها. هذا النموذج الممسوخ يمثل الطبيعة في ظاهرة (القصور الذاتي) فالسقوط محتم لكل الأشياء باتجاه الأسفل. أما الصعود فيحتاج إلى طاقة وهنا تفعل التربية فعلها فترتفع بالإنسان باتجاه المثل الأعلى. يقول بن نبي: «وهنا لا نواجه تغييراً في النظام السياسي بل إن التغيير يصيب الإنسان ذاته الذي فقد همته المحضرة فأعجزه فقدها عن التمثل والإبداع». ويطرح عالم النفس البريطاني (هادفيلد) في كتابه التحليل النفسي للمخلوق هذا السؤال الحرج: ما هو المنبه المناسب لتنشيط الإرادة؟ ويجب أن كل حاسة لها مثيراتها، وهكذا فالفوتونات تحرض حاسة البصر، والذبذبات الصوتية تحرض حاسة السمع، والجزيئات الكيماوية تحرض حاسة الشم، ولكن ما يحرض الإرادة هو المثل الأعلى. ويرى المؤرخ البريطاني (توينبي) أن الإرادة الجماعية تحرض عند بروز التحدي التاريخي في وجه جماعة اختارت العمل المشترك، وهو ما تفعله التربية بالقفز بالإرادة الإنسانية إلى فرق

جديد في الطاقة فتتحرك وتؤدي الأعمال في صورة مواطن وإع مشاركة مسؤول، فيفعل ما يراه صحيحاً ويمتنع عن المعصية. وهكذا يظهر إلى سطح المجتمع إنسان جديد (محرر الإرادة) ليس عصاً للضرب بكل يد أو طبلاً جاهزاً للقرع بكل الأنغام والرقصات أو مسدساً جاهز الزناد لإعدام أبيه حتى. إن القرآن قرن بين ثلاث مظاهر للمسوخ في اتجاه العبودية فذكر (القردة والخنازير وعبد الطاغوت) ويظن بعضهم أن المسوخ كان بيولوجياً وهو ثقافي كما نرى. إن أول ما نزل من القرآن كان سورة العلق، وهي أكدت ثلاثة معان مفصلية: الأول تأكيد الكرامة بالقراءة (اقرأ وربك الكرم) من خلال تغيير محتوى الوعي بالمعلومة المكتوبة بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم. والثاني معالجة أشد مشاكل المجتمع خبثاً واستعصاءً وهي الطغيان وأنه قابلة مشكلة في جبلة كل منا إذا منح السلطة بدون ضوابط. ونحن نعرف أن سلطة قليلة تعني فساداً قليلاً وسلطة مطلقة تعني فساداً مطلقاً. والثالث: وصفة بسيطة للتخلص من الطغيان وهي (عدم التعاون) ورفض الطاعة لأن الحساب في الآخرة فردي ويجب أن يفكر الإنسان باستقلال ويتصرف بإرادة، وهو مسؤول عن أعماله ولو كانت مثقال ذرة من خردل. والاقتراب من الله في النهاية لا يتم بغير سجود فعلي ولا سجود إلا برفض الطاعة ﴿كَلَّا لَا نُطِيعُهٗ وَأَسْجُدُ وَأَقْرَبُ﴾. في انتخابات أي بلد عربي لو جلس الناس بكل بساطة في بيوتهم ورفضوا النزول ما الذي سيحصل لهم؟ إن الناس لا تقرأ القرآن عما فعل فرعون بالجماهير ﴿وَأَسْرَهُبُوهُمْ وَجَاءَهُ وَبِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾، إن العقل معتقل وإن المثقف مقطوع اللسان، وإن مواطناً تقدم له بطاقة مخير فيها بين (نعم) و(لا) كحق دستوري ويشعر أنه مجبر على مخالفة ضميره لمواطن

مسحور. إن السحر أعيد أحيائه بعد موت هاروت وماروت بأربعة آلاف سنة. يقول مالك بن نبي عن (إنسان مابعد الموحدين) أن: «نفسه المريضة تخلقت في جو يشيع فيه الإفلاس الخلقى والاجتماعي والفلسفي والسياسي». إن القرآن يبني فلسفته ليس على قتل الباطل، أو التآمر على النظام، ولا إشباع القلب بكراهية الحاكم أو محاولة اغتياله، فكلها اختلاطات مربكة لا تزيد المرض إلا سوءاً ولا حلّاً للمشكلة إلا بالابتعاد عن كل حل. ونعود إلى فكرة النماذج؛ فالأول هو الإنسان العربي الحالي الذي طلق إرادته ثلاثاً في بينونة كبرى، وهناك من يفكر عنه بالوكالة قد لبس حلة القاصرين. والثاني هو من تحررت إرادته من العبودية فرفض الطاعة. أما الثالث فهو الذي يقول قبل أن تهدموا الكعبة اقتلونني فلن أرى أو أسمع بما يحدث. إن الجيوش والشعوب العربية كلها تقاد إلى الكوارث من خطامها لأنها في حالة خدر لذيذ مغيبة الوعي عن التاريخ خارج العصر يفعل بها الأوصياء ما يشاؤون. إن شحن الإرادة من السلبية المطلقة إلى الإيجابية المطلقة هو محصل تيار إلكتروني عارم من الإرادة بدفعها باتجاه المثل الأعلى كما يفعل الليزر بتجميع حزم الضوء باتجاه نقطة واحدة حارقة. يروي المؤرخ ديورانت أن (كوبرنيكوس) اكتحلت عيناه بكتابه عن الأجرام السماوية قبل موته بساعة. ويبقى السؤال لماذا كان اكتشاف كوبرنيكوس انقلابياً إلى هذا الحد وهو لا يزيد عن شرح من يدور حول من؟ والجواب في ثلاثة زوايا: زلزلة أشد الأمور وثوقاً. ويجب إعادة النظر في مفاسل أساسيات التفكير. وإن الإيمان يجب أن يحرر من الدوغمائية. فالإيمان هو تقليب النظر في السموات والأرض آيات لأولي الألباب، وإن الكفر هو إغلاق منافذ الفهم

وتكميم الأفواه عن التعبير وإن الكافرين لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها. ويفيدنا هذا الأمر اليوم في إضاءة ثلاث حقائق: إن الشعوب هي التي تختار أصفادها فهي إلى الأذقان فهم مقمحوون. وإن الحكام لا يزيدون عن كواكب انفصلت من جرم الشمس فهي تدور حول الأمة، وإن الحاكم على دين الأمة وليس العكس. وإن الكسوف الاجتماعي يتم عندما تكف إرادة الفرد عن التشكل فيبهت كل شعاع وتنضب كل طاقة ويدخل المجتمع ليل التاريخ. يقول بن نبي: «وطالما ظل مجتمعنا عاجزاً عن تصفية هذه الوراثة السلبية التي أسقطته منذ ستة قرون فإن سعيه إلى توازن جديد سيكون باطلاً عديم الجدوى»، وما يحتاجه المجتمع بالدرجة الأولى هو العلوم الأخلاقية والنفسية، أما العلوم المادية فقد تكون على حد تعبيره: «خطراً في مجتمع مازالوا يجهلون فيه حقيقة أنفسهم ومعرفة إنسان الحضارة أشق كثيراً من صنع محرك أو ترويض قرد على استخدام ربطة عنق».

## ابن رشد ومعركة العقاب

عام 1212

حتى يمكن فهم أين يقف العلم اليوم لابد من معرفة كيفية بدئه؟  
فكل علم له بداءات أولية، وتشكلات جنينية .  
كل حدثٍ هو نتيجة لما قبله وهو في الوقت نفسه سببٌ لما  
سيأتي بعده، فهناك علاقة جدلية بين الأحداث، وهناك ترابط محكم  
بين الوقائع .

في هذه الحلقة سوف نستخدم المفهوم القرآني لاستجلاء التطور  
العلمي في ضوء وقائع التاريخ وأحداثه . ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا  
كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ . . . فلنحاول تأمل خلق العلم .

بينما كنت أتأمل جدران قصور غرناطة في رحلاتي المتكررة إلى  
إسبانيا لفت نظري تكرر عبارة (لا غالب إلا الله) منقوشة في الجدران  
بشكل واضح مكرر لا يضل في قراءتها أي قارئٍ للغة العربية، فسرح  
بي الخيال في محاولة (استنطاق) لهذا النص وخلفيته المعبرة .

إنهم يرون أنهم يهزمون ولكن (وللتعويض) في وجه خصومهم  
الذين قهروهم وبقوا في أرضهم القرون الطوال، يجب أن يقولوا إن  
الذي يهزمهم ليس خصمهم بل (الله) الذي لا طاقة لأحد به ولا  
قدرة. إذن كان حلاً نفسياً مريحاً، ولكن هذا الترنح كان قبل الهزيمة

النهائية، والطرود من شبه الجزيرة الإيبيرية، وإبادة من بقي فيه رائحة من بقيتهم.

كل هذا بدأت قصته بشكل مبكر أبكر بكثير مما يرويه الحجر الميت الذي كنت أقرأ فيه بقايا هذه الكلمات (لا غالب إلا الله).

وبينما كنت مع صديقي المقيم في إسبانيا نمر بالسيارة بجانب مدينة رويال ثيوداد (Royal Ciudad) سألته عن المدينة متجاهلاً هل تعرف عن تاريخها شيئاً فأجاب بالنفي، قلت له لا تذكر علاقتها بالتاريخ أبداً؟ فكرر بالنفي، فكرت في نفسي: إننا أمة نُكبت مرة أخرى لأنها لا تعرف أفضع شيء مرَّ عليها!.

قلت له إن المؤرخ محمد عبد الله عنان كتب موسوعة كاملة عن تاريخ المسلمين في الجزيرة، وجاء بنفسه إلى هذا المكان قريباً من هذه المدينة ونبش في أرضها، بل واكتشف في بعض الحفر بقايا (رؤوس رماح وأنصال) من آثار أخطر معركة تمت في هذا المكان في عام 1212 م الموافق 609 هـ. ولكن ما لنا وللقصّة الآن. دعنا لا نستبق الأحداث، ولنكشف اللثام عن صفحة سوداء من النكبة العلمية في تاريخنا، بل وفي تاريخ الجنس البشري لنستعرض رحلات العلم والفتح الذهني المترافقة بالمعاناة والعذاب.

في قرار لعن العالم المسلم والطبيب النطاسي أبو الوليد (ابن رشد) ملهم النهضة الإنسانية الحالية؛ ذكر صاحب كتاب الذليل والتكملة ابن عبد الملك نص الإدانة الكامل، سننقل منه بعض الفقرات لمقارنتها بنصوص إدانة أخرى، وأحكام مرعبة تاريخية رهيبية تالية في مسيرة نهضة العقل الإنساني على مدار رحلة الجنس البشري في بقاع متنوعة، وثقافات متباينة، وأديان شتى، في محاولة لإمسك



وفهم سنة الله التي تتكرر ولا تخيب في المستوى الإنساني، مستوى قانون الأحداث النفسية الاجتماعية في معركة الخرافة والعلم: «وقد كان في سالف الدهر قوم، خاضوا في بحور الأوهام... فخلدوا في العالم صحفياً، ما لها من خلاق، مسودة المعاني والأوراق... يوهمون أن العقل ميزانها، والحق برهانها... ونشأ منهم شياطين يخادعون الله والذين آمنوا... فكانوا أضر عليها من أهل الكتاب... وهؤلاء قصارى همهم الغمومة والتخييل، وبث عقاربهم في الآفاق... فاحذروا - وفقكم الله - هذه الشرذمة حذركم من السموم السارية في الأبدان. ومن عُثر له على كتاب من كتبهم فجزأوه النار التي بها يعذب أربابه، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه... والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم ويكتب في صحف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم، إنه منعم كريم؟!».

هذا كان مصير الفيلسوف المبدع الذي استفادت منه أوروبا أكثر من العالم الإسلامي، ففي الوقت الذي أطلقت فيها شرارة العقل المفكر، كان هذا الصك يحكي لنا حرق كتبه أينما وجدت!. وبذا أهدمت مؤلفاته من أمثال شروحات أرسطو وتهافت التهافت وفصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال. وهي اليوم كتب نادرة لا يستفيد منها أحد، كما لم يستفد منها أحد سابقاً (باستثناء الغرب!).

كان مصير ابن رشد أفضل حظاً من غيره لأنه لم يحرق حياً، بل اكتفي بنفيه إلى (الليسانة) ليقضي فيها ما تبقى من أيام شيخوخته، لأنه ألقى هناك معزولاً منبوذاً مدحوراً وهو في السبعين من عمره، ولم يعيش بعدها إلا سنوات قليلة.

كان ذلك التاريخ المشؤوم عام 591 هـ الموافق 1194 م حيث مات المفكر المبدع بعدها في عام 1198م أي مع خاتمة القرن الثاني عشر الميلادي ونهاية القرن السادس الهجري .

ولكن الأمة التي تفعل بمفكريها هذه الفعلة هل تبقى بدون عقاب؟ لنسمع إذن خبر التاريخ عن معركة (العقاب)؟! .

بعد موت الفيلسوف العظيم بأربعة عشر عاماً نكبت (اليتيمة والأيتام) على حد تعبير الخليفة الموحد (المنصور) الذي وصف الأندلس وأهلها بها، وأوصى بهم على فراش الموت، بنكبة عسكرية لم يقم لهم قائمة بعدها كان ذلك في معركة (العقاب) في يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة 609 هـ (ليلة 16 يوليو سنة 1212 م) .

وكما كانت معركة (الزلاقة) هي (الفرملة التاريخية) للسقوط الأندلسي عندما جاء الخليفة المرابطي (يوسف بن تاشفين) في عام 1086 م (479 هـ) لينقذ الأندلس المنهار بعد فترة حكم الطوائف التي دامت ثمانين عاماً (من عام 399 هـ حتى عام 479 هـ) فإن معركة العقاب هذه كانت بداية النهاية للأندلس .

وحتى يمكن أن نعي الوضع التاريخي المكرب للمسلمين في ذلك الوقت والآثار المأساوية لتلك المعركة، ولإلقاء الضوء على هذه الفترة من الظلام الفكري وضيق الأفق والتعصب الذي انتهى في صورة مأساة ابن رشد، فإننا ننقل عن المؤرخ محمد عبد الله عنان ما يلي: «وأما في التواريخ الإسلامية فإنها تعرف بموقعة العقاب، من مفردها عقبة، وذلك فيما يرجح لوقوعها بين الربي والتلال المانعة، وليس بمعنى المعاقبة على الذنب، وإن كان بعض الكتاب والشعراء قد نسبوا إليها مثل هذا المعنى، في معرض التلويح بغضب الله وعقابه

للموحدين، لأنهم حادوا عن جادته، وبغوا وتجبروا، واعتمدوا على كثرتهم ولم يعتمدوا على عونه. ومن المسلم أن خسائر المسلمين في معركة العقاب كانت فادحة جداً. والروايات الإسلامية تجمع كلها على أن الجيش الموحدى قد هلك معظمه. ويصف صاحب الحلل الموشية المعركة بالهزيمة العظمى التي فني فيها أهل المغرب الأندلس.

وقد أسفرت هزيمة العقاب الساحقة عن أفدح وأروع الآثار التي يمكن تصورها، سواء بالنسبة للأندلس أو المغرب أو الدولة الموحدية. فأما بالنسبة للأندلس فقد قضت هذه الهزيمة نهائياً على سمعة الموحدين العسكرية في شبه الجزيرة، وتحطم ذلك الدرع الذي كانت تسبغه الجيوش الموحدية، القادمة من وراء البحر، على الأندلس وعلى دولة الإسلام بها. وتضعف سلطان الحكم الموحدى بالأندلس، وأخذت الأندلس من ذلك الحين تنحدر إلى برائن الفوضى الطاحنة، وانتشرت غير بعيد إلى أحزاب وشيع جديدة، قامت لتضرب بعضها بعضاً، ولتبدأ عهداً جديداً من المعارك الانتحارية الصغيرة التي لا نهاية لها، والتي تذكرنا بعهد الطوائف، وضمن ذلك النصر الباهر الذي أحرزته الجيوش النصرانية المتحالفة في هضاب تولوسا، لإسبانيا النصرانية تفوقها السياسي والعسكري في شبه الجزيرة، وفتح الباب واسعاً لغزو الاسترداد (La Reconquista) النصراني المنظم، الذي سوف يستمر من ذلك الحين في اجتناء ثماره، بانتزاع القواعد الأندلسية، واقتطاع أشلاء الأندلس الكبرى بصورة متتابعة، وفي فترات قصيرة مذهلة.

وقد تردد هذا الفرع الذي سرى إلى الأندلس يومئذ، وما كان

يفوح لها من شبح الفناء، من جراء كارثة العقاب، واضحاً في الأدب والشعر فمن ذلك ما قاله أبو إسحق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي:

وقائلة أراك تطيل فكراً      كأنك قد وقفت لدى الحساب  
فقلت لها أفكر في عقاب      غدا سبباً لمعركة العقاب  
فما في أرض أندلس مقام      وقد دخل البلا من كل باب

ويلخص لنا صاحب الروض المعطار أثر الهزيمة في الدولة الموحدية بقوله: «وكانت هذه الوقعة أول وهن دخل على الموحدين، فلم تقم بعد ذلك لأهل المغرب قائمة».

وإذا كانت هذه عقوبة من عاقب ابن رشد، أو كانت عقوبة ابن رشد لهذه الأوضاع التي تمشي في طريق الاحتضار فإن المحصلة النهائية واحدة، وهي نتيجة بائسة بكل مقياس لأمة تعامل الفكر المشرق هذه المعاملة، وهي مؤشر خطير لتوقف الحياة العقلية، أو انحدار مخطط الحضارة بصورة عامة لأن الحضارة هي حياة العقل قبل كل شيء.

وقد انتبه المفكر الجزائري (مالك بن نبي) إلى هذه الوقفة التاريخية المفصلية فاعتبر أن الحضارة الإسلامية توقفت لتفرز بعد ذلك الإنسان المتخلف عن ركب الحضارة، العاجز عن حل مشاكله، الذي يتوقف عنده الزمن (بدون سرعة النسبية!) كما توقف عند أصحاب الكهف بدون رسالة أصحاب الكهف. فاعتبره إنسان (مابعد الموحدين) أي إنسان مابعد مصيبة معركة العقاب.

ولم يتوقف عن معاقبة أهل قرطبة الذين يصفهم (الفيلسوف العالم التقى ابن رشد) بأن من أعظم المواقف الصعبة التي مرت عليه

عندما أراد الصلاة في أحد المساجد هو وابنه فقام عليه الغوغاء وأخرجوه وابنه من المسجد ومنعهما من الصلاة، قال عنها إنها كانت من أصعب اللحظات التي مرت عليه في حياته. ولا غرابة فإذا كان الخوارج قديماً قد أخرجوا الإمام علي من الإسلام وكفروه واستباحوا دمه، ثم سفكوا دمه من أجل الاختلاف معه في وجهة النظر، فإن هذا المشهد قد يتكرر تاريخياً في صور شتى في إطار التعصب وعدم التسامح.

كان عقاب أهل قرطبة مخيفاً بل عقاب أهل الأندلس جميعاً، فقد سقطت بعد ذلك (بالنثيا في عام 1236 م وهي العاصمة الشرقية للأندلس) ثم سقطت قرطبة بنفسها في عام 1238 م بعد عامين من سقوط بالنثيا أي بعد موت ابن رشد بأربعين سنة (ولعل الذين طردوه من المسجد رأوا طردهم جميعاً هذه المرة) لأن عادة الإسبان جرت على تحويل كل مسجد إلى كنيسة فور دخولهم أي بلدة إسلامية. ثم تكمل الانهيار بعد ذلك بسقوط مدينة إشبيلية في عام 1248 م. وبذلك سقط الجناح الغربي للعالم الإسلامي بتمامه، ليتبعه بعد عشر سنوات بالضبط سقوط الجناح الشرقي للعالم الإسلامي أعني بغداد على يد هولاء عام 1258 م، وهكذا سقط جناح العالم الإسلامي في ظل الظروف والمناخات العقلية السائدة تلك التي دشت نفي وتعذيب ابن رشد في شيخوخته. وليسطر العلامة ابن خلدون بعدها ملاحظته اللامعة بأن مناخاً جديداً يسيطر على العالم الإسلامي أعني (الانهيار والسقوط أو تفسخ الحضارة الإسلامية) حينما أشار بقوله وكأن لسان الكون نادى بالخموم فاستجاب.

إن الكثيرين من باحثي المعجزات العلمية في الآيات القرآنية أعيوا

أنفسهم في محاولة اكتشاف (الاكتشاف العلمي) من الآية القرآنية، في الوقت الذي لم نسمع شيئاً عن ذلك قبل (الاكتشاف العلمي). وهذا ليس توجه القرآن بحال، بل إن القرآن وضع لنفسه توجهاً خاصاً وهو عدم الاستجابة لمطالب المشركين في إنزال المعجزات وورد هذا في عشرات الآيات القرآنية. القرآن أراد بالأحرى إيجاد (المناخ العقلي) الذي يكتشف آفاق العلم والإنجازات العلمية بدون حدود لأن الكون كله آيات. الكهرباء والجاذبية وميكانيكا الكم والنسبية والحرارة والجيولوجيا والأثروبولوجيا كلها فضاءات معرفة وآيات).

هذا المناخ العقلي الذي كان يكتشفه ابن رشد أضاء في مكان آخر وشق طريقه بصعوبة بالغة.

في 4 نوفمبر من عام 1415 م جاء المصلح الديني جان هوس (Jan Hus) وهو من تشيكوسلافيا الحالية إلى مدينة كُنستانس الواقعة على الحدود النمساوية السويسرية (Konstanz) ليعرض على المجمع الديني المنعقد هناك وليستجوب بسبب نقده المتواصل للكنيسة، خاصة في تصرفات الرهبان المالية، وبيع صكوك الغفران، وجمع ثروات الحرام (تأمل الآية: *إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ*)، وقد أغراه الملك الألماني سيجيسموند (Sigismund) بالحضور مع توفير الحماية له، إلا أنه اعتقل ثم قدم للمحاكمة بتهمة الهرطقة، واتهم في المحاكمة بكتباته في ثلاثين موضعاً منها تدينه بالكفر والزندقة والمروق عن الدين، وأعطى مهلة للتراجع عن آراءه، وعندما اعترض على ذلك وبأنه مؤمن وأن الأمر لا يخرج عن تأويلات سيئة لأقواله حكم عليه

بالحرق حياً ونفذ الحكم في اليوم نفسه، حيث وضع على منصة خشبية أمام المتفرجين تأكله النيران!

وهذا الحرق أو إلغاء الإنسان من الوجود لأفكاره فقط كانت رحلة رهيبة أثناء بدء الحركة العقلية في أوروبا، حيث تعرض جيوردانو برونو بدوره في السابع عشر من شباط/ فبراير عام 1600 م للحرق أيضاً من أجل أفكاره ولم يتراجع.

والآن إذا كنا قد رسمنا بانوراما تاريخية لأولئك الذين يشقون الطريق إلى الحرية الفكرية والمناخ العقلي الجديد الذي سوف يشق الطريق للحضارة يبقى أن نختم البحث بقرار اللعنة الذي صدر أيضاً ضد سبينوزا المفكر الهولندي (Spinoza) الذي كتب في حياته كلها أربع كتب فقط منها رسالة في اللاهوت والسياسة ورسالة في تحسين العقل، وكما يذكر صاحب كتاب قصة الفلسفة ويل ديورانت، أنه لم يتجرأ على نشر كتابه الأخير الأخلاق مؤيدةً بالدليل الهندسي الذي فرغ من كتابته عام 1665 م، فبقي عنده حتى الموت، وعندما جاءته المنية وعمره 44 عاماً، بعد أن افترس السل صدره، سلم مفتاح غرفته لصاحب البيت مع نسخة كتابه الأخلاق للطباعة الذي حفظ لحسن الحظ.

يقول قرار اللعنة: «بقرار الملائكة وحكم القديسين نحرم ونلعن وننبذ ونصب دعاءنا على باروخ سبينوزا. . وليكن مغضوباً وملعوناً، نهراً وليلاً وفي نومه وصبحه، ملعوناً في ذهابه وإيابه، وخروجه ودخوله، ونرجو الله أن لا يشملته بعفوه أبداً، وأن ينزل عليه غضبه وسخطه دائماً. . وأن لا يتحدث معه أحد بكلمة، أو يتصل به كتابة، وأن لا يقدم له أحد مساعدة أو معروفاً، وأن لا يعيش معه أحد تحت

سقف واحدة، وأن لا يقترب منه أحد على مسافة أربعة أذرع، وأن لا يقرأ أحد شيئاً جرى به قلمه أو أملاه لسانه» .

بالطبع نحن نتذكر قرار مقاطعة قريش للرسول (ص)، كما أن القرآن يذكرنا بأن إبراهيم كان أقوى من النار لأنه اعتمد الحجة الدامغة التي تبهت (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه)، لذا فإن حريق العلماء في أوروبا أيضاً لم ينفع لأنهم اعتمدوا سلاح إبراهيم، الذي قدح زناد النور في الظلام المخيم .



## الاجتياح المغولي

1258

كيف انهارت الحضارة الإسلامية؟

كيف انهارت الحضارة الإسلامية؟ كيف سقط العالم الإسلامي؟  
 كيف غاب عن التاريخ؟ كيف فقد القدرة على تقرير المصير؟ كيف لم  
 يعد يشترك في صناعة الأحداث؟ بل لم يعد يدري ماذا يحدث له؟  
 أصبح مصنوعاً ولم يعد صانعاً؟ أصبح يُخطط له، وينفذ فيه، وهو لا  
 يدري ماذا يحدث! كيف قفز الأوروبيون إلى دفة قيادة التاريخ  
 وصناعته؟ متى حدث هذا؟ هل له بدايات؟ أو مؤشرات؟ وبكلمة  
 مختصرة هل يخضع المسلمون إلى قانون الله كما يحدث مع كل  
 الحضارات والأمم؟ أم هم استثناء عن القاعدة؟ وشذوذ على القانون؟  
 وأبناء الله وأحباؤه المدللون؟! (فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر  
 ممن خلق!) أما أن العالم الإسلامي سقط وتضرج بدمه في منتصف  
 القرن الثالث عشر الميلادي فلا أوضح فيه من استحضر الذاكرة  
 الجماعية المروعة عن سقوط بغداد كعبة العلوم عام 1258 م الذي تلى  
 سقوط إشبيلية عام 1248 م بعد عقد من الزمن لا يزيد، وبذا سقط  
 جناح العالم الإسلامي؛ الغربي تحت الاندفاع الإسباني في حروب  
 الاسترداد، والشرقي تحت الزحف المغولي المرعب.

### شتاء عام 1258 م

ولنذهب إلى أسوار بغداد لننظر ما يحدث في شتاء عام 1258 م :  
 في الرابع من صفر من عام 656 هـ الموافق 13 شباط/ فبراير من  
 عام 1258 م بعد أن طوقت بغداد من كل جانب ولم يبق أمام الخليفة  
 العباسي إلا الاستسلام فذهب لمقابلة عاهل المغول خارج بغداد .  
 دخل الخليفة العباسي مجلس هولاء مرتاعاً، فابتسم الأخير  
 بخبث، ثم قال له: أنت المضيف ونحن الضيوف فانظر بماذا تكرم  
 ضيفك؟ فهرع الخليفة إلى دار الخلافة فأحضر الدنانير والخلع  
 والجياد، فنظر هولاء بسخرية، وقال: هذه ليست لنا بل هي لعييدنا!  
 ما نريده الدفائن. فدلهم الخليفة على بركة من الذهب الخالص في  
 القصر الملكي (وكان بإمكانه تجنيد مئات الآلاف بها!) فحفروا البلاط  
 والرخام وأخذوها، ثم أخذوا بعدها (روح) الخليفة، بوضعه في  
 كيس، وإزهاق روحه بالرفس كي لا يندلق دمه على الأرض فيؤخذ  
 بثأره بزعمهم بموجب عقائد المغول، ثم قتلوا أولاد الخليفة الكبار  
 أحمد وعبد الرحمن، ثم استاقوا الصغير مبارك وأخواته الثلاثة خديجة  
 ومريم وفاطمة إلى الأسر، ليوزعوا في حصص أمراء المغول من  
 أسرى الحرب. وكانت بغداد كعبة العلوم آنذاك قد استبيحت وقتل من  
 أهلها في أقل التقديرات ثمانمئة ألفاً، في ظل استباحة للمدينة دامت  
 أربعين يوماً<sup>(1)</sup>.

يقول الحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية الذي يبحث في

(1) راجع البداية والنهاية لابن كثير المجلد 13 - 14 ص 200 عن عام 656 هـ.

التاريخ<sup>(2)</sup>: «ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب ففتحتها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة... وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الواقعة فقليل ثمانمائة ألف وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس (رقم المليون لم يكن معروفاً)... وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه فيُذهب به إلى مقبرة الخلال تجاه المنظرة فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه... وقُتل الخطباء والأئمة، وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد... ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يوماً، بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم، وأتت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون فإننا لله وإننا إليه راجعون.

(2) نفس المصدر، ص 202.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد ففتانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى واجتمعوا تحت الشرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى».

كيف يفسر حدث بمثل هذه الضخامة؟

كيف يمكن أن يفهم أو يفسر حدثٌ في مثل هذه الضخامة، وفقاً العين، عن انهيار مريع للحضارة الإسلامية، في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي؟

عندما كان الرسول (ص) يحدث ابن لبيد عن زمن الانهيار المرتبط بـ (ذهاب العلم) لم يكن باستطاعة الصحابي (ر) أن يستوعب مثل هذه الظاهرة، فكان يقول: وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن؟ وسوف نُقرئ أبناءنا القرآن، وأبناؤنا سوف يُقرئون أبناءهم القرآن! . لم يقل له رسول الله (ص) أتكذبنني وأنا رسول الله؟ كما لم يقرأ له آية من القرآن، بل أخذ بيده إلى الواقع، ليريه واقعة يومية مكررة عن أقوامٍ آخرين انطبق عليهم القانون الإلهي: «أوليس اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيها بشيء»<sup>(3)</sup>.

(3) ذكر الحديث ابن كثير في تفسيره وصححه (تفسير ابن كثير - المجلد الثاني - سورة المائدة - الآية 65-66 ص77) عند تفسير الآية: ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم . . إلخ. وقد رواه الإمام أحمد ابن حنبل متصلاً موصولاً فقال حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن زياد بن لبيد أنه قال ذكر النبي (ﷺ) شيئاً فقال (وذاك عند ذهاب العلم) فقال =

هذا هو القانون النفسي الاجتماعي الذي تتردى فيه الجماعات الإنسانية والذي يوصلها إلى الوضع، الذي لا تستفيد فيه مما عندها، ولو كانت كنوزاً رائعة، وذخائر نفيسة، ومجلدات مثيرة، وعلم لا ينتهي.

ويذكر القرآن أنموذجاً عجيباً للحمار الذي يحمل على ظهره أسفاراً من الكتب الرائعة، والمجلدات الثمينة، ولكن هل بإمكان الحمار أن يقرأ سطرأ واحداً؟! .

والمثل جاء بالأصل عن اليهود، ولكن لا يخرج اليهود عن كونهم بشراً انطبق عليهم القانون الإلهي، ويقبل أن يتكرر في أوساط إنسانية أخرى.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾<sup>(4)</sup>.

كيف تصاب الحضارات بالعمق؟

كيف تسقط الحضارات؟ كيف تنهار الدول؟ كيف تصاب الأنظمة بالعمق بعد إبداع؟ هل هناك قانون تنتظم تحته مثل هذه الواقعات؟ أو هل هناك بالأصل سنة اجتماعية تسيير بموجبها حركة التاريخ؟ لا شك في أن الحريق المغولي كان كاسحاً ماحقاً مدمراً.

---

= قلنا يا رسول الله: وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة فقال: نكلكم أمك يابن لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء. هكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع به نحوه وهذا إسناد صحيح.

(4) سورة الجمعة - الآية (5).

يقول (ويل ديورانت) في سفره الضخم عن قصة الحضارة مؤرخاً الإغصار المغولي: «وهلك في هذه المذبحة الشاملة آلاف من الطلاب والعلماء والشعراء، ونهبت أو دمرت في أسبوع واحد المكاتب والكنوز التي أنفقت في جمعها قرون طوال، وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للنيران. . . ولسنا نعرف أن حضارة من الحضارات في التاريخ كله قد عانت من التدمير الفجائي ما عانتها الحضارة الإسلامية على يد المغول. لقد امتدت فتوح البرابرة لبلاد الدولة الرومانية قرنين من الزمان، وكان في استطاعة الدولة أن تنتعش بعض الانتعاش بين كل ضربة والتي بعدها، وكان الفاتحون الجرمان يكونون في قلوبهم بعض الإجلال للدولة المحتضرة، ومنهم من حاول المحافظة عليها. أما المغول فقد أقبلوا وارتدوا في أربعين عاماً لا أكثر؛ ولم يأتوا ليفتحوا ويقيموا، بل جاؤوا ليقتلوا وينهبوا ويحملوا ما يسلبون إلى منغوليا. ولما ارتد تيار فتوحهم الدموي خلف وراءه اقتصاداً مضطرباً، وقنوات للري مطمورة، ومدارس ودوراً للكاتب رماداً تذرره الرياح، وحكومات منقسمة على نفسها، معدمة ضعيفة لا تقوى على حكم البلاد، وسكاناً هلك نصفهم وتحطمت نفوسهم».

ولكن حتى يمكن فهم كيف تحدث مثل هذه الواقعات، لا بد من وضعها تحت التحليل، وسبر غورها بمعيار الحكمة، وعرضها على أصولها، ومقارنتها بنظائرها، وفهمها من خلال علاقة جدلية بين السبب والنتيجة، والعاملين الخارجي والداخلي.

ولنتقدم بالبحث خطوة أعمق، هل يمكن فهم أي حدث بدون مقدماته ونتائجه؟ هل يحدث بدون قانون ينتظمه؟.

العناصر الداخلية والخارجية وأيهما أثقل في الميزان؟

وإذا كانت العناصر الخارجية والداخلية هي التي تتفاعل لتبرزه إلى الوجود، وتولده إلى عالم النور والظهور، فأبي العناصر أهم في التأثير، وأبلغ في التفاعل، وأثقل في الميزان؟  
أي العناصر أشد حسماً، وأعظم أثراً، وأبلغ نتيجة؟

هل يسيطر هذا القانون، أو تعم هذه المعادلة مساحات شتى من الوجود، بحيث تنتظم شرائح منوعة، وقطاعات شتى من الوجود المادي والعضوي والنفسي والاجتماعي والدولي والحضاري؟.

إذا كانت جحافل المغول اجتاحت المشرق الإسلامي، فكيف يُعَلَّل سقوط الجناح الغربي في قرطبة وبالنثيا وسرقسطة وطليلة وأخيراً إشبيلية؟ حيث لم يكن هناك مغول؟.

عندما يتلقى فرداً ما صفة فيسقط ميتاً، يجعلنا نتساءل هل الصفة أودت إلى الموت؟ أم أن الصفة أظهرت الموت الذي كان على وشك الظهور؟ لأن العادة تقول إن المرء لا يموت من الصفة؟!.

عندما تهب الريح على الغابة فتسقط بعض الأغصان، وتطير بعض الأوراق، وتهوي بعض الجذوع، فإننا لا نقول إن الريح هي التي أسقطت؛ إذن لسقطت كل الجذوع، ولهوت كل الأشجار، ولتناثرت كل الأوراق؟!.

بل عندما يحدث المرض، لا يحدث لأن الجراثيم هي التي سَبَّبَتْه؟! إذن لكان الإنسان مريضاً بدون توقف، عليلاً بدون فواصل، يسعل قيحاً، وينفث دماً، يجرد أطرافه إعياءً، ويرفع رأسه وعينيه متثاقلاً. والسبب في هذا أن الجسم الإنساني كما نعرفه نحن الأطباء بصورة جلية واضحة، هو أن الجراثيم لا تغادر البدن لحظة، ولا تتركه لثانية. ولطاخة من الأنف تعطيك المنظر المرعب عن حقول لا

تنتهي، من قبائل الجراثيم، وعصابات الميكروبات، من أصنافٍ شتى، وفصائل مختلفة، بل إن ملغراماً واحداً من البراز يحتوي ما لا يقل عن 140 مليون جرثوم، كل منه عنده قدرة مريعة على التكاثر، وفتك مدمر للعضوية؟! .

## آلية حدوث المرض عموماً

إذن كيف يحدث المرض؟

والجواب هو اختلال التوازن بين هجوم الجراثيم، وانهيار الجهاز المناعي. المرض هو في الحقيقة تعبير عن انهيار الجهاز المناعي أكثر منه عن سطوة الجراثيم واستفحال هجومها. وعندما يعود البدن إلى الحالة السوية فإنه ينجز هذا الوضع الرائع المبدع والمعقد إلى أعلى غايات التعقيد عن طريق سيطرة جهاز المناعة. ولا نريد أن نجعل من المقالة بحثاً طبياً خالصاً، ولكن نشير إلى أن كل فعاليات البدن تمشي وفق هذا الناموس، وتُسبِّح الله على هذه الطريقة.

إن دخول جرثوم واحد إلى البدن يعني استنفار الكريات البيض التي تمثل الفرق الانتحارية الاقتحامية لملاقاة الزحف المغولي الجرثومي، ويجب أن يتم هذا بسرعة، لأن الجرثوم ينقسم لا يقل عن مرة واحدة كل نصف ساعة، وهذا يجعلنا نجفل من الرقم المربع للتكاثر في مدى أربع وعشرين ساعة (اضرب رقم واحد في 48 مرة مضاعفاً).

تبدأ المعركة المقدسة لصد الاجتياح المغولي الجرثومي، ومن أشرس أنواع القتال بالسلاح الأبيض، وجهاً لوجه، وعندما ترى أيها القارئ القبيح فقف باحترام كبير، وارفع يدك بالتحية، لأن هذا القبيح



المنساب هو جثث الكريات البيض التي سقطت في معركة الدفاع عن البدن الحي؟! .

بل إن مرض الإيدز الجديد والمهدد للعالم، والذي لم يكتشف فيه حتى الآن لقاحاً مانعاً، أو عقاراً شافياً، يعتبر رحم الأمراض كلها، ورأس البلايا بأجمعها، وجذع المصائب بدون مبالغة، ذلك أن الفيروس، يتسلل إلى الجهاز المناعي، فيفتك به، أي إنه بكلمة أخرى يخترق مركز المقاومة بل يحتله، ويكسر العمود الفقري للمدافعة .

بل أكثر من ذلك، باعتبار أنه من مركب مشابه لتركيب الكروموسوم، إنه يخترق الخلية، ثم النواة، ثم تركيب الأحماض الأمينية المشكّلة للجينات، ليصبح قطعة من دمننا ولحمنا، عصبنا وعظمننا، وتبقى مهمة الجسم أن يكاثره، ويزيد من عدده، باعتبار أنه قطعة من تركيب الكروموسومات المشكّلة والمهندسة لتركيبنا بالكامل .  
في الواقع إن الإيدز يعطي فكرة عن انهيار المقاومة، لأن انهيار الجهاز المناعي يجعل الجسم مستهدفاً من كل أنواع الجراثيم والفيروسات والفطريات، وكل الطبقات الممرضة من العضويات المجهرية الصغرى؟! .

بل ألعن من هذا وأشد، أعني الإصابة بالسرطان، لأن السرطان بالذات هو وجه العملة الثاني لانهيار الجهاز المناعي، لذا كثر إصابة متقدمي السن بالسرطان، وكاد أن ينتفي عند الأجنة في الأرحام! .  
والإيدز المجرم، باعتبار أنه ينهك الجهاز المناعي عند الشباب العاكفين على شهواتهم، المخدرين باللذائذ المقلوبة المعكوسة المنكوسة، فإنه يطل بقرن جديد، وبثورة عارمة من انفجار السرطان عندهم، وما أدراك ما السرطان؟

## فلسفة وقانون المرض

إذن مع فهم أعمق لفلسفة المرض، نخرج بقانون صارم، أشد حدة من مشرط الجراحين، هو أن العامل الداخلي هو الذي يبدأ في عملية توليد الحدث، وتهيئته، وتوليده بعد ذلك، وإبرازه إلى الوجود، ويبقى العنصر الخارجي هو الذي يكشف الغطاء عن التفاعل الداخلي، ويشير إليه، ويدلل عليه، ويقول هذا هو.

هذا القانون يخضع له الوجود المخلوق بكل شرائحه ومستوياته، فورقة الشجرة تسقط بسبب ضعف ارتباطها بالغصن، والمرض يحدث بسبب ضعف أو انهيار الجهاز المناعي. والفرد يختل بسبب أوهامه الداخلية، والمجنون المصاب بالبارانويا يظن أن الناس كلهم يتآمرون عليه، كما هو الحال عند كثير من الساسة والمفكرين بكل اتجاهاتهم في العالم العربي الذين يبحثون عن أكباش الفداء، تفسر واقع المسلمين والعرب غير السار والذي لا يبعث على البهجة، وهكذا فإن أكباشاً من أمثال (الصهيونية) و(الاستعمار) و(قوى التدخل الخارجي) و(الرأسمالية العالمية) و(الماسونية) و(النورانيين) و(القوى الخفية) و(المنظمات السرية) و(الحركات التبشيرية) و(حكومة العالم الخفية؟! )، وإذا لم يبق في الجعبة شيء فالشيطان جاهز لتصب عليه كل مصائبنا التي نفعلها بأيدينا، وكل الكوارث التي نسعى إليها بأقدامنا، وإذا أعييت كل التفسيرات فهناك التفسير الذي يُخرّس الجميع فلنقل القدر والحظ ولا مانع من إدخال إرادة الله، التي شاءت أن ترفع غير المسلمين، وتنزل كفة المسلمين!؟

## فلسفة القرآن في مرض ظلم النفس

لكن ليس هناك استعداد ولو للحظة واحدة للرجوع إلى فلسفة القرآن التي تنص على أن ما يحدث هو (من عند أنفسكم) وأن الله لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وأن ظلم النفس هو المناخ الملائم والمهيء لكل المصائب اللاحقة، وأن علينا أن نعتاد وندرب أنفسنا أن لا نلوم أحداً، بل أن نرجع فنلوم أنفسنا دوماً لأن هذا هو مفتاح الحل، وتكوين مثل هذا الخلق، والوصول لتشكيل نفسية من هذا النوع جعلها الله موازية في الثقل ليوم القيامة ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ \* وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَامَةِ﴾. فإذا كانت القيامة هي للفصل بين الناس وبين الإنسان وعمله، فإن النفس المراجعة المنضبطة التي اعتادت النقد الذاتي هي المرشحة للنجاح في ذلك اليوم العصيب.

ما الفرق بين الشيطان وآدم؟

إن الفرق بين الشيطان الذي دخل اللعنة الأبدية وآدم الذي نال رحمة الله هو التوبة، وفلسفة التوبة تعني القدرة على المراجعة والاعتراف بالخطأ (رب إنني ظلمت نفسي)، في حين أن لوم الآخرين هو طريق الشيطان الذي برأ نفسه وألقى اللوم على رب العزة أنه هو الذي أغواه (بما أغويتني). هذا الطريق الضلالي والمفضي إلى اللاتوبة والمغلق هو الاستعداد للوم الآخرين، وإلقاء التبعة على ما يحدث من مصائب على الآخرين، بل الاستعداد لقلب قوانين الكون وعدم الاعتراف للحظة أن هناك ولو (احتمال) أن تكون ذواتنا المنتفخة قد أخطأت، كما يروى عن ذلك المؤذن الذي حضر للمسجد صلاة الصبح والناس منصرفون، فلما سئل عن سبب تأخره قال: أنا حضرت حسب الوقت ولكن الشمس أشرقت اليوم باكراً؟! . كذلك فإن العائلة

تفكك بالنزاع الداخلي، والدول تسقط بالعنف والمرض الذي ينخر من الداخل، والإمبراطوريات تموت بعزلها الداخلية قبل كل شيء.

قصة موت النبي سليمان ومنسأته!

فإذا جاء كمال أتاتورك ليوزع بطاقات (النعوة) ولقراءة (الفاتحة) على روح الدولة العثمانية، فهو لا يمثل أكثر من (دابة الأرض) التي قضمت عصا سليمان وهو ميت جثة فانهارت الجثة، فاحتفل الجن بموت سليمان (عليه السلام) ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾<sup>(5)</sup> والحضارات تسقط ليس بالهجوم الخارجي بل بالانتحار الداخلي، والمرض الطويل الذي يسلمها إلى الموت في النهاية، وعندما تموت الأبقار فتصبح جيفاً، وتسقط على الأرض تأتي الغربان فتقعد عليها، فنعرف الموت من تسلط الغربان أكثر من الجثة المستلقية؟! .

هذه هي البانوراما الكبرى في صعود الأمم وسقوطها، هذا هو قانون التاريخ الذي لا يستجيب للبكاء والأنين، ولا يتوقف على الصراخ والوعيل:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾<sup>(6)</sup>

### علة انهيار الحضارات بالانتحار الداخلي

عند دراسة قيام الحضارات ثم انهيارها. يرى المؤرخ البريطاني (توينبي): أن الحضارة تبدأ بأقلية مبدعة تسوق الناس على أنغام

(5) سورة سبأ - الآية (14).

(6) الأنبياء - الآية (11).

المزمار بألية المحاكاة، وتتوقف لتنهار بعد ذلك، عندما تتحول تلك الأقلية المبدعة إلى أقلية مسيطرة تسوق الناس بالسوط، وينشق المجتمع عند ذلك إلى طبقات، ويصاب بالمرض الفرعوني. الذي لعنه الله في القرآن<sup>(7)</sup> وحتى يمكن فهم هذه الظاهرة المروعة أكثر من تاريخنا؛ وهو يهوي تحت السيف المغولي، فإن التاريخ ينقل لنا قصصاً لا تكاد تصدق، سواء من مستوى القيادة، أو مستوى الأمة، بين اتصالات مريبة من السلطان العباسي (الناصر لدين الله) الذي راسل جنكيزخان يدعوه لغزو بلاد خوارزم، لتخليصه من منافسه هناك (جلال الدين)، والذي كان يخشى من زحفه باتجاه بغداد، فجاءه طوفان يأجوج ومأجوج بعد ذلك ليعدم ولده المستعصم وأحفاده وحفيداته. أو في حكايات (جلال الدين) نفسها، وهو الذي كان مغرماً بطواشي له (خادم خصي)، فعندما مات فقد عقله وامتنع عن الطعام والشراب، وأنكر موته، وحمل تابوته على رقاب قواد الجيش (كذا)<sup>(8)</sup>، أو في استعدادات الخليفة العباسي لمجابهة الحصار المغولي وهو مضطجع لجارية تلعب بين يديه وتضحكه، والنبال المغولية تتساقط على دار الخلافة كزخ المطر، ثم يصحو الخليفة حينما تقتل هذه المحظية بين يديه بسهم جاءها من بعض الشبابيك؟!، ويعقب ابن كثير على الحادثة بين الحقيقة والأسطورة فيقول إن السهم كان مكتوباً عليه: «إذا أراد الله إنفاذ قضائه أذهب من ذوي العقول عقولهم؟!». أو في قصة التتري الذي أمسك مسلماً ليذبحه، فلما أضجعه للذبح،

(7) راجع مختصر دراسة التاريخ - توينبي - سقوط الحضارات.

(8) راجع هذه الواقعة في تاريخ ابن الأثير - ص 496 - المجلد 12.

استدرك أن سيفه قد سقط منه، فأمره بالبقاء حيث هو، ثم غاب الجندي التتري سوية وعاد وهو لا يكاد يصدق، فالمسلم مازال ينتظر الذبح<sup>(9)</sup> لأن غريزة التمسك بالحياة قد تلاشت، فأمة من هذا النوع لا يحتفظ بها التاريخ، ولا يوفرها الجنس البشري بل يمشي القانون الإلهي ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾<sup>(10)</sup>.

يعقب (ويل ديورانت) على الاجتياح المغولي في أسبابه الدفينة البعيدة، فيقول: «واجتمع الانغماس البيقوري في الملذات، والهزال الجسمي والعقلي، وخور العزيمة والعجز الحربي، والانقسام الديني، والالتجاء إلى المراسم الغامضة الخفية، والفساد السياسي والفوضى الشاملة، اجتمعت هذه العوامل كلها واثلفت لتحطيم كل شيء في الدولة قبل الغزو الخارجي. لقد كان هذا كله - لا تبدل المناخ هو الذي بدل آسية الغربية من زعامتها على العالم فقراً مدقعاً، وخراباً

(9) جاءت هذه الواقعة الغربية أيضاً في تاريخ ابن الأثير ص 500 - المجلد 12: «ولقد حكى لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقى الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم، حتى قيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد، لا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس، ولقد بلغني أن إنساناً منهم أخذ رجلاً، ولم يكن مع التتري ما يقتل به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض ومضى التتري فأحضر سيفاً وقتله به. وحكى لي رجل قال: كنت ومعي سبعة عشر رجلاً في طريق، فجاءنا فارس من التتر، وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضاً، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم: هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب؟ فقالوا نخاف فقلت: هذا يريد قتلكم الساعة، فنحن نقتله، فلعل الله يخلصنا؛ فوالله ما جسر أحد أن يفعل، فأخذت سكيناً وقتلته وهربنا فنجونا، وأمثال هذا كثير».

(10) سورة محمد - آخر آية (28).

شاملاً. وأحل محل مئات المدن العامرة المثقفة في الشام وأرض الجزيرة وفارس والقفقاس والتركستان ما تعانیه في الوقت الحاضر من فقر ومرض وركود»<sup>(11)</sup>.

---

(11) قصة الحضارة - ويل ديورانت - ص 381.

## معركة سهل أنقرة

1402

في الوقت الذي كان فيه السلطان العثماني بايزيد خان الأول يتأهب لغزو أوروبا بحملة قوامها نصف مليون جندي وذلك مع فجر القرن الخامس عشر الميلادي، تحركت عاصفة عسكرية أشد هولاً، ومن العرق التركي والدين الإسلامي نفسيهما، وبسبب تاريخي تافه، مزمجرة من الشرق يقودها عسكري تترى مرعب خلد اسمه في التاريخ بكل الفظاعات الممكنة (تيمورلنك)، ليحطم الطموحات العثمانية الجينية للسيطرة على أوروبا في معركة أنقرة التي قررت مصير أوروبا في 20 تموز/ يوليو عام 1402 م الموافق 19 ذي الحجة من عام 804 هجري، وليوقف المد الإسلامي، ولينقذ جنين الحضارة الغربية الذي كان قد تشكل آنذاك في أحشاء الزمن بعد أن تلقح من نطف الحضارة الإسلامية التي كانت تودع التاريخ وتتوج ختامها بتألق الشمعة الأخير بفكر سنني متماسك هو فكر ابن خلدون، الذي أرخ لهذه المرحلة بمقابلة شخصية مع تيمورلنك الذي واصل تحطيم الشرق الأدنى ليحط الرحال في دمشق أخيراً. هذا الارتطام الأعمى بين قوتين إسلاميتين لتنجو وتولد حضارة غير إسلامية هل هو مجرد مصادفة عبثية؟ أم عمى تاريخي؟ لتأمل الواقعة تحت مبضع التاريخ!

عندما بدأت البحث شعرت أن علي استخدام أدوات معرفية



للاكتشاف، أو لنقل منهجاً ينظم عملية اكتشاف التراكم المعرفي الذي حصل في الغرب والذي قصّر عنه العالم الإسلامي والذي يعاني من وطأته اليوم، وهذا القصور المعرفي ليس في الفيزياء والكيمياء والبايولوجيا والكوسمولوجيا فحسب، بل هو أيضاً في الإدارة والاقتصاد والسياسة والثقافة والفن، ولنقل هو قصور حضاري مريع، وأمامنا عمليتان كل منهما أصعب من الأخرى، كمثّل الطالب في المرحلة الابتدائية الذي تطلب منه أن يصل إلى المستوى الجامعي وليس ذلك فحسب بل أن يكون طالباً متفوقاً له دور ريادي في فصله، وهذه هي مشكلة المشاكل في العالم الإسلامي والتي تشكل منخس التحدي الرهيب؟! .

الحوادث التاريخية لا يمكن أن تفهم معلقة في الهواء، فهناك علاقة جدلية بين الأحداث، والجدلية هي قانون إلهي في هذا الوجود وليست اختراعاً من ملحدين، الليل والنهار، الحزن والفرح، الانفعال والفعل... إلخ. (وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى) وهكذا فكل حدث هو في علاقة جدلية بماقبله وبمابعده، هو سبب لما سيأتي بعده وهو في الوقت نفسه نتيجة لما قبله. والأحداث العظيمة هي تراكمات لإنجازات صغيرة، والانتصار الكبير هو تتويج للجهود الصغيرة المتراكمة عبر الزمن، بل إن الإنسان إذا أردنا إفراغه في صورة معادلة فإنه يعني ويساوي (الإنسان في لحظة = محصلة تراكمية بطيئة للحظات الجهد الواعي المتراكمة عبر وحدات الزمن قبل لحظة القياس). وهكذا فالكون في حركة ونمو (يزيد في الخلق ما يشاء)، والوجود في حالة

صيرورة، وكل شيء يتغير، و(كل يوم هو في شأن)، والإنسان في كل لحظة هو غيره بعد اللحظة التي سبقت. ويخطئ من يظن أن هناك توقف في نمو الإنسان حتى مع تقدم العمر، فالدماغ الإنساني تركيب رهيب مكون من عشرين مليار (20000000000) = 2 أمامها عشرة أصفار) من الخلايا العصبية في قشر المخ، وكل خلية مرتبطة بألف وحدة ارتباط مع بقية الخلايا العصبية، مما يجعل الدماغ الإنساني أكبر من الكون المعروف، وبالتالي فليس هناك حد لنمو وكمال الإنسان إذا تصورنا كل كسب معرفي شجرة ارتباطات عصبية، والإبداع توليدات معرفية جديدة، كما أنه ليس هناك قعر لهبوط الإنسان باعتبار تميز الإنسان وتفوقه بدماعه وليس بمخالبه، فالفيل أعظم حجماً من الإنسان والثور أشد بأساً، والكلب أشد جرياً، والنمر أعظم في الافتراس، والعصفور أمرس في السفاد، والقط يقتات من الطعام ما هو بمثابة السم من جلد الفئران، وحراشف الصراصير، وأقدام العناكب ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ \* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ولنتأمل تعبيرات أحسن وتقويم وما يعاكسه من أسفل وسافلين بصيغة النكرة فهي قوة مرفوعة إلى قوتها نفسها حسب مصطلحات الرياضيات وهذا يعني لا حدود للهبوط أو الارتفاع.

وحتى يمكن فهم ما (حدث في العالم) وحتى لانكون خارج التاريخ والجغرافيا؟! فلا بد من اتباع منهج كشف حفريات المعرفة، والتعرف إلى (إضافات المعرفة الإنسانية) أو بموجب التعبير القرآني: منهج السير في الأرض لمعرفة التطورات التي حدثت ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾، واكتشف ابن خلدون شيئاً هائلاً قديماً حينما وضع يده على فكرة القانون أو السنة بتتبع (كيفية خلق

الأشياء). وهكذا توصل إلى هذه الأشياء الرائعة والمتألقة والتي سماها (الحِكم المحجوبة والقريبة) أو (تلك التي لم يتفطن لها إلا الآحاد من الخليفة) مع الأخذ بعين الاعتبار أن ما كشف للآحاد يوماً، يصبح بعد حين من البدايات للملايين؟! . وهكذا وضع ابن خلدون مثلاً يده على قانون عمر الدول وحدده في مائة وعشرين عاماً، على اعتبار مروره في ثلاث أجيال وأن كل جيل هو أربعين سنة، والجميل إلى حد التألق هو ذلك المزج المقدس بين هذه المفاهيم التي وصل إليها والنص القرآني، فهو قد انقذ له معنى الجيل المحدد بأربعين سنة من تيه بني إسرائيل المحدد في أربعين سنة من قصة موسى وهارون مع الجموع التي هربت معه من استبداد فرعون.

فكرة القانون أو السنة بقدر ما هي طاغية ومسيطرة في النص القرآني، بقدر ما هي غائبة في وعي المسلمين التاريخي، وبقدر ما يؤكد القرآن أنه لن يجري المعجزات، فإن المسلمين وقعوا في مطب الخلاب والسحري والمعجز، وبقدر ماواجه القرآن النظر لفهم الواقع المعقد، والكون المعجز ضمن مفهوم الآية، بقدر ما سيطر على مخيال المسلمين الأسطورة والمستحيل، وبذا انفصل العالم الإسلامي عن الواقع وافتترسته الخرافة، وفقد الروح العلمية، وعشق الحقيقة، واكتشاف الكون ورؤية آيات الله التي لا نهاية لها ولا حدود.

والقرآن حينما أراد بناء العقل السنني، والروح الباحثة، والشوق المعرفي، والتراكم العلمي فإنه لم يتوجه إلى قوانين الفيزيولوجيا وإفراز الهرمونات، ولا إلى السنن الفيزيائية وتمدد المعادن بالحرارة وضغط السوائل وبناء الذرة (مع كل احترامه وتزكيتة لمعرفة كل خفايا الكون)، ولكن كان يتوجه لمعرفة القوانين التي تنتظم حركة النفس

وصيرورة المجتمعات، وقيام الدول وسقوط الحضارات وكل الآيات التي تشير إلى مفهوم (سنة الله) تأتي إما أثناء الكشف عن ميكانيزم نفسي، أو حركة المجتمع وإصابته بأمراض تماماً مثل إصابة البدن بالأمراض. ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا \* سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

إن التوجه الذي مشت فيه الحضارة الغربية حتى الآن هو كشف الحقيقة خارج الإنسان، أي معرفة الوجود الخارجي، وهذا توجه يحمل نصف الحقيقة، ولعله النصف غير المهم، لأن أكبر مشكلة تواجه الإنسان هي ليست في علاقته بالكون، بل علاقته بأخيه الإنسان، فالكون نعيش معه في حالة سلام وتوازن منذ 500 مليون سنة من خلال جسدنا الذي ينتسب إلى عديدات الخلايا والذي يشكل قمة التكوين في الطبيعة، ويمثل دماغنا أعظم تجلٍ للطبيعة، وسارت العلوم في معرفة الفيزياء والكوسمولوجيا والذرة والبايولوجيا والكيمياء والطب والجيولوجيا، ولم تتوجه إلى اكتشاف أعظم قارة، أي رأسنا الذي نحمله، وبدأت منذ فترة قريبة في التوجه إلى هذا الحقل حيث يعكف 2500 عالم في أوروبا (غير النشاط الذي سبق في اليابان وأمريكا) على معرفة عمل النفس والجهاز العصبي والروح؟! ونحن لا نعرف الآن حتى جغرافيا المادة العصبية على وجه كاف، فكيف بعمل النفس من خلال الدماغ؟ ودماغ أينشتاين الذي تبرع به قبل موته مازال يدرس بدون معرفة سر العبقرية التي مشت فيه وتجلت بنظرية النسبية التي قلبت مفهومنا عن الزمان والمكان المطلق لنرى العالم في صورة متصل الزمان - المكان. هذا الانحراف أو هذا التوجه في مسار

العلوم والذي سار عشوائياً بدون أي تخطيط، جعل عالم النفس السلوكي الأمريكي (سكينز) يقول بصورة لا تخلو من السخرية بأن أرسطو لو دخل زماننا الحالي فإنه سيشتك بدون أي عناء في محاورات السياسيين الذين يقودون (بكل أسف) العالم الحالي، في حين يقبع المفكرون والعلماء والفلاسفة بدون أي أثر في مجريات الحياة الخطيرة، إلا أن أفلاطون وأرسطو سيسكتان كأبي طالب متواضع أمام الكم المعرفي في أسرار الخلية أو أفكار النسبية وميكانيكا الكم والشيفرة الوراثية.

إن التعقيد الرهيب في فهم جدلية النفس وحركة المجتمع تخلق تحدياً ليس من السهولة الاستهانة به فهناك تداخل رهيب من عناصر التأثير والتنافر والتجاذب، مع هذا فإن توجه القرآن يؤكد أن هناك شيء ثابت في الوجود أي قوانينه وسننه التي لا تتبدل ولا تتغير. وكما ذكرنا سننه تلك التي تسيطر على النفس والمجتمع. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَحْدِلَ إِلَّا لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾. فالوجود مضبوط بالسنن، ولن ترفع السنة ليوضع مكانها سنة جديدة. كما أن السنة لن تغير طريقها وهي تمضي في حركتها، لن يحدث تغير لا كلي ولا جزئي. ولم يبق أمامنا إذاً إلا محاولة فهم هذه السنة، وهذا يحمل في تضاعيفه تكريماً رهيباً للإنسان في أنه يستطيع فهم السنة ويتعامل معها.

ويتفرع من الفهم السابق أمر على غاية الخطورة، وهو علاقة السنة بالفهم - بالتسخير - بالتنبؤ - بالعلم، فالعقل الإنساني يستطيع الفهم، وبذا يستطيع أن يتعامل مع الآيات الكونية والنفسية والاجتماعية، وإدراك ميكانيزم عمل السنة يمنح تسخيرها أي الخدمة المجانية،

والعلم هو القدرة على التنبؤ، من خلال ضبط السنة، وهو ما يطمح إليه العلماء اليوم. يقول ستيفن هوكنج في كتابه قصة قصيرة للزمان «لقد أعدنا تعريف مهمة العلم، بكونها اكتشاف قوانين، تمكننا من التنبؤ بالأحداث ضمن الحدود التي يرسمها مبدأ الارتياح. ولكن يبقى السؤال: كيف، أو لماذا كان اختيار القوانين والوضع الأولي للكون»، وفي فترة النظام النيوتوني السابق اقترب العلماء من مفهوم، تبين في ما بعد أنه ضبابي، أي إن الكون هو بمثابة ساعة أو آلة كبيرة سوف يتم الكشف عن قوانينها والسيطرة عليها، وتبين أن الوجود أكثر خدعة وأوغل في التعقيد، وأرعب في إمكانية الإحاطة به، وأكثر هلامية من الإمساك بقوانينه، وهذا يقودنا إلى محاولة اكتشاف العلاقة بين القانون والحرية. وكان الأثر الفلسفي لميكانيكا الكم الدور البارز في إدخال فكرة الاحتمالية في فهم الوجود (مبدأ الارتياح لفيرنر هايزنبرغ وبول ديراك ونيلز بور).

مع انبثاق المعاصرة من خلال فهم أفضل للكون، وانزياح الأسطورة، وازمحلال الخرافة وانقشاع المفاهيم غير المؤطرة والمرسخة بالقالب العلمي، وبروز علوم جديدة، واختراق فضاءات معرفية جديدة وجريئة، يجب الأخذ بعين الاعتبار أن العلم لا نهاية له وهو ينمو من خلال الإضافة والحذف وليس الإلغاء كما يخطر في ذهن البعض وإلا فهو ليس بعلم، صحيح أن التغيير يعم الوجود وهو قانون إلهي أن كل يوم هو في شأن، وأن الخلق في حالة زيادة، فهو كون من نوعية نامية ديناميكية، إلا أن هذا النمو وتلك الزيادة أيضاً لهما قانونهما الذي ينتظمهما. بقي علينا أن نقرب لإدراك هذا القانون المتغير أيضاً، وأن الكون أعظم من كل ما يمكن وصفه به.

وقبل أن أجمع هذه المقدمة الهامة والضرورية في ترسيخ مفهوم السير في الأرض، حيث إن القرآن يأمرنا أن نتوجه إلى تحصيل علم هو خارجه، فالأمر بالسير هنا هو في الكون وليس في الكتاب. وإذ أغفل المسلمون هذه القواعد الذهبية من أجل إيقاد هذه النار المقدسة، النظر في الكون، وإعمال العقل لفهم سننه، والانطلاق في الاستفادة من التسخير المودع بالكمون في تضاعيفه، كانت النتيجة طبيعية أن يطويهم التاريخ ليتقدم لقيادته من هو أهل للصلاح أكثر، وهذا يجعلنا نفهم بعداً جديداً في الصلاح الذي أرادته الآية القرآنية ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

من خلال هذا التأسيس لمفاهيم بعينها يمكن الآن أن نرى بنور أفضل الأحداث التاريخية كمثال الواقعة الفظيعة التي بين أيدينا، حيث كاد جذع الشجرة العثمانية أن يقطع ولما يقف على قدميه، ففي صيف عام 1402 ميلادي حصد سيف تيمورلنك أرواح عشرات الآلاف في سهل أنقرة التي لا يعرف أهل العاصمة التركية اليوم عنها شيئاً، كما هو الحال في معركة العقاب التي قصمت ظهر أهل الأندلس في عام 1212 م.

كان تيمورلنك كما وصفه المؤرخ البريطاني جون أرنولد توينبي يحب تخليد ذكراه في التاريخ بالرعب الذي لا حدود له، وبالفظاعات المروعة، وبالدماء والرؤوس المقطوعة كي يبني منها المآذن وبالطبع مقروناً باللعنات التي لا تنتهي إلى يوم الدين من المذبوحين وكتّاب التاريخ ومراجعي الوقائع التاريخية كما فعل اليوم.

قال توينبي عنه في كتابه القيم دراسة التاريخ وهو يبحث انتحارية النزعة الحربية وأنها السلاح الذي يقضي على صاحبه في النهاية

«وأفزع ما ارتكبه تيمور من أفعال التدمير كان ضد شخصه فقد جعل اسمه خالداً بأفعال التدمير التي محت من ذهن الأخلاف كل ذكرى للأفعال التي كان يمكن أن يذكر بها ذكرى حسنة.

إن اسم تيمورلنك عند أكثرية الناس الساحقة، يعني شخصية عسكرية اقتصرت قدراً من الفظائع طوال فترة الأربعة والعشرين عاماً من حكمه؛ مثلما اقترفه الملوك الآشوريون خلال مائة وعشرين سنة. إننا لتتخيل المجرم الذي سوّى مدينة اسفراين بالأرض عام 1381، وكدس خمسة آلاف رأس بشرية في المآذن في زيري في السنة نفسها، وطرح أسراه من لوريستان أحياء من أعلى المنحدرات عام 1386. وذبح سبعين ألف شخص وجمع رؤوس القتلى في هيئة مآذن في أصفهان عام 1387. وذبح مائة ألف أسير في دهلي عام 1398، ودفن أحياء أربعة آلاف جندي مسيحي من حامية سواس عقب القبض عليهم عام 1400. وابتنى عشرين برجاً من جماجم القتلى في سوريا عامي 1400 - 1401. إن تيمور قد جعل ذكراه تختلط في أذهان أولئك الذين يعرفونه بمثل هذه الأفعال بذكرى غيلان السهب - مثل جنكيزخان وأتيللا وأترابهما - الذين أمضى تيمور النصف الأول من حياته وأحسنه، في شن حرب جهاد ضدهم.

وإن جنون العظمة التي جعلت تيمور يصاب بجنون التدمير، قد تحكمت فيه فكرة واحدة مدارها الإيحاء إلى مخيلة الإنسانية بإدراك قوته الحربية عن طريق الإساءة إلى البشر إساءة منكراً».

حتى الآن لم نفهم المغزى التاريخي العميق لهذا الارتطام التاريخي، حتى ابن خلدون المرتعب من هذا (الغول) الذي دلوه بسلة من سور دمشق لمقابلته بعد أن ترك الملك المصري (الظاهر برقوق)



دمشق إلى مصيرها تجاه تيمورلنك بعد أن سمع عن محاولة انقلاب ضده في مصر! لم ينتبه - وليس بإمكانه - إلى المغزى التاريخي الذي سوف يتجلى بعد قرون، كل ما فعله ابن خلدون أنه كان حريصاً على سلامة جلده من هذا الذي اعتاد شرب الدماء، والتلذذ بقطع الرؤوس (تلك التي يمتلك كل واحد منها مائة مليار خلية عصبية!)، لذا قَبَّل يده، وتظاهر له بأنه ينتظره منذ فترة بعيدة، لأن المنجمين كانوا يتوقعون قدومه؟! - صاحب العقل السنني الصارم ولا غرابة حيال الغيلان - من أمثال اليهودي ابن زرزر منجم الملك الإسباني ألفونسو الثامن، كذلك أعطاه دابته الممتازة - سيارة المرسيدس لتلك الأيام - حينما رأى رغبة ملك (الططر كذا!) فيها، بالإضافة إلى علب الحلوى المصرية الفاخرة لإطعامه - بالطبع بعد أن يتذوقها ابن خلدون كي لا تكون مسمومة على عرف تلك الأيام!. وفي النهاية يتحفا ابن خلدون بمنظر كاريكاتور عاصره في حضرة تيمورلنك عن رأيه في منصب الخلافة! الذي يستجديه أحد الذراري من بقايا خلفاء بني العباس الذين نجوا من الذبح من قلعة دمشق من جنود تيمور! بدعوى «إن هذه الخلافة لنا ولسلفنا وإن الحديث صح بأن الأمر لبني العباس ما بقيت الدنيا؟!». كان تيمورلنك أعقل من تلك المخلوقات الممسوخة فجمع له القضاة للفتوى، ولم يكن أمام ابن خلدون - الفطن في مجالس الغيلان - إلا بالموافقة على ما خرج به فقهاء تيمور أن لا أحقية له في الخلافة، ولا غرابة لأن خطط تيمور لم تضم إلى مشاريعها احتلال مصر، وكانت معركة أنقرة المرعبة لأقل من طلب الخليفة الدعي عندما هرب والي مدينة طالباً اللجوء السياسي عند بايزيد خان وأصر تيمور على إقامة الحق واسترداد الفاز؟! .

انتبه توينبي إلى طرف من المغزى التاريخي في حدين: الأول هو «ذلك أن نزعة تيمور الاستبدادية باكتساحها كل شيء وجدته في طريقها في اندفاعها الأرعن نحو دمارها نفسها، قد أوجدت فراغاً جراً العثمانيين والصفويين في النهاية صوب ارتطام، كانت فيه الضربة القاضية على المجتمع الإيراني».

والثانية وهي الأهم «ولكن بعد ما اتخذت أفعال تيمور سبيلها على النسق التدميري المتقدم وقف تقدم الإسلام في أوراسيا إلى الأبد، بل تحول المغول والكالموك بعد ذلك بقرنين إلى المذهب اللامي من بوذية ماهايانا».

ويبدع مالك ابن نبي في تعليقه على ظاهرة العمى التاريخي هذه والارتطام الحضاري ويدمج بين تحطيم قوة (طغتميش) التي كانت في طريقها لاحتلال روسيا، والتي يحللها توينبي على الشكل التالي في ظروف افتراضية: «ففي ظل هذه الظروف الافتراضية: ربما تجد روسيا نفسها اليوم؛ داخل نطاق إمبراطورية تضم مساحة الاتحاد السوفيتي الحالية نفسها، ولكن مع اختلاف الأهمية؛ إمبراطورية إيرانية تحكم فيها سمرقند موسكو، عوضاً عن أن تحكم موسكو سمرقند، وتحطيم قوة بايزيد الأول المستعدة للانقراض على أوروبا».

جاء في كتاب وجهة العالم الإسلامي لمؤلفه المفكر الجزائري مالك بن نبي ما يلي ص (200 - 203): «لقد قام تيمورلنك في الواقع بعمل لم يكن يستطيع إدراكه حتى بعد انتهائه منه، لأن مغزاه التاريخي الحق لا يمكن أن يظهر إلا بعد عدة قرون. إن مسألة كهذه قد تتركنا مشدوهين بحجة أنها ذات طابع ميتافيزيقي، ولكننا لكي نعطي للأحداث تفسيراً متكاملًا يتفق مع مضمونها كله يجب ألا نحبس

تصورنا لها في ضوء العلاقات الناتجة عن الأسباب، بل ينبغي أن نتصور الأحداث في غايتها التي انتهت إليها في التاريخ، ومن هذا الجانب قد يلزمنا أن نقلب المنهج التاريخي: فنرى الظواهر في توقعها بدلاً من أن نراها في ماضيها، ونعالجها في نتائجها لا في مبادئها، فلكي نفهم ملحمة تيمورلنك ينبغي - مثلاً - أن نسأل أنفسنا: ماذا كان يمكن أن يحدث لو أتيح لطفطيميش أن يحتل موسكو، ومن بعدها وارسو.؟ ولو قدر لبايزيد أن ينصب رايته على أطلال فيينا، ثم على أطلال برلين.؟ لو حدث هذا لأدعنت أوروبا حتماً لصولجان الإسلام الزمئي المنتصر، ولكن ألا يدفعنا هذا إلى أن نرى توقعاً مختلفاً تمام الاختلاف عما كان سيحدث في التاريخ.؟ كانت النهضة الأوروبية التي مازالت في ضمير المقادير ستنتصر في (النهضة التيمورية) ولكن هاتين النهضتين - على الرغم من عظمهما - كانتا مختلفتين، فلم يكن مغزاهما التاريخي واحداً، فلقد كانت الأولى فجرًا يفيض على عبقريات جاليلو وديكارت وغيرهما، بينما كانت الأخرى شفقاً يغلف الحضارة الإسلامية لحظة أفلها. كانت إحداها بداية نظام جديد، وكانت الأخرى نهاية نظام دارس، وما كان شيء في الأرض يستطيع أن يدفع عن العالم الليل الذي أخذ يسطر سلطانه آنئذٍ على البلاد الإسلامية في هدوء، فلو أن تيمورلنك كان قد اتبع دوافعه الشخصية لما استطاع شيء أن يحول دون نهاية الحضارة الإنسانية. فهناك حسب تعبير إقبال (خطة للمجموع) هي التي تكشف عن اتجاه التاريخ.

لماذا حال تيمورلنك دون قيام بايزيد وطفطيميش بنشر الإسلام

في قلب أوروبا.؟

والجواب لكي تتابع أوروبا المسيحية جهدها الحضاري الذي لم يكن العالم الإسلامي بقادر عليه منذ القرن الرابع عشر، حيث كان في نهاية رmqه، فملحمة الإمبراطور التتري تجلو غاية التاريخ، إذ كانت نتيجتها متطابقة مع استمرار سير الحضارة ودوامها، كما تتعاقب دوراتها، ويتم الكشف الخالد عن العبقريات التي تتناوب على طريق التقدم». «فإن سيف تيمورلنك هو الذي شق الطريق أمام الحضارة الغربية الوليدة وسط أخطار الغروب التي كانت تخيم على العالم الإسلامي، فهل يمكن في ظروف كهذه أن نتحدث عن نوع من (العمى)؟ وهل لا يمكن أن نرى في ذلك أمانة على نوع من التجلي العلوي وراء تصرفات تيمورلنك؟» اهـ.

وفي مكان غير بعيد عن سيف طغتميش جلس رجل يرقب السموات العلى (كوبرنيكوس) ليقول على خوف إن الأرض ليست مركز الكون، بل إن الأرض ليست أكثر من تابع يدور حول الشمس. وكانت هذه العاصفة العقلية الأولى التي غيرت المصير الأوروبي برمته.

## الانقلاب الكوني

1453

كان عام (1543 م) عام العجائب<sup>(1)</sup> ففيه حصل أعظم زلزال عقلي في التاريخ الحديث مشكلاً العالم الحالي الذي نتسب إليه، حيث تم اختراق المستحيل، والمجهول، والمُسلّم به، فأصبح المستحيل ممكناً ومفيداً، والمجهول معروفاً ونافعاً، والمُسلّم به عائقاً يجب تجاوزه والتحرر منه! .

ما الذي حصل في هذه الحقبة القصيرة ما بين العقد الثاني والعقد الخامس من القرن السادس عشر ميلادي؟ .  
لقد تم اختراق ثلاث فضاءات جديدة للمعرفة الإنسانية قلبت التصور الإنساني السائد، ودفعت حركة التاريخ باتجاه جديد، وكونت العالم الحديث، وباكورة النهضة الغربية .

---

(1) كتاب قصة الحضارة - تأليف (ويل ديورانت) - طبع الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية - الجزء 27 - الفصل السابع والثلاثون ص (114)، بحث العلم في عصر كوبرنيك، تحت فصل السحر والتنجيم جاء مايلي: «إن الحقائق الجديدة بالملاحظة أن هذا العهد الذي استغرقه اللاهوت والثقافة المدرسية قد أنجب رجلين لهما أرفع مقام في تاريخ العلم كوبرنيك وفيزاليوس، ومن العجيب أن الكتب التي احتوت عصارة حياتهما قد ظهرت في سنة واحدة هي سنة العجائب 1543م» .

إنها ثلاث رحلات: الأولى في الجغرافيا، والثانية في البيولوجيا في جسم الإنسان، والثالثة في الفلك.

في الوقت الذي كان فيه ماجلان في العشرين من أيلول/ سبتمبر من عام 1519 يشق فيه طريقه عبر (صحاري) المحيطات المائية اللانهائية، كانت هناك مغامرات أخرى من نوع مختلف لارتياح مجاهيل جديدة، في القبة السماوية فوق رؤوسنا، في الكون الكبير، وفي أبداننا التي نحملها كل يوم، في مستوى العالم الصغير.

وفي عام 1543 م تم صدور كتابين يعتبر كل واحد منهما ثورة في اتجاهه، الأول هو كتاب كوبرنيكوس في دورات الأجسام السماوية والثاني هو تركيب الجسم البشري للمشرح فيساليوس. وبذلك وضعت خرائط جديدة لسطح الأرض، والجسم الإنساني، والفلك.

في الوقت الذي كان فيه ماجلان يعبر بحر الظلمات (الأتلانتيك)، ثم يلتف حول أمريكا الجنوبية عند رأسها السفلي ليصل إلى المحيط الهادئ (الباسفيك)، ليصل بعدها إلى جزر الفلبين، ويثبت بذلك - وعملياً - كروية الأرض، ويرسم بذلك خريطة جديدة للككرة الأرضية، كانت خريطة السماء تتغير شيئاً فشيئاً ليتشكل كون جديد وعالم مستحدث على يد كوبرنيكوس. كما أن بدن الإنسان بدأ وتحت مبضع المشرحين الجدد يتم الكشف فيه عن بديع خلق الله.

بهذه الاختراقات الثلاث تغيرت صورة العالم بشكل جذري، فلم تعد السماء تلك السماء التي نحدق النظر إليها، كما لم تعد الأرض تلك الأرض التي نطأها بأقدامنا، كما لم يعد الجسم ذلك الشكل البسيط الذي نظنه بل أصبح أشبه بماكينه هائلة التعقيد (وهو ليس كذلك!).

ولكن كيف حدث هذا ودفعة واحدة؟

كيف نمت روح المغامرة عند ماجلان فهده تفكيره أن يصل إلى الشرق بواسطة الإبحار غرباً؟ كيف تجرأ فيساليوس أن يضع جلد الإنسان تحت المبضع؟ وي طرح السؤال الحيوي عن مصير الدم الذي ينطلق من القلب، أين مصيره؟ وكيف يتسنى له الرجوع إلى القلب مرة أخرى؟ وليس هناك من اتصال بين الشرايين والأوردة؟

كيف استطاع كوبرنيكوس أن يخالف الكنيسة بكل ضغطها الرهيب، وتعليماتها الوثوقية الدوغمائية؛ ليقول إن الأرض ليست بعد اليوم مركز الكون، بل هي تابع بسيط يدور حول الشمس من أصل تسع كواكب؟ ومنظر العين يقول إن الشمس هي التي تدور؟ بل وكيف يمكن التخلص من ضغط مسلمات بطليموس التي أصبحت أغلالاً في أعناق الناس فهي إلى الأذقان فهم مقمحون! ذلك أن بطليموس كان يرى أن الأرض لو مشت ودارت حول محورها ولم تكن ثابتة لطارت الأشياء من فوقها! أو إذا قذفت بشيء إلى السماء لم يعد إلى مكانه الذي انطلق منه، حيث غادره من تحتته بحركته!

هل الوصول إلى أرض (التوابل) هو الذي حرك ماجلان ليقوم بهذه الرحلة التي استغرقت ثلاث سنوات، يقتل فيها ماجلان نفسه في جزيرة صغيرة في الفلبين، وليرجع من أصل 265 بحاراً 18 فقط، ومن السفن الخمس سفينة واحدة هي (فيكتوريا) أصغر السفن حجماً، وأحقرها شأنًا، وأضعفها تسليحاً وتمويناً؟<sup>(2)</sup>

(2) راجع القصة المثيرة الوثائقية بعنوان ماجلان قاهر البحار - تأليف ستيفان زفايخ - ترجمة حبيب جاماتي نشر مختارات الإذاعة والتلفزيون، الكتاب الماسي - الدار القومية للطباعة والنشر.

ما الذي دفع كوبرنيكوس إلى هذا المركب الوعر ليقول بفكرة تُعتبر لأناس ذلك اليوم شيئاً إداً، وأمرأً عظيماً منكرأً؟  
 ما الذي حمل فيزيالوس على شطب آراء أرسطو وجالينوس وأبقراط في الطب، بل يقول إنه مصاب بالدهشة لاستنتاجات جالينوس التي توحى أنه لم يشرح جثث الآدميين مطلقاً؟<sup>(3)</sup> لماذا تحدث مثل هذه الانفجارات الاجتماعية، والزلازل العقلية، والتحويلات النوعية في وقت قصير متقارب؟

وحتى يمكن تصور القفزة النوعية للفكر الجديد، من خلال سيطرة الفكر اليوناني السابق الذي بلغ من الشمول والسيطرة على العقول درجة أن أستاذ فيزيالوس نفسه اعتبر تفكيره وقحاً ومعتدياً على آراء القدامى، ومن أجل تطويق الفكر الجديد الذي يفتق العين بحقائق الواقع، وللمحافظة على قدسية جالينوس فقد اعتبروا أن جالينوس لم يكن مخطئاً قط في التشريح، ولكن جسم الإنسان هو الذي اعتراه التغير<sup>(4)؟!</sup>

3) قصة الحضارة - ويل ديورانت - مجلد 27 - ص 152: «وقد أدهشت أخطاء نددت عن جالينوس وكانت خليقة بأن يدحضها أبسط تشريح لجسم الإنسان كقوله مثلاً: إن الفك السفلي قسمان، وأن القص سبع عظام متميزة، والكبد عدة فصوص، وما كان ممكناً لتعليل هذه الأخطاء واغتنافها إلا على فرض أن جالينوس لم يشرح قط آدميين بل حيوانات، وشعر فيساليوس أنه قد حان الوقت لمراجعة علم تشريح الإنسان بتشريح الآدميين وهكذا أعد أعظم كتبه».

4) قصة الحضارة - ويل ديورانت - الجزء 27 - ص 154: «قال دوبوا إن جالينوس لم يخطيء، ولكن جسم الإنسان اعتراه التغير منذ عهد جالينوس، وعلى ذلك فعظام الفخذين الواضحة الاستقامة، والتي ليست مقوسة كما وصفها جالينوس إنما هي في رأيه نتيجة لارتداء أوروبيي عصر النهضة سراويل ضيقة».



وحتى يمكن معرفة ضغط الفكر الذي كان سائداً في تلك الأوساط، فيكفي أن نعرف مصير جيوردانو برونو، الذي دُشن مطلع القرن السابع عشر بإحراقه حياً، في 17 شباط/ فبراير من عام 1600 ميلادي، وكانت جريمته التي أحرق من أجلها بعد إذلال طويل ومعاناة نفسية مرعبة في سجون محاكم التفتيش في إيطاليا لمدة ثماني سنوات (1593 - 1600 م) شيء نضحك له هذه الأيام، فقد اعتبر أن ما جاء به كوبرنيكوس محدوداً ناقصاً، واعتبر أن الشمس ليست مركز الكون كما تصور كوبرنيكوس. صحيح إنه وافق كوبرنيكوس أن الأرض تدور حول الشمس، وهي ما تعتبر لوحدها هرطقة تلك الأيام، ولكنه أضاف أن شمسنا ليست أكثر من كوكب من مجموعات لا نهائية من الكواكب التي تشكل عوالم أخرى غير عالمنا، ففكرة العوالم الأخرى التي ثبت عندها ولم يتراجع كلفته الحرق حياً. ويبقى أن نضيف هنا أن الكوسمولوجيا الكونية اليوم ترى أن الشمس التي نعيش حولها هي كوكب في ركن مجرتنا (الطريق اللبني) وليست في مركز المجرة، ويوجد في مجرتنا حوالي مئة مليار نجم مثل شمسنا التي ندور حولها، وأما مجرتنا الحبيبية فهي أيضاً تنتسب إلى عالم المجرات التي يبلغ عدد المجرات فيه حوالي مئة مليار مجرة (المليار يساوي ألف مليون!) وليس هذا فقط بل إن الكون الذي نعيش فيه يبلغ من العمر حوالي عشرين مليار سنة، وهو يتمدد منذ ذلك الوقت بدون توقف، مثل البالونة التي تنتفخ نحو مصير مجهول لم يستطع العلماء الكونيون الكشف عن سر توجهه الأكيد حتى الآن (لا يجليها لوقتها إلا هو؟! ). فأين مجمع الكرادلة الذي أدان جيوردانو برونو وطالب بإحراقه، والذين خاطبهم برونو بقوله: «ربما كنتم يا من

نطقتم الحكم بإعدامي أشد جزعاً وخشية مني أنا الذي تلقيته» ليطلع على هذه المعلومات الجديدة والمثيرة (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً).

إن جيوردانو برونو وتحت سحر (التأمل الإبراهيمي) للكون فقال بأن الشمس لا تمثل شيئاً من هذا الكون الفسيح الممتد، من مجموعات شمسية لا يحصيها العدد، ولا ينفد إليها البصر، ولا يصل إليها خيال، تأمل معي هذه الفقرة من كلامه التي كلفته حياته وهو في الثانية والخمسين من العمر: «هناك في الطبيعة أضداد، وقوى متعارضة، ومتناقضات، ولكن بعمل الكون بأسره بمشيئة الله تتوافق كل المتضادات وتختفي، ووراء التنوع المحير الساحر في الطبيعة توجد هناك وحدة أروع وأشدّ عجباً، تظهر في كل الأجزاء وكأنها أعضاء في كائن واحد، إنها وحدة تسحرني، فأنا بقوة هذه الوحدة حر ولو كنت مستعبداً، سعيد في غمرة الحزن، غني في حماة الفقر، حيّ حتى في الموت»<sup>(5)</sup>.

إن الذي أطلق العقل الأوروبي بعد فترة التخمر من الفكر العربي الإسلامي واليوناني لمدة قرنين، هو التخلص من المسلمات العقلية، والعادات الفكرية، التي تشل التفكير وتمنع الإبداع، وإيجاد الحلول للمشاكل، بالسرعة المثلى، والمردود الأقصى.

إن الذي حرّض (كوبرنيكوس) ومن بعده (تيكو براهي) و(كبلر) و(جاليلو) للوصول إلى تأمل جديد للكون هو التخلص من ضغط المسلمات السابقة على العقل، حتى يعمل العقل بشكل حر

واستقلالي، وللوصول إلى تفسير أكثر شمولاً، وأعظم دقة، وأقرب للصحة، وأنفع واقعية.

إن هذه العقدة (عقدة الآبائية، والإرهاب الفكري، والوصاية على العقول، واحتكار الفهم النهائي والمطلق لكل شيء، وادعاء القنص والقبض على الحقيقة الحقيقية المطلقة، والاتهام بالزندقة والهرطقة لكل من يختلف في التأويل، والفهم المضاد، والتي يجب أن تعتبر على العكس رحمة لتنمية جو البحث العلمي، إذ لا نمو بدون خلاف، ولا تألق بدون تفاعل، ولا إنجاز مدهش بدون حوار عقلاني خصب) هي أم الأمراض، وانتبه الإمام ابن تيمية إلى أن العلماء يخطئ بعضهم بعضاً عند الخلاف، في حين أن المبتدعة يكفر بعضهم بعضاً.

من هنا تأتي أهمية ممارسة النقد الذاتي لأفكارنا بدون توقف، وبإصرار وبدون ملل ولا رحمة، لأن قوانين الكون أعوص وأعقد مما نتصور، وكل ما نحصله من الكون هو في الواقع صوراً ذهنية لا أكثر، كما حصل مع جيل ما قبل كوبرنيكوس الذين استرخوا على ظهورهم في كرة أرضية ثابتة هي مركز الكون وكل الكون يدور حول هذا الكوكب التافه (نسبة للكون).

وعندما لجأ فيساليوس إلى (الواقع العملي الذي يزيه القرآن دوماً. أفلا ينظرون إلى الإبل .. السماء .. الجبال .. الأرض) ليرى طبيعة الجسم كما هو في الواقع (وفي أنفسكم)، اكتشف أن كل الفكر اليوناني كان يتكلم من الكتب والورق، بدون الاتصال بالواقع، بما فيهم أسماء كبيرة من أمثال (جالينوس وأبقراط الذي يكلف الأطباء في العادة بترديد قسمه أثناء التخرج)، هذه الأسماء الكبيرة لجمت

الحركة العلمية حين خرجت من إطارها أنها كائنات تاريخية محددة إلى حقائق كونية ثابتة لذا كان لابد من كسر هذه الأصنام ليتحرك العقل، وصدق الفيلسوف الإسلامي إقبال حين قال: «تلون في كل حال مناة . . . . . شاب بنو الدهر وهي فتاة».

وإليك هذه القصة في هذا الصدد:

يروى أن شاحنة كبيرة مرتفعة مرت تحت جسر لا يلائم ارتفاعها، فانحسبت تحت الجسر، واجتمع العديد من الناس لمحاولة شدها للخلف أو دفعها للأمام عبثاً، وهي تزداد استعصاءً، وكان طفل صغير يراقب المنظر فتقدم إلى رجل البوليس الذي يشرف على عملية الإنقاذ الصعبة قائلاً: هل تسمح لي يا سيدي بالمشاركة؟ فحياه الشرطي مبتسماً من فضوله وجرأته: نعم هل عندك شيء فقال الصبي: فرَّغوا الإطارات من الهواء فتخفض السيارة الشاحنة عن مستوى الجسر فتمشي بأي اتجاه ترغبون! .

هذه القصة المعبرة تروي بشكل جوهري مشكلة العادات العقلية وضغطها على مسارات الفكر، فالحل الذي انقذ في ذهن الطفل الصغير، بسرعة وبشكل عفوي، سببه هو حرية الحركة العقلية نوعاً ما، وروح الفضول والسؤال، والدهشة، والفكر بدون قيود، وعدم التقيد بالعادات العقلية التي سُجن في إطارها الآخرين، واستقبال الأحداث بدون قرارات مسبقة، حيث إن كل حادثة هي واقع مستقل قائم بذاته، كل هذا وغيره يقود العقل إلى عمل عقلي إبداعي. كما أن القصة تعطينا العظة من تشجيع الرأي من أي مستوى صدر، ومن أي عمر جاءت، لذا فإنني أقرأ مقالتي هذه على ابنتي الصغيرة في المرحلة الابتدائية، لشعوري أن الأطفال أذكى مما نتصور، لأنهم

يفكرون بانطلاق، وعفوية، وحدة ذهن، وذكاء نشيط خلاب، ودماغ لا يشكو من تصلب في الشرايين؟! .

وهكذا فعندما سمح الشرطي للطفل بإبداء رأيه أراحهم من ورطة كبيرة بفكرة مبدعة جديدة. فالقصة تروي أن المشاكل الكبيرة يمكن حلها بأفكار صغيرة. وهذا يقودنا إلى بحث العقل والنقل، التقليد والإبداع، الاجتهاد والمتابعة، بين احترام رأي الآباء والمجتمع وانتقادها. لقد وضع القرآن علاقة جميلة بين الاقتفاء والاتباع فلا اقتفاء بدون علم ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾<sup>(6)</sup>. وكانت حجة فرعون في نقاشه مع موسى أيضاً: هل خفي ما تقول على آبائنا الأولين ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾؟! . في حين أن الحجة الإبراهيمية كانت: هل ينفعونكم أو يضرون؟ وكان جوابهم: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون!

(6) الآية ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ - سورة الإسراء رقم الآية (36).

## حصار فيينا الثالث

1683

أثناء إقامتي في ألمانيا قمت بزيارة لقلعة أثرية في جنوب ألمانيا ولفت نظري لوحة جميلة تخلد معركة عسكرية، وبينما كنت أتأملها انتبهت إلى العمائم تغطي الرؤوس في أحد الجانبين المختلطين ببعضهما بين السيوف والدماء والأشلاء والقتلى، وعندما دقت النظر أكثر علمت أنها تخلد معركة أسوار فيينا المحاصرة من قبل الجيش العثماني يوم 12 أيلول / سبتمبر من عام 1683 م.

في هذا اليوم العصيب وجه الوزير العثماني الأعظم إلى أهل فيينا الرسالة التالية - حسبما حفظتها الوثائق العثمانية التي تعود إلى زمن السلطان محمد خان الرابع والتي نشرت في الكتاب الضخم عن مسلسل الرحلة البشرية عبر التاريخ = *Chronic Der Menschheit* (*Chronicle of the Human Kind*): «إنني وبعزة الله وكرامة الرسول وولد القمرين الذي له كل الرفعة والفخر. أنا قائد جيش السلطان العثماني الأعظم. ملك ملوك الأرض. أقول لكم ولقائد النبلاء في فيينا الجنرال ستارهمبرغ. لتعلموا أنني وبأمر من سيدي الأكثر احتراماً وتقديراً. الأقوى. والأعظم والذي لا يقهر. والذي جئتكم بجيشه اللجب حتى مدينتكم فيينا هذه من أجل ضمها إلى مملكته. إن استسلمتم له فبإمكانكم أن تنسحبوا بكل أشيائكم صغيرها وكبيرها.

ومن يرغب في البقاء هنا صينت ممتلكاته . أما إن عصيتم وامتنعتم عن التسليم اقتحمنا عليكم مدينتكم وقطعنا كل صغير وكبير بحد السيف . إنكم تعلمون نبالة سيدي التي يرمى بها رعاياه وسيفعله لكم . والسلام لمن أطاع وامثل» .

في صباح ذلك اليوم من خريف عام 1683 ميلادي الموافق 20 رمضان من عام 1094 هجرية حصل انعطاف نوعي في تاريخ القارة الأوروبية، وقفزة قلبت ميزان القوى، الذي لن يعتدل بعدها مطلقاً بين القوة العظمى العثمانية والدول الأوروبية، حيث اندفع الملك البولوني يوحنا الثالث سويسكي (Johann III Sobieski) وبقيادة شخصية منه مباشرة، على رأس وحدة من الخيالة المدربة كرأس حربة، وبجيش نجدة بلغ 65000 خمس وستون ألف جندي قدموا من بولونيا، لفك الحصار عن مدينة فيينا التي كانت ومازالت تمثل قلب أوروبا، ولم تكن هذه هي الحملة العثمانية الأولى على فيينا فقد سبقتها حملة أخرى في عام 1663 م .

### آلية انهيار الدول

كانت الحملة العثمانية الثانية لدخول قلب أوروبا تمثل اختراقاً نوعياً، كما تمثل في الوقت نفسه قمة الاقتحام العثماني للأرض الأوروبية، إلا أنه فشل وكان هذا يعني بكلمة ثانية انكسار المخطط بغير رجعة، لأن مسلسل التراجع العثماني سوف يستمر في القرنين التاليين حتى تدخل الدولة العثمانية (العناية المركزة التاريخية) حيث سوف تسمى بعدها بـ(الرجل المريض) على ضفاف البوسفور، ثم سوف يموت هذا الرجل المريض (مرض الهرم أو السرطان الذي لن

يرتفع بعد)، ويقوم بدور إعلان الوفاة ومراسيم الجنازة (دابة الأرض) المدعو (كمال أتاتورك) كما أعلنت من قبل دابة الأرض عن موت نبي الله سليمان عليه السلام ﴿مَا دَهَمَ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتِهِمْ فَلَمَّا خَرَ تَيَنَّتِ الْجَنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، وبذلك تنفست الجن الصعداء عند موت النبي سليمان، كما تنفست جن أوروبا أيضاً الصعداء مع الخلاص من القوة العالمية الإسلامية الأخيرة (ولو في صورتها المأساوية المريضة). وبذلك نحرر وبشكل جانبي أمرين على غاية الأهمية: الأول العامل الداخلي هو الذي يلعب الدور الحاسم في إبراز الحدث إلى السطح، والثاني تفاهة الدور الذي لعبه كمال أتاتورك، فهو لم يقتل أو يلغي الخلافة العثمانية وهو أحقر وأضعف من دابة الأرض المذكورة في الآية، وإمبراطوريات عريقة هيهات أن تسقط بأمثال أتاتورك، إن أتاتورك لم يفعل أكثر من إعلان الموت وتوزيع بطاقات النعي، والسير في خشوع في جنازة الدفن الأخيرة، وغورباتشوف أيضاً لم يفعل أكثر من هذا الدور مع الإمبراطورية السوفياتية. في محاولة لفهم (السنن التاريخية) التي عني القرآن بها أكثر من السنن البيولوجية، وأكثر من السنن الفيزيائية، وأعطاهها صفة الديمومة والاستمرار على وجه ما، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

### حفريات الحضارات

لقد اقتحم العلم وارتاد فضاءات جديدة هائلة منها الفضاء التاريخي والحضاري، فكما استطاعت الجيولوجيا وبواسطة الكربون 14 وعن طريق (استنطاق) حلقات الشجر التي تعمر القرون الطويلة،



لتعرف ماذا حدث في الكون منذ قرون عفا عليها الزمن واندرت مع اندثار الذاكرة البشرية، فالشيء نفسه حدث مع (نكش ونفض) الحفريات لحضارات لم تعد تذكر في التاريخ (كما هو الحال في الحضارة الآشورية ذات النزعة الحربية التي أذقت شعوب الجوار أصناف الويل والدمار ثم طواها التاريخ فهل تسمع لهم ركزاً؟!).

كان الاختراق العثماني في حصار فيينا الثاني شبيه بالاختراق الذي قام به العرب قديماً مع تجاوز جبال البيرنيه، بعد السيطرة على شبه الجزيرة الإيبيرية، عندما تحطم الامتداد العربي بدوره في المدى الأقصى الذي حاول تجاوزه، ولكن الفرق من جانب آخر كان كبيراً للغاية. وهو المسار الذي نريد دفع الأفكار باتجاهه مع هذه المقالة، فالعثمانيون كانوا يصارعون أوضاعاً مختلفة للغاية، في القرن السادس عشر والسابع عشر عن الأوضاع التي كان العرب يتفوقون فيها في القرن الثامن والتاسع الهجريين.

بدأ حصار فيينا في الرابع عشر من تموز يوليو من عام 1683 م، وكان القيصر ليوبولد الأول النمساوي قد فر أمام الحملة العثمانية الرهيبة التي ضمت قرابة ربع مليون جندي مزودين بأفضل أسلحة ذلك العصر من المدافع والبنادق ذات الحشوة الواحدة، على ما جاء في الوثائق السلطانية من أيام السلطان محمد الرابع، حيث نقرأ صوراً من مجريات المعركة، في هدم أطراف من سور البلدة، أو ضرب مجموعة من الأعداء (مما عجل بروح 40 - 50 من هؤلاء الأوغاد إلى جهنم!).

فشلت الحملة واندر الحشوة العرمرم، وأعدم الوزير الأعظم في بلغراد عاصمة الصرب الحالية في 25 كانون الأول/ ديسمبر من نفس العام 1683 م، في أعياد الميلاد المسيحية، وكان البابا إينوسنس

الحادي عشر (Innozenz XI) خلف التحالف المقدس الجديد، حيث اتحدت القوة النمساوية مع قوة من ساكسونيا، وقوة من بافاريا (سكسونيا وبافاريا مقاطعتان في جمهورية ألمانيا الاتحادية الحالية) بالإضافة إلى الجيش البولوني الذي ذكرناه سابقاً تحت إمرة الملك البولوني يوحنا الثالث سويسكي، بل وأكثر من هذا حيث ختم السلطان العثماني محمد خان الرابع فترة حكمه الأخيرة التي دامت أكثر من أربعين عاماً بهزيمة أشد هولاً في السهل المجري في معركة (موهاكز في 12 آب/ أغسطس عام 1687 م) ذلك السهل الذي كان الجنود الانكشارية قد خلدوا فيه نصرهم الكبير قبل 160 عاماً. ولكن ليست الذكريات ولا الأرض تمنح نصراً أو هزيمة، وإنما تغيير ما بالنفوس! (سنة الله التي قد دخلت في عبادته)، حيث تم عزل الخليفة بعد ذلك ليموت في عام 1687 م عن عمر يبلغ 53 عاماً قهراً وغمماً، وليعين من بعده أخوه السلطان (سليمان خان الثاني).

### صعود أوروبا الفكري

كانت هزيمة القوة العظمى العثمانية ذات نكبة مزدوجة فهي عجلت بالدولة العثمانية باتجاه التآكل والتحلل والتفسخ إلى جثة الميت آخر الأمر ليعلن أتاتورك الموت في نعوة عامة تاريخية. كما أعلنها غورباتشوف عن إمبراطورية كارل ماركس وستالين ولينين. وفي العام نفسه الذي مات فيه السلطان محمد خان الرابع عام 1687 م كان (إسحق نيوتن) يكتب فيه كتابه الرائع الأسس الرياضية للفلسفة الطبيعية، هل هذا له أدنى دلالة في إلقاء ضوء على الأحداث التاريخية وتفسير ما حدث؟ . . .

لم يكن كتاب الأسس الرياضية للفلسفة الطبيعية سوى القفزة النوعية في تاريخ العقل الإنساني عندما يبدأ الدخول في مرحلة انعطافية جديدة في تفسير العالم الذي يحيط به، فالكتاب كان إذًا المدخل الجديد لفهم عالم جديد. وبالطبع لم يتفطن المسلمون الأتراك - فضلاً عن المسلمين التابعين لهم ذلك أن الأتراك العثمانيين كانوا يمثلون الطليعة والقيادة والخلافة للأمة الإسلامية آنذاك - لهذا التحول النوعي الذي يجري في العالم، من هنا كان قولنا إن التفوق العربي في شبه الجزيرة الإيبيرية كان تفوقاً حضارياً، وكان اقتحام العثمانيين عسكرياً بالدرجة الأولى. ما الذي كان يحدث آنذاك في أوروبا؟

كان إسحق نيوتن يضع الموشور الزجاجي أمام الضوء ليرى تحلل أطيف الألوان السبعة للضوء الأبيض، كان يقوم بتطوير علم (التكامل والتفاضل)، توصل إلى قانون (الجاذبية) بين عامي 1664 و1666 م، كان يضع كتابه عن علم (البصريات) ويفسر الضوء على أنه جسيمات، وفي عام 1687 م التي ذكرناها كان يقوم بتطبيق قانون الجاذبية على حركة الأجرام السماوية وسقوط الأجسام على الأرض ثم ليطور علم الديناميكا (بما في ذلك القوانين الثلاثة في الديناميكا المعروفة التي تبدأ بقانون قصور المادة وتنتهي بقانون كل فعل له رد فعل يساويه في القوة ويعاكسه في الاتجاه) ثم ليطور بعدها قوانين ميكانيكا السوائل.

### الذهول الخفي عن تبدل أحوال الأمم

هذا هو الفرق بين الحقل الذي كان تعيشه أوروبا في ذلك

الوقت، والمناخ الذي كان يعيشه العالم الإسلامي آنذاك، كان هناك شيء جديد يتفتح في أوروبا ونور عقلي يتألق، بينما كان الظلام بدأ في الإطباق على العالم الإسلامي على النحو المأساوي الذي انتبه إليه ابن خلدون في المقدمة حينما كتب يقول أولاً في الصفحة 28 عن التحولات الرهيبة التي تحدث ولا يتفطن لها إلا الآحاد من الخليقة: «ومن الغلط الخفي في التاريخ الدهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر. إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عبادته.

وعندما يتحدث عن أفول شمس الحضارة الإسلامية يعبر بالشكل التالي إنه يدلي بشهادة العالم، ولا يتبجح أو يحاول إخفاء المرض، بل إنه ينظر بتحليق كوني مدهش (ص 33): «هذا إلى منازل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص ظلها، وفل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن، وكأني بالمشرق

قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخموم والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها، وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث».

### كيف بدأ الخلق - علم الجذور

حتى نعرف أين يقف العلم اليوم لابد من معرفة بداياته، أو ما يسمى علم الجينالوجيا (Genealogy) أو ما أشار إليه الفيلسوف الفرنسي المعاصر (ميشيل فوكوه) بفكرة حفريات المعرفة، أو على ما جاء في الآية القرآنية: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ والتي اتخذناها افتتاحية للأبحاث الحالية. عندما كانت بدايات البذور العلمية تزرع في التربة الغربية. عندما بدأ النهمة الغربي للاستفادة من العلم، عندما بدأ العقل ينبض بالحياة، عندما أشرفت أنوار حرية التفكير العلمي، في وهج النار التي كانت تحرق جسد جيوردانو برونو في شباط/ فبراير من عام 1600 م. كان بعض النابهين يشيرون إلى السلطان العثماني بالتنبه إلى ما يحدث في الغرب كان جوابه «إن سلطان المسلمين لا يدخل بلاد الكفار إلا فاتحاً»؟!.

بالطبع كان بإمكان سلطان المسلمين أن يجنب أحفاده الأتراك اليوم أن لا يدخلهم بلاد الكفار متسولين عاجزين تابعين مكروهين غير محترمين كالأيتام في مادبة اللثام. لو انتبه للفرصة التاريخية والمناخ العقلي الذي ينمو ويترعرع في التربة الغربية. ولكن هل الأمر بهذه البساطة؟ إن ابن خلدون يعلمنا أن الدولة إذا نزل بها الهرم فإنه لا

يرتفع، بل إن بعض المحللين التاريخيين يرون أن نجاة أوروبا من سيف السلطان بايزيد الثاني الذي كان يهيء حملة بنصف مليون جندي لاجتياح أوروبا هو أنها هوجمت على يد تيمورلنك الأعرج الذي حطم هذه القوة المتأهبة في معركة أنقرة في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي (وقعت بتاريخ 20 تموز/ يوليو عام 1402م الموافق 19 ذي الحجة من عام 804 هـ) في ما يشبه (العمى التاريخي) على حد قول البعض، باعتبار أن كلا القوتين تركيتان إسلاميتان؟! لشعورهم أن شفق المغيب يغلف الحضارة الإسلامية التي طوقتها يد القدر التي لن تنفك عنها. إن سقوط فيينا في يوم 12 أيلول/ سبتمبر من عام 1683 م وانسحاق الأتراك في أوروبا ربما عَضَّل ولادة الحضارة العالمية الجديدة، حيث سيغلف جو الانكماش الفكري والجمود العقلي كل العبقريات التي كانت تولد في ذلك الحين، من أمثال نيوتن ودافنشي وليوناردو وجيوردانو برونو، وانتهاءً بأينشتاين وستيفن هوكنج وهايزنبرغ وأوتوهان وماكس بلانك ونيلز بور وسواهم العشرات الذين كانوا البناء الفعلين للحضارة الإنسانية الحديثة.

### معنى ارتطام قوتين إسلاميتين

جاء في كتاب وجهة العالم الإسلامي لمؤلفه المفكر الجزائري مالك بن نبي ما يلي ص (200 - 203): «لقد قام تيمورلنك في الواقع بعمل لم يكن يستطيع إدراكه حتى بعد انتهائه منه، لأن مغزاه التاريخي الحق لا يمكن أن يظهر إلا بعد عدة قرون. إن مسألة كهذه قد تتركنا مشدوهين بحجة أنها ذات طابع ميتافيزيقي، ولكننا لكي نعطي للأحداث تفسيراً متكاملاً يتفق مع مضمونها كله يجب ألا نحبس

تصورنا لها في ضوء العلاقات الناتجة عن الأسباب، بل ينبغي أن ننصوّر الأحداث في غايتها التي انتهت إليها في التاريخ، ومن هذا الجانب قد يلزمنا أن نقلب المنهج التاريخي: فنرى الظواهر في توقعها بدلاً من أن نراها في ماضيها، ونعالجها في نتائجها لا في مبادئها، فلكي نفهم ملحمة تيمورلنك ينبغي - مثلاً - أن نسأل أنفسنا: ماذا كان يمكن أن يحدث لو أتيح لوطغتميش أن يحتل موسكو، ومن بعدها وارسو..؟ ولو قدر لبايزيد أن ينصب رايته على أطلال فيينا، ثم على أطلال برلين..؟ لو حدث هذا لأذعنت أوروبا حتماً لصولجان الإسلام الزمني المنتصر، ولكن ألا يدفعنا هذا إلى أن نرى توقعاً مختلفاً تمام الاختلاف عما حدث فعلاً كان سيحدث في التاريخ..؟ كانت النهضة الأوروبية التي مازالت في ضمير المقادير ستصهر في (النهضة التيمورية) ولكن هاتين النهضتين - على الرغم من عظمهما - كانتا مختلفتين، فلم يكن مغزاهما التاريخي واحداً، فلقد كانت الأولى فجراً يفرض على عبقریات جاليلو وديكارت وغيرهما، بينما كانت الأخرى شفقاً يغلف الحضارة الإسلامية لحظة أفولها. كانت إحداها بداية نظام جديد، وكانت الأخرى نهاية نظام دارس، وما كان شيء في الأرض يستطيع أن يدفع عن العالم الليل الذي أخذ يبسط سلطانه آتئذ على البلاد الإسلامية في هدوء، فلو أن تيمورلنك كان قد اتبع دوافعه الشخصية لما استطاع شيء أن يحول دون نهاية الحضارة الإنسانية. فهناك حسب تعبير إقبال (خطة للمجموع) هي التي تكشف عن اتجاه التاريخ.

لماذا حال تيمورلنك دون قيام بايزيد ووطغتميش بنشر الإسلام في قلب أوروبا..؟ والجواب لكي تتابع أوروبا المسيحية جهودها

الحضاري الذي لم يكن العالم الإسلامي بقادر عليه منذ القرن الرابع عشر، حيث كان في نهاية رمقه، فملحمة الإمبراطور التتري تجلو غاية التاريخ، إذ كانت نتيجتها متطابقة مع استمرار سير الحضارة ودوامها، كيما تتعاقب دوراتها، ويتم الكشف الخالد عن العبقريات التي تتناوب على طريق التقدم». «فإن سيف تيمورلنك هو الذي شق الطريق أمام الحضارة الغربية الوليدة وسط أخطار الغروب التي كانت تخيم على العالم الإسلامي، فهل يمكن في ظروف كهذه أن نتحدث عن نوع من (العمى)؟ وهل لا يمكن أن نرى في ذلك أمارة على نوع من التجلي العلوي وراء تصرفات تيمورلنك؟» اهـ.

### رؤية التاريخ بشكل ديناميكي

لا بد من الذهاب إلى بطن التاريخ لنقرأ تاريخ العلم ليس منجزاً ميتاً، بل مرتبطاً بالأحداث الكونية العظمى، فالحياة تأبى أن تمشي إلا كيانياً حياً مترابطاً.

علينا أن نتمتع بعقلية مزدوجة واحدة على (التراث) والأخرى على (المعاصرة). إننا يجب أن نرسخ قاعدة «إذا لم نعرف نحن أين فلا يمكن التوجه إلى أين؟»

أينما كنت ما لم تُحدد الإحداثيات فلا يمكنك أن تتوجه إلى المكان الجديد. ونحن ما لم نحط بالتطورات التي حدثت وبأحدث المعلومات، ما لم ندرك إضافات المعرفة الإنسانية وذيولها الفلسفية فلا يمكن أن نسهم فضلاً عن التفوق وتقديم الجديد.

إن القرآن نسخ (العقلية الآبائية) وهي التي طبقها رواد البحث العلمي في الغرب ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾.



إن العقلية الإبراهيمية هي تلك العقلية الفذة التي تخاطب: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إن عقلية من هذا النوع وفي هذا الشكل من التحرر العقلي لم تستطع حتى النار من التأثير فيها ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

### خلفية انهيار الفكر الآبائي في أوروبا

كانت الصفعة الأولى للفكر التقليدي الآبائي هي محاولة كوبرنيكوس فهم الكون على نموذج جديد، وبذلك خطى العلم خطواته الجريئة الأولى. ومن الغريب أن نموذج الكون الذي كانت الكنيسة قد تبنته من العالم اليوناني القديم (بطليموس) لا يوجد له نص واضح في العهد القديم أو الجديد، كل ما في الأمر أنه يسند تأويلات معينة للنص عندهم، وتفعل الكنيسة الآن الغلطة نفسها مع التطور العلمي الجديد. ولم تستفد من درس التاريخ، فهي قد تبنت الآن نظرية (الانفجار العظيم) (Big Bang Theory) التي سوف نخصص لها مقالة كاملة لأهميتها العلمية والفلسفية) فهي مازالت في طور النظرية.

وكانت الصفعة الرائعة الثانية للعقلية (الآبائية) هي التي جاءت من طاولة (أوتو هان العالم الكيميائي الألماني) (Otto Hahn) المتواضعة حيث أمكن التخلص من التراث اليوناني ومن مسلمة (الآتوم) ومعناها اليوناني الجزء الذي لا يتجزأ (Atom)، حين أمكن شطر الذرة والدخول إلى العالم الفيزيائي الجديد ثم الانتقال منه إلى الفيزياء دون الذرية وبناء العلم الجديد (ميكانيكا الكم) ثم توليد قانون (الارتياب) منه في مستوى العالم الصغير. والآن يكرر العلم الشيء نفسه حين يوجه الضربة القاضية للفيزياء التقليدية الكلاسيكية تلك التي دشنها

نيوتن وعصر نيوتن من عقول العشرات من العلماء الذين دشّنوا العلم التجريبي، من أمثال بيكون وغاليليه وديكارت وليبنيتز وباسكال وتوريشيلي وأفوكادرو وكبلر، حيث يبني صرح الفيزياء اليوم على النسبية العامة التي أطلقت علم الكوسمولوجيا (Cosmology) الحديث، وميكانيكا الكم (Quantum Theory) التي أطلقت ثورة الإلكترونيات. بل إن أعظم جهد علمي وأكبر تحدّي يواجه العلماء هو في محاولة دمج النسبية العامة مع ميكانيكا الكم، بحيث يمكن الخروج بنظرية توحيدية لفهم الكون ذي القوة أربعين أي الصعود للأعلى عشرة قوة 24 والنزول إلى الأسفل عشرة قوة 16 (10 مضروبة في 40) وهي حواف الكون الأصغر (Microcosmos) والكون الأكبر (Macrocosmos) الذي نستطيع معرفته في الوقت الراهن، حيث تم الكشف عن مائة مليار مجرة (Galaxy) من أمثال مجرة درب التبانة (Milk Way) التي نعيش فيها والتي تضم بدورها حوالي مئة مليار نجم مشع مثل الشمس التي تمدنا بالضوء والدفء منذ ما يزيد عن خمسة مليارات سنة ومرشح لها أن تعيش بالكمية نفسها من الزمن، مع العلم أن الحياة الإنسانية الفعلية ممثلة في الثورة الزراعية لم تبدأ إلا قبل عشرة آلاف سنة. فماذا ينتظر الإنسان بعد عشرة آلاف سنة يا ترى؟

### حوار الله والملائكة

لقد حصل حوار في القرآن بين الله والملائكة حيث رأّت الملائكة في هذا الكائن أنه مجرم قاتل مدمر مفسد! ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فالإنسان كائن لا ينتظره مستقبل! بالطبع

رأت الملائكة في الإنسان ما رآه موسى في عمل الرجل الصالح المحكي عن قصصه العجائبية ومغامراته اللامعقولة، حين قفز موسى مخالفاً كل شروط اللعبة: إلى أين أنت ذاهب ما الذي تفعله؟ مع أن قواعد اللعبة واتفاق الرحلة كانت سكوتاً فلا سؤال، وتأملاً فلا اعتراض، وثالثاً: أنا الذي سأشرح كل شيء لك لاحقاً، إلا أن الواقع أكبر أمام ما يحدث، فهو حيناً يثقب (يفسد) السفينة التي يبصر فيها الناس ويعرضهم للغرق؟! . وبعد حين يقوم بقتل طفل لا ذنب له ظاهرياً، فكيف يمكن لموسى أن يستوعب البانوراما الكونية كلها ليدرك أن حكمة هائلة خلف هذا المنظر المرعب، وأن صلاحاً كبيراً خلف هذا الفساد الظاهري (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا)؟! .

لذا كان جواب الله للملائكة أنه عنده من العلم عن طبيعة هذا الكائن غير المنظر الخارجي له، والعبث الصبباني، والإفساد غير المبرر، والقتل النافي للحياة، لأن هناك نضجاً ينتظره، وكمالات في طريق رحلة الصعود.

إني أعلم ما لا تعلمون . . . ثلاث كلمات لا أكثر تحمل اللغز الإنساني .

## الصدمة الحضارية معركة سفح الأهرام (يوليو/ تموز 1798 م)

لم تكن معركة سفح الأهرام بين جيش نابوليون وجيش المماليك في 21 تموز/ يوليو من عام 1798 م قبل أن ينتهي القرن الثامن عشر بعامين فقط معركة عسكرية بمعنى الكلمة، لأن الجيش المملوكي هزم في أول المعركة مع مواجهة طليعة الجيش الفرنسي، بل كانت مواجهة بين عالمين وحضارتين، بين تقنية يغذيها عالم يمشي نحو علم المستقبل، وعالم كسول يعيش في عالم الأحلام ويجتر ذكريات الماضي، بين عالم يعيش العلم وينمو به وعالم توقف عنده العلم، وشح فيه الفكر، وتوقفت فيه الحركة العقلية، ونضبت في ربوعه ينابيع الاجتهاد، بين حضارة تنهض وأخرى قد ودعت نظم الحياة منذ أمد.

إذا كان الوزير العثماني والصدر الأعظم (مصطفى قره باشا) وجه رسالته المملوءة بالعنجهية إلى سكان فيينا أثناء حصاره بتلك الحملة الجبارة التي بلغت 250 ألف جندي، بعبارات من أمثال (من ملك ملوك الأرض إلى شعوب النمسا) وأمثال (فإن لم تستسلموا قطعنا كل صغير وكبير بحد السيف) في خريف القرن السابع عشر الميلادي (12 أيلول/ سبتمبر من عام 1683 م)، فإن الرسالة التي وجهها نابليون بوناپرت إلى أهل القاهرة كانت من نوع مختلف.

كانت الثورة الفرنسية قد اندلعت عام 1789 م، وكانت كما وصفها بعض المؤرخين (مثل الخرفان التي تفترس الأسد؟! ) لأنه حسب منظري ذلك الوقت لم تكن لتخطر على قلب بشر.

وأما الحملة الفرنسية فكانت في عام 1798 م قبل أن ينتهي القرن بعامين فقط، محمولة على ظهر مائتي سفينة بقوام بلغ أربعين ألف جندي وحين وقف نابوليون أمام الأهرام خطب في جنوده قائلاً إن أربعين قرناً من الزمن يطل عليكم.

جاء في تاريخ (عبد الرحمن الجبرتي) في الجزء الثاني وهو يدعو ويصرخ بأعلى صوت عن الكارثة التي حلت مع مطلع القرن الرابع عشر الهجري، والتي لا تخلو من المبالغة والطرافة أيضاً على الشكل الآتي:

«سنة 1213 هـ ثلاث عشر ومائتين وألف . . . وهي أول سني الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون».

ومن اللافت للنظر أن المؤرخ الجبرتي عندما يذكر السنوات التي سبقت الحملة الفرنسية، فإنه إما أن يقول إنه لا شيء مهم حدث باستثناء موت بعض العلماء والشيوخ، أو ظلم المماليك وجورهم، أو الكسوف الكلي الذي حدث قبل الحملة بسنة واحدة والذي يفسر قدوم الحملة في ما بعد؟! .

وفي ما يتعلق بملابسات وصول الحملة الفرنسية يذكر المؤرخ الجبرتي أن الإنجليز سبقوا الفرنسيين إلى الساحل المصري وحذروا الشعب المصري قبل وصول الحملة بعشرة أيام في الثامن من محرم من عام 1213 هـ وعرضوا عليهم المساعدة للمدافعة عنهم، حتى وصلت الحملة الفرنسية في الثامن عشر من محرم 18 / 1 / 1213 هـ، إلا أن المصريين رفضوا معونة الإنجليز، وخاشنوهم بالكلام ورفضوا إعطاءهم الماء والزاد.

أما المماليك فقد ذكر المؤرخ الجبرتي موقفهم على الشكل الآتي: «فلم يهتموا بشيء من ذلك ولم يكثرثوا به اعتماداً على قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم»؟!

ويبقى موقف الجماهير والعلماء الذين يقودونهم والفرق الصوفية لما يشي بطبيعة العقلية المسلمة في تلك الأيام. لقد كانوا يقرأون صحيح البخاري ويعيدون كلمة يا لطيف آلاف المرات ليدفعوا عن أنفسهم الجنود الفرنسية؟! .

جاء في كتاب تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي مرة أخرى ما يلي: «وقد كانت العلماء عند توجه مراد بك تجتمع بالأزهر كل يوم ويقرأون البخاري وغيره من الدعوات، وكذلك مشايخ فقراء الأحمديّة والرفاعيّة والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وأرباب الأشاير ويعملون لهم مجالس بالأزهر وكذلك أطفال المكاتب ويذكرون اسم اللطيف وغير ذلك من الأسماء».

يبقى الآن أن نتملى في رسالة نابوليون إلى أهل القاهرة فهي تحتاج إلى تمعن وتأمل بالغين. ولنحاول (استنطاق النص).

«بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله إلا الله . لا ولد له ولا شريك له في ملكه . من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية (يشير إلى مبادئ وشعارات الثورة الفرنسية في المساواة والأخوة والحرية). السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك يفسدون في الأقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها (يقصد مثلها). فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم . قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حركم من يد الظالمين وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم(!؟). وقولوا أيضاً لهم إن جميع الناس متساوون عند الله وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب . . . إلخ» .

وبتأمل الفقرات المنتقاة بعناية للضرب على الوتر الحساس، وبغض النظر عن التملق الكاذب، والمناورة المفصوحة في كلمات الداهية الفرنسي، فإن العمق السياسي وفهم هذه الشعوب وكيفية الدخول إلى قلوب أفرادها لمما يلفت النظر، ومازلت أتذكر حرب عام 1967 م بين العرب و«إسرائيل»، حيث كانت حرب الدعاية الإسرائيلية تنفث كلمات من هذا القبيل للجندي العربي، إن كل هذا

أي الدراسة النفسية للخصم، ومحاربته بطريقة علمية من الجانب التقني والإعلامي النفسي هي من شروط التفوق والغلبة، وهو ما كان الجنرال الفرنسي يبرع في استخدامه.

إن الحملة الفرنسية التي تنبه المؤرخ الجبرتي إلى جوانب أساسية فيها كانت تحمل جناحاً عسكرياً، جنباً إلى جنب مع فريق علمي ضخم على ما ذكره بسام العسلي في كتابه نابليون بونابرت من سلسلة مشاهير قادة العالم: «لقد تم الإعداد لحملة الشرق بما يتوافق مع أهداف الحملة عسكرياً واقتصادياً وعلمياً وأدبياً وفتياً. وقد ظهر ذلك في تكوين الحملة التي ضمت: (21) عالم رياضيات و(3) علماء فلك و(17) مهندساً مدنياً و(13) عالم طبيعيات ومهندس مناجم وجغرافي و(3) مهندسي تركيب مسحوق البارود والمتفجرات و(4) مهندسين معماريين و(8) رسامين و(10) فنانيين ميكانيكيين ونحات واحد و(15) مترجماً و(10) كتاب رسائل و(22) عامل طباعة مجهزين بأحرف لاتينية ويونانية وعربية، هذا بالإضافة إلى الشعراء والموسيقيين والراقصين. ولما كانت عملية إقامة إمبراطورية ستصطدم بعاملتي الدين واللغة، فقد وضع نابليون في اعتباره ضرورة معالجة هذين العاملين لتحويل مصر من دولة شرقية إلى دولة ترتبط بالغرب».

ويكفي أن نعلم أن هذا الفريق العلمي هو الذي اكتشف حجر رشيد وأعاد الحياة إلى اللغة الهيروغليفية في الوقت الذي كان المماليك مستلقين على ظهورهم، يدخنون النرجيل في صورة (ملوك الزمان؟! )، في أشعة الشمس المصرية الدافئة مثل السلاحف أو التماسيح على حافة نهر النيل العظيم!؟.

إن المؤرخ الجبرتي كما وصفه المؤرخ البريطاني كان يتمتع



بـ (حس حضاري) ولا غرابة فالعلماء تعرف وتحترم وتقدر بعضها بعضاً، والجهال يتراشقون ويتخاصمون، والسياسيون يتنازعون، والمتعصبون يحقدون ويتهاوشون، وضيقت الأفق يكفرون، والعنصريون يتقاتلون ويفني بعضهم بعضاً، لأنهم من نار السموم التي أخرجت إبليس والتي تأكل ألسنتها بعضها بعضاً، ليتحول الكل في النهاية إلى حطام ورماد.

هكذا وصف المؤرخ البريطاني أيضاً ابن خلدون وعمله بأنه: «أعظم عملٍ من نوعه أنتجه أي عقلٍ في أي زمانٍ أو مكانٍ».

جاء في كتاب عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث، إشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم - قسم عبد الرحمن الجبرتي للمؤرخ البريطاني توينبي: «إن التجربة التي خاضها الجبرتي في جيله بمصر تشابه إلى حد بعيد تجربة أوروبي مثلي كان عام 1914 في مستهل شبابه، وعاش ليعاين التدمير الدرامي الذي فاجأ نظاماً مستقراً ولم يقتصر الحال بالجبرتي على أن يعيش في خضم هذه التقلبات غير العادية، فقد منح إدراك مغزاها وأوتي أيضاً المقدرة العلمية على تسجيلها بإحساس صادق يتيح لقارئ روايته للأحداث أن يتفاعل مع تجربته عاطفياً مثلما يتجاوب معه فكراً».

إن الجبرتي لم تستثره المظاهر الاستعراضية لحملة نابليون أو الأشياء السطحية بل حاول أن يفهم هذا التغيير الجديد للعالم من حوله أي روح الحضارة الجديدة وطبيعة الزخم الذي تندفع به، لذا فقد أعطى في مؤرخه ذو المجلدات الثلاثة ما يزيد عن ثلاثين صفحة (لقضية التحقيق في محاكمة قاتل الجنرال الفرنسي كليبر) عن التحول الجديد في طبيعة التحقيق في الحوادث، والنظام القضائي البديع،

واستيفاء الوقائع، واستنطاق الشهود، وجمع الأدلة القضائية قبل إصدار الحكم. في الوقت الذي كان البشر في ظل حكم المماليك يقتلون على الشبهة، ويعتقلون على الكلمة ويختفون من وجه الأرض على الظنة. كل ذلك في غياب مطبق لأي صورة من صور العدالة الحديثة، والقضاء الجديد، والمرافعات وتعدد مستوى المحاكم، واستقلال القضاء ونزاهته إلى حد كبير، إذا قيس في تلك الظروف.

إذن الحضارة بكلمة أخرى هي ليست عملية شراء واستيراد وتكديس للأشياء، بل هي في عمقها عملية بنوية تركيبية علمية عقلانية قبل كل شيء. هي تفاعل بين الإنسان والوقت والتراب، هي إيجاد الشيء وصيانة الشيء وتطوير الشيء. هي السيطرة على ما تنتجه الحضارة وإفرازها الدائم، والاستعداد للتكيف مع التغيرات في ضوء العلاقة الجدلية بين الإنسان والفكرة والشيء. إن المنتجات الكمية، والتقنيات المتطورة خلفها أخلاقيات عمل معينة، وعقلية ذات توتر متميز، وروح ذات نبض خاص.

أدرك المؤرخ الجبرتي هذه العلاقة المقدسة أو طرفاً منها على الأقل لذا وصفه المؤرخ البريطاني وهو يرى انهيار العالم القديم وتسارع وقع الأحداث بصاحب (السيكولوجية الشفافة)، كتب يقول: «كان الجبرتي يملك موهبة سيكولوجية بعيدة الشفافية مكنته من استيعاب حقيقة الدخلاء.. إن الجبرتي قد علم حقيقتهم جميعاً. وتجلت شفافيته السكولوجية في أعظم حالاتها في إدراكه نقاط القوة والضعف في سلوك الفرنسيين غزاة مصر، ومن قبيل المثال:

- عمد الفرنسيون إلى التأثير في المصريين بإقامة معرض لمنجزات العلوم الأوروبية. وقد زار الجبرتي هذا المعرض، ولم يثر

اهتمامه، ووصم المعروضات بأنها لعب أطفال للتأثير فينا، لكننا لن نخدع ببساطة .

- عندما اغتيل القائد العام للقوات الفرنسية الذي خلف نابليون أقيمت للقاتل محاكمة عادلة قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه . وشهد المحاكمة الجبرتي - المراقب المثابر- مثلما زار المعرض السالف الذكر . وقد أثرت فيه عدالة المحاكمة أيما تأثير، إذ انتفت هاهنا الدعاية، فكانت أن بدت أمامه أسلوباً صافي النية للتصور الفرنسي الأصيل لإقرار العدل».

في العصر الذي كان يكتب فولتير مؤلفه الفلسفي، وديدرو موسوعته وجان جاك روسو عن أصل العقد الاجتماعي وتربية الإنسان، وجان مسليه تأملاته الفكرية الجريئة، وإيمانويل كانت كتابه في نقد العقل الخالص، وفي الوقت الذي كانت حملة نابليون تؤدي دور الصفحة لعالم خرج عن خط التاريخ ودخل السبات الشتوي ليستيقظ من جديد .

استيقظ العالم العربي والعالم الإسلامي إذن على الصفحة الاستعمارية كما استيقظت اليابان في وقت متقارب، ولكن القدر الذي سار فيه اليابان كان مختلفاً عن القدر الذي سارت فيه مصر والعالم العربي . ويبقى السؤال واللغز المحير لماذا وصلت اليابان إلى المستوى الذي يحدثنا عنه الكاتب الياباني المحدث (شيتارو إيشيهارا) في كتابه الذي بيع منه فور صدوره مليون نسخة اليابان البلد الذي يستطيع أن يقول لأمریکا . لا والذي نكاد نقول إنه يحمل العملاق الأمريكي على إحدى راحتيه، والذي يكشف فيه النقاب عن حقيقة أنه - وبواسطة التفوق العلمي الياباني - حتى الترسانة النووية الأمريكية

اليوم باتت معتمدة في تفوقها على (الميكرو شيبس = رقائق الكمبيوتر). ومصر البلد الحالي الذي لو قطعت عنه أمريكا الخبز اليومي لمات جوعاً؟! . الغارق في الديون الخارجية، العاجز عن حل مشاكله اليومية؟! .

إن خريف القرن الثامن عشر كان مجدداً فرصة رائعة للعالم الإسلامي لكي ينشط ويتجاوز الفرق التاريخي ويسهم في مسيرة الحضارة الإنسانية، ولكنه أضاع الفرصة كما أضاع الأتراك فرصة خريف القرن السابع عشر. فلم يستطع العالم الإسلامي أن يركب الميكانيزم الحضاري كي تنطلق الحركة العقلية التي هي أساس كل نهضة حضارية.

## قصة الملك عبد العزيز والإخوان

1912

يقول (فيلبي) عن نهاية حركة (الإخوان) في السعودية على يد الملك عبد العزيز «لقد كان خلق ابن سعود لحركة الإخوان سنة 1912 م ضربة معلم عبقرى لا يوازيها غير تصفيته لهذه الحركة بعد ثمانية عشر عاماً، حينما ثبت لديه أنها لم تعد إلا عقبة كأداء في سبيل استقرار الأوضاع التي بناها بطول صبر وجهد. فلقد كان يمكن لهذه الحركة التي أوجدها ابن سعود من العدم أن تدمره وتنهكه لو لم يبادر هو إلى تدميرها».

وهذه القصة ليست خاصة بمكان، بل هي قانون إنساني يسري على جميع الحركات الاجتماعية.

فالسلطان محمود الثاني عندما حاول التخلص من الانكشارية عام 1808 م، قلبوا قدروهم وهجموا على السرايا الحكومية وقتلوا الصدر الأعظم وأشعلوا العاصمة ناراً فأذعن لطلباتهم حتى جاءت نهايتهم عام 1826 م، فحصدتهم بالمدفعية على يد قره جهنم أي جهنم السوداء؟

ومن قبل تتكرر القصة بين أبي مسلم الخراساني وأبي جعفر المنصور فالأول بنى الدولة العباسية بالدم والتجسس وحسن التنظيم والثاني أخذ الثمرة حتى إذا نازعه فيها نزع روحه. وفي المقابلة الأخيرة بينهما بعد أن غدر به المنصور تضرع إليه الخراساني أن يبقيه

لأعدائه قال: ويلك وهل عدو أخطر منك؟

والسيناريو نفسه جرى مع الأحزاب المعاصرة سواء الإخوان المسلمين أو البعث؛ فحسن البنا أنشأ التنظيم المسلح السري الخاص برئاسة السندي فلما طلبه في بعض الشأن قال: على البنا أن يراجعني. والسندي لا يزيد عن نبتة زرعها وغذاها حسن البنا.

وصلاح البيطار وميشيل عفلق كانا من مؤسسي حزب البعث فأما الأول فسقط صريعاً في باريس برصاص الرفاق، وأما الثاني فحكمه الرفاق بالإعدام حتى آواه صدّام المصدوم فلم تر عينه انهيار البعث مثل بيت من الملح. وأما عصام العطار الإسلامي في ألمانيا فقد نجا بأعجوبة بعد أن دفعت زوجته الثمن فسقطت صريعة رصاص مخابرات البعث. وكان محظوظاً إلا ينتهي بيد الإخوان كما حصل مع شاه مسعود في أفغانستان.

وهذه القصة تكررت في سيناريو الترابي وعسكر السودان فكل حصان قابل للترويض إلا الحصان العسكري، فإنه يجمع براكبه فيدق عنقه، هكذا جاءت أخبار الانقلابات ووقائع التاريخ.

وهذا المرض أصيبت به كل فصائل المنطقة من قوميين وإسلاميين؛ فأما فريق القوميين فقد التهم بعضهم بعضاً، مثل العناكب عندما أصبحت السلطة والسلاح في أيديهم، وأما حسن البنا مؤسس (الإخوان المسلمين) فقد قضى نحبه عندما انفجر به لغم (التنظيم الخاص) الذي صنعه على عينه فلم يكن مصرعه سوى رد فعل عادي على مقتل النقراشي ف(يداك أوكتا وفوك نفخ).

وحينما يعزم الجناح المدني على القفز إلى السلطة على ظهر الحصان العسكري، يرى الأخير أنه وضع دمه على كفه في هذه

المغامرة الكبرى فهو أولى بثمرة السلطة، وإذا قام فريق ثاني فسولت له نفسه الانقضاض على الذئب الأول كان جاهزاً بالمرصاد لسفك الدم؟ فالقتل وسفك الدماء شرط أساسي لاستتباب الأمن في نظر الانقلابيين؟

وعندما فشل هتلر في انقلابه عام 1923 م وجلس في السجن انكب على تأليف كتابه الشهير كفاحي "Mein Kampf" وفيه وصل إلى قناعة كاملة أن الوصول إلى السلطة في ألمانيا يجب أن يكون بالطريق الديموقراطي، وهكذا جاء هتلر إلى السلطة عام 1933، وعندما سقطت في يده تفاحة السلطة الناضجة أقسم له الجيش البروسي ذو التقاليد العريقة على الولاء، ولكن روهم (Rohm) قائد الميليشيات العسكرية لم يستوعب هذه الحقيقة، ولما تمرد قام هتلر بتصفيته فقتله بيده؛ مع أن نجم هتلر صعد على أكتاف رجال من نوع روهم؟ فهذه هي حكمة العسكريين الأولى التي يجب تلاوتها بخشوع من كتاب ميكافيللي الأمير: على الحاكم أن يكون ماكراً كالثعلب دموياً كالنمر وعليه أن يقتل بدون تردد؟

وفي كتاب القوة لروبرت غرين يضع 48 قاعدة في لعبة السلطة وأول قاعدة تقول: لا تلمع أكثر من سيدك. ويشرح القانون أن «اجعل أولئك الذين فوقك يشعرون دائماً بتفوقهم بشكل مريح. وفي رغبتك لإرضائهم وإثارة إعجابهم لا تذهب أبعد من اللازم في إظهار مواهبك، وإلا فقد تخلق العكس، أي تثير الخوف وانعدام الأمن. اجعل سادتك يظهرون ألمع مما هم، وستصل إلى قمم السلطة».

ثم يضرب الأمثال على ذلك ومن أطرف القصص تلك التي رواها عن وزير المالية (نيقولا فوكيه) الذي طمح إلى منصب رئيس

الوزراء بعد اختفاء (جول مازاران) عام 1661 م، فدعا الملك (لويس الرابع عشر) ملك الشمس إلى حفلة ملوكية في قصره الذي افتتحه لأول مرة ونام فوكيه تلك الليلة على الأحلام الوردية أن المنصب صار قاب قوسين أو أدنى ثم تدلى. ولكن في الصباح اقتحم منزله جنود الحرس الإمبراطوري فاعتقلوه فلم ينعم بالنوم في قصره المنيف إلا تلك الليلة الوحيدة وقضى بقية عمره في زنزانة موحشة في سجن بعيد في جبال البيرنيه حتى وافاه الأجل. وبنى الملك الشاب حدائق الفرساي على نمط بيت الوزير المعتقل نفسه بدون خوف من الاعتقال.

وقصة الرشيد والبرامكة من قبل فيها عظة وعبرة ويكتب فيها ابن خلدون في المقدمة ص 15 مكتشفاً القانون النفسي نفسه. فيقول: «وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجاجهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب المال اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم. وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء وتسربت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية واستولوا على القرى والضياح من الضواحي والأمصار حتى أسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت إلى مهادهم الوثيرة من الدولة عقارب



السعاية حتى ثل عرشهم وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب».

ويخلص إلى هذه النتيجة عالم الاجتماع العراقي (علي الوردي) في كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث . جزء سادس ص 335) فينقل عن الملك عبد العزيز مع الإخوان أنه كان يقول لهم: «إخواني المشايخ أنتم الآن فوق رأسي تماسكوا بعضكم ببعض ولا تدعوني أهز رأسي فيقع بعضكم أو أكثركم وأنتم تعلمون أن من وقع منكم على الأرض لا يمكن أن يوضع فوق رأسي مرة ثانية. مسألتان لا أسمع فيهما كلام أحد لظهور فائدتها لي ولبلادي وليس هناك من دليل من كتاب الله أو سنة رسول الله (ص) يمنع من إحداث اللاسلكي والسيارات».

وكان الإخوان يظنون أن الشيطان ينقل الخبر عبر أسلاك التلغراف، ولكن بدون فائدة حتى وقعت الواقعة وحكم السيف؛ ففي موضع يقال له السبلة قريباً من الزلفي إلى الشرق من بريدة في 30 آذار/ مارس من عام 1929 م دارت معركة طاحنة بعد أن ثار الإخوان ومعهم خمسة آلاف مقاتل فهزموا. وجيء بأحد الثوار المشهورين وهو فيصل الدويش جريحاً على نقالة من سعف النخل وحوله زوجته وبناته يبكين فأشفق عليه الملك عبد العزيز وعفا عنه. ولكنه عاد فغدر ولحق باثنين آخرين هما سلطان بن بجاد وضيدان بن حثيلين. حتى سلمهم الإنجليز للملك بن سعود من العراق مثل البريد المضمون بطيارة؟

وبعد الانتهاء من القضاء على حركة الإخوان تنفس الملك عبد العزيز الصعداء وقال: «من اليوم سنحيا حياة جديدة».

وفعلاً فقد بدأ الرجل في تحديث بلده فصار يفتح المدارس وأنشأ جيشاً نظامياً من الحضر تحت إشراف بعض الضباط العرب من بقايا الجيش العثماني، كما استورد السيارات وأجهزة اللاسلكي لربط أنحاء مملكته الواسعة، وقد عاونه في ذلك فيليبي معاونة كبيرة.

وفيلبي هو من ساعد في استقدام شركات التنقيب عن البترول التي عثرت عليه في الظهران، وحينما تدفق النفط أصبحت السعودية مروجاً وأنهاراً وأشجاراً لا تقترب منها غوطة دمشق الفيحاء.

ويعلق (الوردي) على واقعة السبلة بقوله في كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث مجلد 6 ص 335): «يدل التاريخ على أن معظم بناء الدول يقتلون من يساعدهم في بنائها، وسبب ذلك أن أولئك المساعدين يريدون أن يشاركوا الباني في ثمرة بنائه، بينما هو لا يريد أن يتنازل لهم عن تلك الثمرة، فينشأ النزاع بينهم، وقد ينتهي النزاع إلى القضاء على أولئك المساعدين وقد صدق من قال السياسة لا قلب لها».

## ولادة إسرائيل 1948

يميل معظم المحللين السياسيين ومن هم في مكان صنع القرار أن أخطر عدو تواجهه الأمة هو الصهيونية وأن الصراع العربي الإسرائيلي هو الجوهرى والمصيري . ولكن (مالك بن نبي) كان الأول الذي قلب الصورة وأعاد ترتيب علاقات الأشياء كما فعل (كوبرنيكوس) في حركة دوران الشمس والأرض . فاعتبر أن ولادة إسرائيل جاءت من رحم التردى العربى . وأن الخراج الصهيونى انفجر بسبب انهيار جهاز المناعة العربى . وأن الانتباه يجب أن يركز على (القابلية للاستعمار) أكثر من (الاستعمار) . وأن هذه (القابلية) ليست جديدة بل تضرب جذورها الثقافية بعمق عبر التاريخ قبل أن يهبط علينا جنود الاستعمار . وهذا الترتيب ينفعنا في وضع التشخيص الصحيح وبذل الجهد المكافئ في الحقل المناسب . إن هناك في علم الأمراض الأعراض (Symptoms) ، وهي التظاهرات الصاخبة الخارجية من ارتفاع حرارة وتورم في القدمين ورعشة في اليدين ولكن هذه الأعراض يختبئ خلفها (المحرض الأساسى) أو (العامل الإمراضى) والأطباء في العادة يبحثون خلف الأعراض كي يضعوا أيديهم على سر المرض المغيب . وهناك نوعان من المواجهة للمرض (العرضية) فتقاوم ارتفاع الحرارة بالخافضات و(السببية) بعزل الوحدة الإمراضية (Unit) ومكافحتها

على نحو جذري . وبهذه الطريقة الحكيمة تقاوم الأمراض وينشط المريض من عقل . ولن يشذ الورم الصهيوني عن هذا القانون . إن العرب في تاريخهم الحديث أَرْضَعُوا الأبناء ثقافة مغلوطة حين وضعوا ترتيباً خاطئاً بين أولويات الأشياء . فاعتبروا مثلاً أن (الحقوق تؤخذ ولا تعطى) وأن (الاستعمار هو سبب مصائبنا) وأن (الحاكم يفعل ما يشاء) وأن (أخطر صراع) نواجهه في الوقت الراهن هو الصراع العربي الإسرائيلي . ولكن هذه المعادلات الأربعة هي كمن يريد أن يقرأ الورقة مقلوبة . ﴿أَمَّنْ يَمْشِي مُكْبَأً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ من الضروري إذاً تصحيح (العلاقة) بين الأشياء . وتعلمنا الكيمياء العضوية أن تغيير جذر الهيدركسيل (OH) يحول السم إلى ترياق، وهذا هو سر الصناعات الدوائية . وهكذا فالعربة لا توضع أمام الحصان . كما أن الشمس لا تدور حول الأرض . ولا تزيد (الحكومات) عن أقمار تابعة لشمس (الأمة) . كما أن (الحقوق) لا تؤخذ ولا تعطى، بل هي ثمرة طبيعية للقيام (بالواجب) . كذلك فإن إزالة (الاستعمار) هي بإزالة (القابلية للاستعمار) وإلا بماذا نفسر أوضاعنا المزرية إلى درجة أن البعض يترحم على أيام الاستعمار . فقد كانت أياماً نمت فيها التعددية وكان الناس يتجرأون فيفتحون فمهم ويعترضون، وكانت المظاهرات تتحرك وبدأت صحافة حرة في التشكل . أما اليوم فالمعارضة ميتة والتعددية ديكور وإذا تحركت مظاهرات فعلية خارج إرادة وتخطيط رجال الاستخبارات طحنت بالدبابات . ولا يتكلم إلا شخص واحد لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . وأما الصحافة فهي كما وصفها (النيهوم) تشبه صحافة العالم الحر في كل شيء من المقالة الافتتاحية والتعليق السياسي وانتهاء

بالكلمات المتقاطعة ونعوة الوفيات، ولكنها في الظاهر تتشابه مثل البيضة للبيضة بفارق أن بيضة الصحافة العربية مسلوقة ومن الأخرى خرج ديك يصيح على السياج. لا غرابة أن فرت الصحافة العربية إلى المهجر تطبع في مدن الضباب، حيث لا يكتب حرف عربي. إن ما ينتظر الصحافة العربية جراحة جذرية، كذلك وفي ضوء هذه الآلية (Mechanism) يجب أن يفهم أن الصراع الجوهري والأساسي هو (العربي - العربي) وأن الهامشي والعرضي هو (العربي - الإسرائيلي). كما يحدث عند مريض الإيدز فعندما انهيار الجهاز المناعي تشكلت الأورام وغزت الجراثيم والفطريات؛ وهم من كل حذب ينسلون. نعم إن انهيار جهاز المناعة العربي قوض الحالة الصحية وقاد إلى الحالة المرضية التي نعيشها. وهذا يفتح وعينا أن نتوجه إلى معالجة المرض الأساسي على نحو جذري. وهذا يقودنا إلى نتيجة أشد مرارة وهي أن الله لو خسف الأرض بإسرائيل لما زال المرض العربي. مع الأخذ بعين الاعتبار (العلاقة الجدلية) بين (المرض) و(المضاعفات). إننا نفعل في صراعنا مع إسرائيل ما يفعل الثور مع المصارع فينطح الخرقه وينسى اللاعب الإسباني. إن الغرب هو الذي صنع إسرائيل على عينه وهو الذي يهرع إليهم في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم. نحن نخفض الحرارة ولا نحاول رفع مقاومة الجهاز المناعي ونشغل بمطاردة الجراثيم. نحن نحاول تفريغ الخراج ولا نعالج مرض (السكر) الأساسي الذي هو أرضية انفجار كل الالتهابات. إننا بكلمة مختصرة نعالج ليس كأطباء محترفين متخصصين بل أقرب إلى البيطرة والجهلة. والطب البيطري هو معالجة الأرانب والعجول وهو في حقله ممتاز ولكن نقله

لمعالجة البشر كارثة. إن بعض الناس يختلط عليهم هذا المفهوم ويشعرون أنه يزلزل كل القواعد العقلية التي يرونها، ولكن ماذا يقولون بزلزال الخليج؟ إن حرب الخليج فتحت أعيننا على أن مشكلتنا داخلية بحتة، ويومها نسينا إسرائيل. وأثناءها انعقدت المؤتمرات الإسلامية في الجانبين، وتم توظيف كل الأدلة العقلية والنقلية أن موقف كل طرف هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من يديه ومن خلفه. وتورطت حركات إسلامية في هذا الصراع السياسي ولم يستفيدوا من موعظة التاريخ، أن النصوص لم تحل مشكلة في يوم من الأيام، وأن القرآن بذاته تم توظيفه لحياسة أكبر خدعة سياسية في التاريخ، فرفع على رؤوس الرماح في كلمة حق يراد بها باطل، وأن ما حكم تاريخنا كان الغدر والسيف. ومن سخرية الأقدار أن نرى في النهاية أن من حل المشكلة لم يكن النصوص كما أن الحل لم يكن لمصلحة أي طرف بقدر مصلحة الطرف المتدخل، كما في قصة القطين والقرد وقطعة الجبن. فعندما احتكم قطان متنازعان حول قطعة جبن إلى قرد متظاهر بالعدالة ذابت الجبنة في حلق القرد وهو يعيد وزنها وقضمها بين القبة والميزان. إن ما رأيناه ليس غيبياً أسطورياً بل عشناه بأعصابنا ومازلنا ندفع ثمن فواتيره المركبة. إنه من الضروري التأسيس لفهم لماذا ولدت إسرائيل وكيف تحدث مثل هذه الأشياء في التاريخ؟ إن هذا التأسيس ضروري لوضع اليد على تشخيص مجدٍ واقتراح علاج ناجع لمشاكلنا. إنها مشاكل لن تحل بالصلح مع إسرائيل كما لم تحل بالحرب معها، لأن أعظم حرب نشنها هي ضد المواطن العربي وما لم ندرك هذه الحقيقة فنحن كما يقول الإمام الغزالي (كمن يستدبر المغرب وهو يطلبه). إننا بالصلح مع إسرائيل وحل مشاكلنا عن طريق

مجلس الأمن وسواه نفعل كما قال الشاعر (أمر أمير الأمراء بحفر بئر في الصحراء كي لا يشرب أحد ولا يخرج ماء)، إنه مثل السراب البقيعة يحسبه الظمان ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب. إن إسرائيل وكل المنطقة تخشى من الانتفاضة وكان يمكن للسابقة أن تنجز حل المشكلة ولكنها طوقت بمفاوضات السياسيين، وهي الآن تبعث على الجزع للجميع لإنها قوة الجماهير التي لا تقهر وفيها خطر العدوى للجوار. ولذلك فإن الجميع يحك على رأسه خوفاً من هذا الظاهرة، فعندما تتحرك الأمة تكون أشبه بالإعصار المزلزل، تدمر كل شيء بأمر ربها. وفي حرب الخليج الأخيرة لم يكن الفيتو في مجلس الأمن، بل كان عندنا في الشرق الوسط. إن الفلسطينيين، خاصة السياسيين منهم، يتلمظون لدولة تكون لهم، ولكن عليهم أن يتذكروا موعظة موسى عندما قال له قومه: ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ كان جوابه ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. إن هناك احتمالاً ليس بالضعيف أن تنشأ دولة عربية جديدة بكل إرهابها وقمعها للمواطن، فتزيد الدول العربية دولة وتزداد محنة المواطن العربي درجة وتغص السجون بالمعتقلين ويتوقف الأطفال عن رمي حجارتهم ويعودوا إلى بيوتهم فهناك من يفكر عن القاصرين. والعبرة هي ليست بالاستخلاف، ولكن بماذا ينتج عنه. فهذا هو التحدي الصعب أمام الفلسطينيين. وهناك دول عربية تخلصت من الاستعمار، ولكنها تعيد سيرة الاستعمار على شكل أشبع. وكما يقول غاندي لا يهمني نوع الطاغوت الذي يحكمني هندياً كان أم بريطانياً. ومن هنا فإن دعوة الأنبياء كانت إلى تحرير الإنسان. والآن إلى

الخلاصة الفلسفية ما هو السبب خلف سقوط غصن وتفشي مرض أو انفجار ثورة وتفكك دولة وتحلل حضارة؟ هل هناك رؤية مشتركة لفهم خلفية هذه الواجهات غير المتشابهة، وهل يمكن وضع اليد على قانونها المهيمن؟ مع مواجهة كل أزمة تاريخية يطيب لنا توجيه أصبع الاتهام إلى العدو الخارجي. إن هذا الضرب من التفكير مريح، ولكن مشكلته أنه لا يقود إلى حل إلا بإلغاء كل الحلول طالما كانت ذاتنا مبرأة من الخطأ خارج حقل المشكلة لا تقترب منها يد التشريح ولا تلامسها أدوات السير واستمر الخطأ يقود إلى مزيد من الخطأ بتعطل آلية تصحيح الخطأ. في مستوى الطبيعة يطرح السؤال نفسه ما الذي يتسبب في سقوط الأوراق؟ لو كانت الريح سبباً لسقطت كل الأوراق ولما سقطت بدون ريح في فصل الخريف فلا عنفوان الريح أسقط كل الأوراق ولا هدوؤها حماها من التهاوي. والبحث الأعمق يصل إلى اكتشاف عنصر خفي لا تراه العين هو قوة ارتباط الورقة بالشجرة. فالعنصر الخارجي لعب دوراً واضحاً ولكن النخر الداخلي مختبئ لا يطل برأسه إلا بالبحث المنظم المعمق السببي. العامل الخارجي يتضافر مع العامل الداخلي في ولادة الحدث ولكن العامل الداخلي هو الذي يهيئ الظروف الموضوعية لولادة الحدث وسقوط الورق. إن فلسفة القرآن تؤسس لفكرة لم يعتد عليها الناس وهي (ظلم النفس) فالناس مستعدون أن يلوموا كل شيء إلا أنفسهم، والقرآن يقلب عقولنا بتأسيس طريقة جديدة لمواجهة المشاكل أن نلوم أنفسنا أولاً ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. إن كثيراً من شرائح المفكرين والسياسيين عندهم الاستعداد للوم كل القوى كتفسير لعجزنا من الصهيونية والماسونية والاستعمار والصليبية والشيطان، بل وحتى



إحالتها في النهاية إلى مصدر يخرس كل متحدث عندما تنسب فضائحنا اليومية إلى إرادة الله، ولكن الحقيقة هي أن الضعفاء هم الذين يخلقون الأقوياء، والمستضعفين هم الذين يوجدون المستكبرين، وأن مصائبنا بما كسبت أيدينا، والأمم الهزيلة هي التي تنبت الطواغيت، والمستنقع هو الذي يولد البعوض، والغربان تحط على الجثث الميتة، والنمل يتجمع على جثث الصراصير، والصهاينة تم توطينهم بين قبائل عربية مشرذمة، والقابلية للاستعمار هي التي تقول للاستعمار أنا هنا تعال فاركب على رقبتي. والدول تنهزم بتفككها الداخلي وانهيار الحضارات يتم بعلة الانتحار. هذا القانون يمسك بإحكام جنبات الوجود بوتيرة مكررة بدءاً من الذرة إلى المجرة مروراً بصحة النفس وفعالية المجتمع وقوة الدول وازدهار الحضارات، ومن أبسط الأفكار إلى أعظم الإمبراطوريات. تروي القصة أن المؤذن خرج لصلاة الصبح متأخراً فاجتمع بالناس في الطريق وقد بزغت الشمس فلما سألوه قال: أنا حضرت حسب الموعد ولكن الشمس خرجت اليوم مبكراً. إن هذه القصة تحكي أزمة ثقافتنا، فنحن على استعداد لتوريط الكون في تناقضات على أن نراجع أنفسنا في سبب الذل الذي يصب على العالم الإسلامي مع كل شروق شمس.



## II

# ولادة الجمالوكيات



## جمهوريةا الرعب والبطالة

في يناير من عام 2003 م احتفلت جريدة الاتحاد الإماراتية بمناسبة طباعة العدد عشرة آلاف منها. واجتمع في هذا الحفل ألمع الأدمغة الصحفية التي تدير الطباعة المكتوبة في العالم العربي. وطرح أحد الحاضرين سؤالاً مزعجاً عن تركيبة الحكم في المنطقة فكان جواب صحفي خليجي أنه لا مشكلة عندنا مع حكامنا وها أنتم جماعات الجمهوريةا تقتدون بنا وعلى نهجنا تسيرون وتتحول الجمهوريةا إلى ملكيات. وهذه البدعة ليست خاصة ببلد دون آخر، بل هي موضوعة يتحلب لها ريق الكثير من حكام الوطن العربي كي يورثوا أولادهم من بعدهم. وهذه الأيام يستعد بلد عربي لإعادة انتخاب رئيس محلي للولاية الرابعة ومن المتوقع أن تكون نتائج الانتخابات كما كانت من قبل 99% في كذبة يعلمها الجميع ويمارسها الجميع ويصفق لها الجميع في مظاهرات مخدرة مسحوورة، أو قد يزين الديكور قليلاً فيدفع إلى الترشيح أكثر من اسم بتخطيط من المخبرات فيظن المغفلون المستباحون أن هناك تعددية وهي نكتة كبيرة لا يضحك لها أحد.

واقترح كاتب مصري مصطلح (الجمملوكيات) للتعريف بهذا الوحش الجديد الذي يعس في سفاري العالم العربي. من تحول

الجمهوريات إلى ملكيات. ما يشبه التحول العضوي في الكائنات المعروفة بـ (الهيريد) في الأساطير وهي كائنات خرافية تضم جسم حصان مع رأس إنسان أو أحياناً أكثر من حيوان في جسم واحد. وهذا الكائن يذكر بقصة (فرانكشتاين) الذي جمع جسمه من أشلاء متناثرة من أجسام شتى. وهو في (الجملوكيات) مكون من (جسم) من الجماهير المضللة. وأما (دماغه) فهو العائلة الحاكمة أو المجلس الملّي السري أو عصابة العسكر أو مافيا متفاهمة. وأما (قلبه) فهو الطائفة المسيطرة، و(عموده الفقري) ضباط العشيرة، و(أحشاؤه) بورجوازية المدن المنحلة و(عظامه وعضلاته) أولاد الأقليات، وأما (الجلد الخارجي) الذي يغلف هذا الكائن فهو الحزب القائد الحاكم إلى الأبد. ونحن نعرف في علم الجينات اليوم أن بعض العلماء جرب دمج المادة الوراثية للفأر بالإنسان فالتهمت جينات الفأر جينات الإنسان. وهذه الأنظمة هي خلطة وراثية من هذا النوع ولا أحد يعلم نتيجة الدمج إلا الله والراسخون في المخبرات. وما يحدث يتم تحت ضوء النهار أمام كل مواطن وتشارك مظاهرات بالآلاف تهتف بالروح بالدم نفديك يا أبو الجماجم. وفي بلد ثوري رأيت منظر الشيوخ والعجائز في قرية يزحفون على العكازات وهم يرحون تحت ثقل شعور مزدوج: أنهم يجب أن يذهبوا إلى انتخابات التزوير. ويجب أن يرقصوا ويصفقوا في الاحتفالات بأفضل من القروود حتى اللحظة الأخيرة. ويجب أن يكتبوا (نعم) للحاكم مع أن الورقة تحمل خيار نعم ولا. كي يبقى على ظهورهم فترة جديدة، وأخرى وأخرى.

وهناك من يغتاظ أو يحزن ويصاب بالكآبة والإحباط أو أن يلعن

ويشتم . وهناك من يرر ويفلسف ، وهناك من يطبق أسنانه تقيداً بتعاليم السلامة فلا ينطق حرفاً ، والمهم ليس المشاعر بل قانون التاريخ ، فلو بكى الإنسان بمقدار نهر دجلة ما تغير شيء . وأنا استفدت من (ابن خلدون) أن ينظر الإنسان لقانون حدوث الأشياء بغض النظر عن مشاعرنا . والرجل قال إن الحكم يقوم على العصبية وإن عمر الدولة مائة وعشرون سنة يحكمها ثلاث أجيال ثم تموت وإذا استمرت في البقاء فلعدم وجود الطالب أي إن استمرار تعميم نظام ليس من قوة ذاتية فيه بل بسبب عدم وجود قوة خارجية تطيح به . والنظام الشيوعي كان يمكن أن يستمر بموجب هذا القانون حتى عام 2037 م ، ولكن الثقب الذي ادخله عليه غورباتشوف أنهار . ومشكلة النظام الشمولي أنه يشبه البالونة (ينفّس) كله بمجرد ثقبه برأس دبوس . والنظام العراقي تم استئصاله بجراحة أمريكية عنيفة ولو لم يأت الأمريكيون لحكم صدام ومن بعده فُصي ومن بعده مصطفى الأول ابن قصي الذي قُتل في معركة الموصل في 22 تموز/ يوليو 2003 م . والمشكلة في هذه الظواهر العجيبة التي نعيش فيها أنها تخضع لقانونها الخاص بها . ويبدو أننا في العالم العربي لم ندخل بعد حكم القبيلة . ومن يدرس الأثروبولوجيا يكتشف أن الجنس البشري حينما دخل مرحلة المدينة وبنى الدولة مر أولاً في المرحلة الأوليغاركية أي حكم الأقلية من (العائلة) ثم تطور إلى حكم (القبيلة) ثم دخل مرحلة (الدولة القومية) قبل أن يدخل مرحلة (الدولة العالمية) . كما يحصل في الولايات المتحدة الأوروبية حالياً . والأنظمة السياسية هي أفضل قميص للبدن خيط عند أبرع خياط . والعالم العربي تحكمه حالياً عائلات إقطاعية مسلحة بموجب قانون التطور الثقافي حتى يأتي أجلها . وبيننا وبين

مرحلة (الامة) مسافة سنة ضوئية. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

### عصر الانقلابات والمؤامرات

مصطلح الجملوكيات عم وانتشر على لسان العديد من مفكري العالم العربي، وتشبه الجملوكيات في الأنظمة الثورية، ما جرى في القرن التاسع الميلادي، فقد اعتلى عرش (بيزنطة) القيصر (ميشيل الثالث) بعد أن أطيح بحكم أمه (ثيودورا) من خلال مؤامرة حاكها عم الملك المدعو (بارداس).

وكان الأخير مثقفاً ذكياً، يحسن التصرف في أمور المملكة.

نفيت (ثيودورا) بعد ذلك إلى دير تقضي بقية عمرها فيه، بعد أن قتل الرجل الذي أحبت (ثيوكتيستوس).

وهكذا خلا الجو للملك الجديد، ولكن ميشيل الثالث كان قد تعلق قلبه بصديق له جمعت به الصدف على غير موعد، فقبل سنتين من اعتلائه العرش، كان في زيارة لإسطنبول الخيل في القصر الملكي؛ فأعجبه حصان رشيق غير مروض؛ فلما اقترب منه هاج هيجاناً عظيماً، لولا أن أسرع له شاب يوغسلافي مفتول العضلات تصدى له فأنقذ حياته.

شكره ولي العهد، وأمر من فوره بترقيته، من خادم في الإسطنبول إلى رئيس عام حظائر القصر الملكي، وسرعان ما لمع نجم صاحبنا (خادم الإسطنبول) المدعو (باسيليوس) في القصر بروحه المرححة وتواضعه.

زاد تعلق الأمير به، حتى أصبح وسائس الخيل القديم لا



يفترقان؛ فأصبح نديمه في شرابه، وخليله في ترحاله، وموضع أسراره، حتى اعتلى ميشيل العرش، وتسمى بميشيل الثالث، وبدأ يبحث عن مستشار خاص له، يعينه في تدبير أمور المملكة؟

وكانت بيزنطة لؤلؤة الشرق تلك الأيام؛ فمالت عاطفة الملك باتجاه نديمه في الشراب، وهكذا رسا الرهان على خادم الإسطبل السابق باسيلوس؛ فلم يقرب عمه أو من يفهم في الإدارة والحكم والسياسة، بل صديقه الذي كان يتقن تسريح الخيل، أكثر من إدارة شؤون المملكة، أو معرفة خفايا السياسة.

وفي ليلة واحدة أصبح سائس الخيل، واحداً من أشد المقربين من السلطان، وأكثرهم حظوة وامتيازاً وسطوة.

وكانت هناك مشكلة مع باسيلوس؛ فلم يكن هناك حدود لطمعه وجشعه ودرامه. فأعقد عليه الملك من المال القناطير المقنطرة، فأفلست خزائن الدولة، حتى جاء اليوم الذي أوحى للملك أن عمه بارداس يتآمر عليه؟

قال له: أيها الملك هذا عمك بارداس يحيك المؤامرة للإطاحة بك؛ فمن أتقنها مرة، لم تعجزه ثانية؟ قال له وماذا أفعل؟ قال وهل جزاء الخيانة إلا القتل؟ مذكراً إياه بالإطاحة بوالدته ثيودورا؟ قال له ومن سينفذ ذلك؟ قال أنا لها إن شئت؟

ذهب باسيلوس في يوم مزدحم من سباق الخيل، فطمعته بخنجر على حين غفلة من أهله فقتله، وبعد قليل طلب باسيلوس من الملك ميشيل ترفيته إلى رئيس القوات المسلحة الملكية، بعد أن أدى الأمانة، وأنقذ العرش.

أحسن إليه الملك ورفعته، ثم زوجه أجمل بنات القصر

(أويدوكسيا أنجرينا)، وزاد من عطائه إلى ثلاثة أضعاف.

ثم دارت الأيام دورتها حتى جاء ذلك اليوم الذي وقع الملك في ضائقة مالية، بعد أن صفر الهواء في صناديق المملكة، بسبب البذخ والإنفاق على سائس الخيل السابق، فطلب من صديقه القديم الخادم المكدونى أن يرد له شيئاً من المعروف الذي أعطاه؟

نظر إليه باسيلوس بتخابث، ورفض إعطائه المال، وكان أثناء هذا قد أصبح رئيس الجيش، وبنى علاقات مع القوات المسلحة، ورجال القصر، والمجلس الاستشاري، بل وأصبح أغنى وأقوى من القيصر نفسه.

بدأ ميشيل يصحو على حقيقة مرة، أن من صنعه بيديه، أصبح قابضاً على مصيره، حتى واجه ساعة الحقيقة بعد أسبوعين؛ عندما اقتحم رجال الحرس الإمبراطوري القصر الملكي، وأحاطوا بالملك المدعور؟

سأل صديقه باسيلوس التفسير؟ وكان مشرفاً على العملية؟ أجابه ببرود وهل أتيت لأشرب القهوة عندك؟

ثم التفت إلى الجنود وقال: لهم قوموا بواجبكم يا شباب، قطعنوه بالحرايب، ثم احتزوا رأسه؛ فوضعه على رأس رمح، ثم طافوا به شوارع بيزنطة، وهم يهتفون بحياة القائد إلى الأبد: بالدم بالروح نفديك يا باسيلوس.

## ولادة الأنظمة الشمولية

الأنظمة الشمولية تمتاز بأنها (شمولية) بمعنى أنها (كل) متماسك إذا دخل الفساد عليها من ثقب كان مثل الريح الباردة في القطب الجنوبي التي تدخل غرفة دافئة فيموت أهلها برداً أو ثقب في سد هائل فينهار السيل العرم أو مثل بالون إذا انثقب في أي مكان تسرب كل الهواء الداخلي دفعة واحدة. وهو في علم السياسة يعرف بقانون الدومينو أي مجموعة المكعبات التي تتماسك باستنادها بعضها إلى بعض فإذا أزيل مكعب واحد انهار كل البناء. سنة الله في خلقه وهلك هنالك المبطلون.

لذا فالنظام الشمولي يكافح إلى آخر نفس للمحافظة على البقاء. ولا يسمح لأي ثقب في سده مهما بلغ صغره ولو كان من حجم النانو. وهذا سر رفض النظام الشمولي أي محاولة إصلاح لأنها ليست إصلاحاً ولا في صالحه، بل إعلان موته في أسرع بريد. ومتى فتح الباب عصفت به الريح فانتهى. كما أن انهيار الأنظمة الشمولية لها علاقة بقانون التغيير الجيولوجي السياسي. فكما تعيش الذبابة أياماً ولا تعمر البعوضة طويلاً كذلك الحال في عمر الأنظمة الشمولية فلها عمر؛ فإذا انقضى أجلها ماتت. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

ولا يصدق الناس اليوم أن صدام غير موجود. كما حصل مع موت ستالين في نيسان/ أبريل عام 1953 م، فعندما نفق الجبار استيقظت الجماهير في برلين فتدافعت في الشوارع تنادي بالديموقراطية في بلد اسمه جمهورية ألمانيا الديمقراطية (DDR). في ما عرف بانتفاضة برلين التي انفجرت يومي 16 و17 حزيران/ يونيو من عام 1953 م وفي حزيران/ يونيو من عام 2003 م احتفل الألمان بمناسبة مرور نصف قرن على الانتفاضة فوضع كل من شرودر المستشار الألماني وتيرزيه رئيس البرلمان الاتحادي ورئيس الجمهورية فون فايتسكر أكاليل الزهور على قبور أكثر من مائة ضحية في الأرض التي لم يعد لها اسم بعد أن محيت من الوجود دولة كاملة بدون طليقة واحدة بعد انهيار جدار برلين في خريف 1989 م.

وتعود بي الذاكرة إلى يوم من عام 1975 م، وكنت في سيارة زميل ألماني متوجهين إلى مدينة فورتسبورغ في الجنوب فسألته: هل تظن أن الشعب الألماني الموزع بين دولتين يمكن أن يتحد من جديد؟ هز رأسه نفياً قلت له لماذا؟ قال: السبب يعود إلى تربية النشء الجديد فهذا الجيل من الشباب لم يعد ألمانياً لقد أعيدت برمجة عقله على الاشتراكية، ويظنون أنفسهم أنهم في الجنة وهم في الشرفقة الاشتراكية معزولون؟ قلت له: أما أنا فأقول لك إن الشعب الألماني سيتحد مهما طالّت الفترة؟. فوجئ بإجابتي ولم يعقب ولم يبدو على وجهه الاقتناع. ولو تذكر كلماتي اليوم لتعجب من قدرة التنبؤ عندي. والواقع إن جوابي السريع والواضح والقصير كان نابعاً من القناعة بقوة الشعب الألماني وهزال النظام الاشتراكي المبني على الكذب والمخابرات (الاستازي) الذي كان يتنصت على كل الشعب الألماني

بعشرين ألف غرفة مجهزة بأحدث الإمكانيات .

وآية الفشل على أي نظام أنه يقوم على حراسة الإرهاب . ومن كانت قوته من غير ذاته هوى عندما يغيب ما يسنده من الخارج . وهو الذي حصل مع نظام ألمانيا الشرقية . ولقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب .

وأكدت لي نظرتي هذه حادثة مثيرة وقعت معي حينما أخطأت الطريق في الذهاب إلى برلين فبدلاً من الذهاب إلى الغربية ذهبت إلى الشرقية فوقعت في المصيدة . وقلت في نفسي كلها برلين فإن دخلت الشرقية قلت لهم ببساطة لقد أخطأت طريقي ودلوني على طريق الغربية؟ ولكن الخطأ كان كمن يريد الذهاب إلى الجنة فنزل إلى سقر وما أدراك ما سقر؟

والناظر إلى برلين على الخريطة يلاحظ أنها مقسمة إلى أربعة أقسام الشرقي منها بيد الروس والغربي بيد الحلفاء أي بيد فرنسا وبريطانيا وأمريكا . بينهما جدار ظاهره الرحمة وباطنه من قبله الاشتراكيين بالعذاب . وهذه العاصمة مربوطة مثل المشيمة بحبل سري طويل يمتد عبر رحم أراضي ألمانيا الشرقية بطريق سريع عريض منه يأتي الغذاء والدواء لمدينة مسجونة في قفص اشتراكي قميء .

وكادت عاصمة (البروسيين) الجميلة أن تقع في قبضة ستالين عام 1950 حينما أعلن حصارها . تلك العاصمة الجميلة التي تحمل ذكريات الأميرة (صوفي شارلوتنبرغ) التي كانت تجري حواراتها مع الفيلسوف (ليبنتز) فتقول له لم تفسر لي كل شيء ، وفي قناعتني أنه مع مواجهة حقيقة الموت سوف تتوضح لي بقية الحقائق .

وكما يقول الفيلسوف إيكيتوس أنه ليس من شر في العالم ، فقد

كان خطأ دخولي إلى الجحيم الاشتراكي ذو فائدة فقد رأيت النظام من الداخل. ولاحظت فور دخولي اللجنة الاشتراكية تغير صورة الحياة بأكملها وتذكرت فوراً وطني الاشتراكي الذي هربت منه. فالشوارع ضيقة والسيارات باهتة اللون صغيرة الحجم والبنائات شعبية وسخة والناس بملابس رثة متواضعة وأكثر ما لفت نظري كثرة الجيش والملابس العسكرية وكنت أشم رائحة رجال الأمن حينما توجهت. وتذكرت من هذه المناظر حدود الأنظمة الاشتراكية في العالم العربي فمنذ البوابة تلاحظ ثلاثاً القلة والذلة والوسخ، وتعقب في الجو مع كل جزيء من الهواء عناصر المخابرات.

كانت زيارتي لبرلين الشرقية صدمة لا أنساها وعندما خرجت بعد يوم حافل من التعذيب النفسي والإذلال والغرامة المالية (بالمارك الألماني الغربي؟) وانتظار يوم كامل، دخلت أخيراً القطاع الغربي فهتف لي الجنود: إلى الحرية... ويومها أردت أن أحررّ لله ساجداً على نعمة الحرية، وعرفت يومها أنني عانيت يوماً ولكن الألمان الشرقيين عانوا أربعين سنة يتيهون في صحراء الاشتراكية.

في عام 1953 م انتفضت الجماهير البسيطة على الأوضاع فزحفت دبابات الجيش الأحمر فسحقت المحاولة مع ميليشيا الحزب، وقتل أكثر من مائة برشاشات الرفاق، وقبع ألوف في السجون تحت العذاب المهين. وشعر الألمان أن ليس من خروج من الجحيم إلا بأحد طريقين: تحريرهم من الخارج كما فعلت أمريكا مع العراقيين في ربيع 2003 م أو النزوح الجماعي بكل سبيل ممكن حتى يسقط النظام الشمولي إفلاساً.

لقد ثبت أن من يعيش في ظل نظام شمولي تتشوه معالمه

كإنسان، فإما علق أنشودة فانتحر أو انتسب للحزب فخرب من الداخل، وهو ما يفعله الكثيرون، أو انتقم بقتل عناصر النظام فقتل بهم، وكان مثله من يكافح المستنقع بقتل بعوضة، وإما انسحب من المجتمع فأطلق لحيته وأمسك بمسبحة المتصوفة وبعض كاستات الوعاظ الجدد، فنذر للرحمن أن لا يكلم إنسياً؛ وهي حالة الانسحاب والهجرة الداخلية أو الهرب من البلد، وأن يأخذ معه كلبه كما فعل أصحاب الكهف، فالديكتاتورية تخلق وضعاً لا يصلح للكلاب!

وهناك من الأنظمة الشمولية في العالم العربي ما تعيش على هذه المعادلة الدقيقة، فلو خرج الناس من دين النظام أفواجاً كما فعل الألمان الشرقيون فهاجر الحرفيون والعلماء والمثقفون والشباب الطموح لانقاد البلد إلى الإفلاس في زمن يزيد وينقص. ولكن ما يبقي النظام الشمولي على قيد الحياة هو الأمل الكاذب، لا يموت فيها ولا يحيا. وهي براءة من حراس النظام ومنظريه يجب أن نعترف بها، وهي تذكر بشعرة معاوية القديمة. وبذلك تحول الملايين الذين هربوا من النظام إلى ممولين له بالعمل الصعبة بنهر من ذهب يتدفق عليه أطراف النهار وأثناء الليل لعله يرضى، في شريان يضح الدم في أجهزة الأمن كي تعيش. ولو نزع الناس من البلد وقطعوا كل مساعدة لجفت الشرايين المغذية وانهار النظام ميتاً بفقر التروية. ولكن ملايين المهاجرين المغفلين يحافظون على ثبات عملة مفلسة بالتحويلات الثابتة بالملايين فيحافظون عليه من حيث يريدون دفنه، ويبثون الحياة في جثة ميتة من حيث لا يشعرون. والناس في ألمانيا الشرقية لم تفعل ذلك. فهرب الناس أكثر مع إقامة السور في أغسطس 1961 م، وكان إعلاناً عن إفلاس النظام الاشتراكي.

وفي يوم قرأت خبراً عن محاولة عربي هرب من ألمانيا الشرقية بصحبته امرأة ألمانية وعدته بالزواج إن هو حرَّرها وابتتها، فما كان منه إلا أن وضع الاثنتين في المستودع الخلفي لسيارته وعبر بهما الحدود في غفلة عن الأنظار، ولو عثر عليهما لكان السجن المؤبد للثلاثة. وقالت عنه الجريدة المحلية يومها لقد كان شجاعاً إلى حد لا يصدق. ولكنه لم يقدر الخطر ونجت العائلة وفاز العربي بالعروس والجنسية الأوروبية والنجاة من قبضة النظام الاشتراكي في البلدين موطنه وموطن المرأة.

لقد كان نزوح الناس الجماعي ملحمة فيها ألف قصة وقصة فمنهم من حفروا سراديب تحت الأرض أشد من عمل الأرناب والخلد بطول 120 متراً، سهروا عليه سنوات حتى نجا العشرات في ضربة واحدة. ومنهم من طار فوق السحاب ببالونات اخترعوها من عقل معذب بعبقرية فذة. وسبح الشباب حتى الإنهاك إلى الشاطئ الآخر مع وجود دوريات الحراسة. وكانت الثواني تحكم على حياة ومصير وموت الناس.

وفي يوم كنت قريباً من الحدود في مدينة (فولفسبورغ)، حيث تصنع سيارات (الفوكس فاغن) الشعبية فاقتربت من الشريط فحذرنى جندي شرقي و(خرطش) سلاحه فحذرنى صديقي (أحمد المسقطي) يومها أن لا أقرب كثيراً فهم لا يأبهون لقتل الناس لأنهم على دين فرعون.

وفي يوم جاء (هونيكر) آخر رئيس للشرقية قبل الانهيار فوقف متنطحاً يخطب بصلاية عقائدية أن الرأسمالية والاشتراكية دينان لا يجتمعان إلا إذا اتحد الماء والنار. وألمانيا استطاعت أن تفعل هذا



المستحيل حينما (طعّمت) الشجرة الرأسمالية بغصن اشتراكي من الضمانات والعمل النقابي غير المزيف خارج قبضة الحزب الواحد والنظام الضريبي، وبذلك خسر الشيوعيون وربح الرأسماليون الاشتراكيون الجدد ربحاً عظيماً. وأي نظام يقوم على الإرهاب والإكراه خاسر ولا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي. وما أسقط روسيا المرض نفسه من الإكراه على العقيدة وهي التي ستقضي على الأنظمة الشمولية في العالم العربي.

ثم بدأ الناس يتجمعون حول مصادر القوة التقليدية الكنائس. واستطاع (فاليسا) في بولندا أن يطور أسلوباً جديداً للمقاومة عبر النقابات التضامنية. وفي براغ سحقت زهور الربيع الديمقراطي وقتلت المعارضة التشيكية حتى حين. وصبر الناس في برلين حتى يذوب الجليد بفصل جديد. وفي عام 1985 م مع مجيء غورباتشوف تجرأ الناس على المواجهة أكثر ولم ينتهبوا إلى موت النظام إلا بعد أن أمر غورباتشوف بعدم تدخل الجيش الأحمر لمواجهة المتظاهرين الذين كانوا يهتفون: نحن الشعب. ولو تدخل الجيش الأحمر كما فعل عام 1953 م لامتد عمر النظام أربعين سنة أخرى يتيهون في الأرض كما هو حال جيل الخوف والته العربي.

ومن أعجب ما حدث ذلك المنظر الذي رأيته والجماهير العزلاء تقف في وجه الجيش وامرأة تجهش بالبكاء وهي تخاطب شرطياً انتصب أمامها متجمداً لا يجيبها ولا يبكي ولا يقاوم، وهي تهتف به إلى متى سوف تبقى الأوضاع هكذا؟ وفي النهاية سقطت جثة النظام بعد أن شبع موتاً. وتدفقت الجماهير مثل سيل عارم فرفعت الحواجز وأخذت المعاول تنهال بها على الجدار اللعين، والشاطر من

احتفظ بقطعة منه ذكرى للغافلين وآية للمتوسمين . ومات النظام الكلي كلية، وانتهت الدولة الاشتراكية المزيفة بلحظة عين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين . وحدث كل ذلك بثورة سلمية لم يمت فيها شخص واحد بانتفاضة وغير انتفاضة، وإنما بالهتاف والدموع وأخذ الألمان يقبل بعضهم بعضاً، وأنا مذهول من المنظر لا أصدق وأردد وهل عند الألمان عواطف، فهذه الكائنات التي عشت بينها كنت أظنها روبوتات مثل الحديد ليس لها عواطف فكيف يكون؟

## ولادة جيل التيه والخوف

(المجتمع العربي أمام استعصاء تاريخي في مثلث مكون  
من مواطن تائه ومثقف مدجن وفقه غائب عن العصر)

في عام 1995 م توفي اثنان من أعظم الكتاب العرب (علي الوردى) عن 82 عاماً، مخلفاً وراءه أكثر من ثلاثين مؤلفاً و(الصادق النيهوم) في عمر 58 عاماً. فأما الوردى فسار في جنازته أفراد قلائل على خوفٍ من فرعون وملئه أن يفتنهم. وأما (النيهوم) فمات مثل أبو ذر الغفاري: (يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده). يصف (سعد البزاز) الوردى بأنه أكبر عالم اجتماع في وطنه، وكان حرياً أن يودع بجنازة تليق به من خصومه والأصدقاء، ولكن لم يكن الخصوم ليسيروا في جنازته في بلاد: (غابت عنها تقاليد الحوار وبات من النادر احترام الرأي الآخر وتحولت الخلافات الفكرية إلى سكاكين تقسم الناس، فحيثما ينعدم احترام الرأي الآخر يصبح التشبث بالخصام والنزوع إلى الإيذاء بعضاً من مظاهر الانفصام العام في شخصية المجتمع)، وأما الأصدقاء فلا شك أن الخوف: (شل أقدامهم عن الخروج إلى الشارع في تظاهرة الوداع، وحيث يوجد رعب جماعي تزداد الهواجس ولا يعود بإمكان الناس الإفصاح عن هويتهم الفكرية في لحظة مشوهة من التشظي في تركيبة المجتمع). مات الوردى تاركاً

وراءه مؤلفات تأسيسية للفكر مثل منطق ابن خلدون ووعاظ السلاطين ومهزلة العقل البشري وموسوعة تاريخ العراق الحديث. ومات (النيهوم) تاركاً وراءه مؤلفات مثيرة مثل محنة ثقافة مزورة ومن سرق الجامع وإسلام ضد الإسلام وقرود . . قرود. ويطرح (البزاز) سؤالاً: (للوصل إلى عروق الكوارث) (من نحن؟ وهل نحن شعب واحد حقاً؟ ولماذا توالى الكوارث علينا؟ أهو عقاب إلهي قررت الأقدار؟ أم أن الكوارث هي نتاج جلدٍ جماعي للذات؟) ليصل إلى تحليل يدعو للتأمل ولا يخلو من قدر من الحقيقة، فينقل عن (الوردي): (أنه حذر من قدوم العوام من ريف متخلف إلى المدن) الذي سيؤدي إلى اجتياح المجتمع المدني على يد العسكر واغتصاب مؤسسة الدولة وتريف المدينة بقيم الثأر والعنف. وهناك من يرى أن بعض أنظمة الحكم لا تزيد عن تحالف الريف ضد المدينة. واستبدال إقطاعيي الأراضي بزعماء القبائل الأمنية الجديدة بفارق أن مضارب القبيلة امتدت إلى كل الدولة والمجتمع ولا ضمانة لأي شيء أو إنسان في أي زمان أو مكان. لينتهي (البزاز) إلى أن (إعادة دور المدينة) سيؤدي إلى سلسلة من التحسينات مثل: (إذابة الفروق العرقية والمذهبية - رد الاعتبار إلى مفهوم الدولة - فرض النمط السلمي لحل المشاكل - إعادة إنعاش مجالس الفكر). مات الوردي فلم يسر في جنازته إلا رهط من الناس وأما النيهوم فضاع رسمه. وهذه المكافأة من الأمة لمفكرها مؤشر خطير عن غيوبتها التاريخية، ومصير الوردي يذكر بنهاية (ابن رشد) الذي كوفيء في نهاية حياته بالنفي إلى قرية يهودية وحرقت مؤلفاته، وأما (الطبري) المفسر والمؤرخ فقد دفن سراً تحت

جنح الظلام خوفاً من الرعاع الذين اتهموه بالرفض، وأما (مالك بن نبي) فهو مجهول في بلده الجزائر أكثر من أي بلد آخر. ويبدو أن الفكر يبحث له دوماً عن تربة مناسبة. هكذا انتقلت أفكار بوذا إلى الصين، وحمل حواريو المسيح عليه السلام دعوتهم إلى روما، وهرب (الهورجنوت) من فرنسا إلى برلين، كما لجأ (النساطرة) إلى بغداد، وفر علماء القسطنطينية بعد الفتح العثماني باتجاه الغرب. إن هجرة الفكر تحدث حينما يلج الوطن استعصاءً تاريخياً فتمتلئ المعتقلات بالأحرار ودار الغربية باللاجئين السياسيين. والوطن العربي اليوم مقيد في زنزانة تاريخية من أربع زوايا متبادلة التأثير بين (مواطن تائه) و(فقيه غائب عن العصر) و(مثقف مدجن) و(زعيم مؤله). لقد آن الوقت لاستيعاب ثلاث حقائق: التخلي عن التعظيم الذي يقترب من التآليه، والحب الجنوني، وأن شخصاً ما يستطيع أن يلزم بكل شيء. والديموقراطيات اليوم تعكف على تشريح (بشرية) الزعماء أكثر من تقديسهم فهذا العمل يفيد والثاني يعطل. إن دخول المجتمعات هذا النفق الأسود ليس غريباً عن التاريخ، وحالة استعصاء من هذا النوع تنتهي في العادة بثلاث كوارث: اجتياح خارجي - تحلل داخلي يفضي إلى حرب أهلية أو ثورة - أو تحنط إلى أجل غير مسمى في براد مشرحة الموتى. والجهنة عندما تدخل الموت تمر عبر ثلاث بوابات: أولاً المحافظة على الشكل مع توقف الوظيفة ما يسميه الطب الشرعي بـ (الصمّل الجيفي) فتصبح الجثة قطعة واحدة من خشب. ثم تدخل الجثة مرحلة التفسخ والتحلل فتصاعد رائحة الموت. ثم تدخل مرحلة الاجتياح الخارجي لتبدأ طوابير لا تنتهي من فرق الحشرات

تتناوب على التهامها في (نظم ثابت) يبدأها الذباب الأزرق وينهيا النمل وخنافس الشحم في ما لا يقل عن 500 نوعاً من الحشرات، بحيث يهيء التهام كل فريق الجثة للموجة التي بعده في ساعة بيولوجية لا تخطئ، حتى تذوب بالكامل في التراب وتعود إلى دورة الطبيعة. إن القرآن ينقل إلينا أخبار الأمم التي دخلت نفق الاستعصاء التاريخي فلم ينفعها إلا الاستئصال الكامل مثل الورم الخبيث. هكذا دمر مجتمع نوح في ظل دعاء مزلزل: ﴿رَبِّ لَا تَذَرَّ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكُفْرِينَ دَيَّارًا﴾ فغسلوا من وجه الأرض بالطوفان. وأما قوم لوط فقد أحرقوا بالبركان لتطهير الأرض من احتمالات انفجار أمراض فيروسية تقضي على الجنس البشري كما في الأيبولا والإيدز بعد أن تورط كامل المجتمع بالشذوذ الجنسي وأصبح الذي لا يمارسه عرضة للسخرية: (إنهم أناس يتطهرون). وأما عاد فأرسل عليهم ريح صرصر عاتية فترى القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. وهناك استعصاء تاريخي واجهه فتية الكهف بعد أن دخل المجتمع نفق الاستبداد ومعالجة المارقين بالرجم ففروا مع كلبهم بعد أن لم يبق لأحد ضمانة بما فيها الكلاب. ولكن أعظم استعصاء تاريخي كان في المجتمع الفرعوني. وعندما ذهب موسى عليه السلام بمهمته التحريرية كان واضحاً في خطابه لفرعون أنه لم يأت لإصلاح المجتمع الفرعوني، بل ليمنحه بني إسرائيل الذين أصبحوا أدوات (عبودية) في آلة النظام الفرعوني (أن عبّدت بني إسرائيل). إن قصة كاملة في القرآن عن البقرة في أطول سورة تحمل الترميز العميق لمأساة دخول المجتمع حالة الاستعصاء التاريخية. وعندما يحلل المؤرخ (توينبي) ظاهرة

انبثاق الحضارة يرى أنها (الاستجابة الملائمة للتحدي) فيقول إن الموت وضع يده الباردة على المجتمع الفرعوني عندما انتقل التحدي من (الطبيعة) إلى (النفس)، فعجزت الحضارة الفرعونية عن مجاراة هذا التحول الجديد. كان المجتمع الفرعوني قد دخل ليل التاريخ وفقد الطاقة الإبداعية وتكسر إلى شرائح دونية وفوقية من مستضعفين ومستكبرين. وكانت مهمة موسى محصورة في خطة على ثلاث مراحل: الخروج بجيل (الخوف) من مصر، ثم دفن جيل (التيه) في الصحراء، ثم خروج جيل (الحرية) إلى القدر الجديد. ولا يوجد قصة مشروحة بتفصيل مع رسم كل المشاعر الدقيقة وخلجات النفوس والتعبيرات وعلى نحو مكرر كما جاءت في مواجهة موسى لأعظم حضارة على ظهر الأرض يومها. كانت حضارة قد شاخت وارتفعت فيها الأصنام والهيكل ومات فيها الإنسان. وفي الوقت الذي كانت ترفع الأهرامات التي هي مدافن لأشخاص زائلين كانت عظام أمم كاملة تطحن في مقابر جماعية. إن بني إسرائيل نجحوا في عبور البحر تحت مظلة المعجزة، ولكن لا فائدة من جيل مريض نشأ في العبودية تركت السياط في ظهره أنفاقاً. وكانت مهمة موسى غير قابلة للإصلاح؛ فأمام (المن والسلوى) كان لعابهم يتحلب لمذاق الثوم والبصل. ومع تظليل الغمام في هجير الصحراء طلبوا أن يروا الله جهراً. وعند المرور على قوم يعكفون على أصنام لهم قفزت مجموعة لتقترح على موسى أن يجعل لهم (إلهاً كما لهم آلهة). وعندما رجع بالألواح ليرسي التشريع في المجتمع كان القوم يعبدون عجلاً جسداً له خوار ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾. وعندما اختار قومه سبعين رجلاً للميقات أخذتهم الرجفة ثم رفع الجبل فوقهم كأنهم عصا

ممدودة خذوا ما آتيناكم بقوة. ولكن لا فائدة من كل المعجزات مع عبيد ضمرت أجهزتهم النفسية وتحولوا إلى أقزام أمام مهمات العمالقة.

وفي النهاية أمام تحدي دخول الأرض المقدسة لم يكن أمام موسى إلا أن يدعو أن يفرق الله بينه وبين القوم الفاسقين ليدفن هذا الجيل المتعفن في رمال الصحراء في تيه يدوم أربعين سنة ويخرج جيل جديد لا يعرف إلا الحرية والشمس، وهو الذي يعول عليه في مشاريع الاقتحام الكبرى. ومن هذا التوقيت الزمني يستنبط (ابن خلدون) قانون عمر الجيل. إن مرض (بني إسرائيل) مرض (إنساني ثقافي) وليس (جيني وراثي) وليس هناك من أمة محصنة ضد الإصابة به. وعندما يعتبر المسلمون أن فرعون هو ببني الثاني وأنه فوق القانون، يصبح القرآن دواء انتهت صلاحيته. والجميل في قصة بني إسرائيل: الوحي والمعجزة والقيادة المبدعة. والمجتمع العربي اليوم يفقد الثلاثة فكيف يمكن أن يخرج من هذا الاستعصاء التاريخي؟ إننا في الواقع نتمتع بميزة فريدة سببها التطور التاريخي فبقدر عمل الأنبياء السابقين على قانون المعجزة بقدر عمل النبي محمد (ص) على سنن تغيير المجتمع داخلياً، فلم يدمر مجتمع قريش بالطوفان أو الزلزال أو الجراد والقمل والضفادع والدم، بل بالمرأنة على أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله. وكان التحول في نصف جيل. ولكن تسارع الزمن انقلب اليوم فبدلاً من خروج بني إسرائيل من الأرض الظالمة يتم اختراق حزام دول التيه والخوف من كل مكان بالإنترنت والمحطات الفضائية والكلمات المنقوشة في الهواء على ثبج البحر الأخضر الإلكتروني. إن التحول هنا كما يقول (ألفين توفلر) في كتابه



صدمة المستقبل : إن الزلزال يحدث والتحول يتم دون نقلة جغرافية .  
والمراهنة اليوم هي على ارتفاع مستوى الوعي عند جيل التيه ليزول  
الخوف . ويروي (مالك بن نبي) عن جيلين من الصينيين اجتمع بهم  
في باريس فأما الأول فكان يلتفت حوله حينما ينطق يرتعش من  
الخوف ، وكان الثاني يتحدث بقوة ويعبر بصراحة . فالفرد عينة من  
المجتمع مثل عينة الدم من الجسم قد تكون سليمة وقد تظهر الإصابة  
بسرطان دم .

## مثلث المواطن والمثقف والسياسي (الحاجة إلى رياضيات اجتماعية جديدة)

في سيمفونية اجتماعية تضم مواطناً أعمى ومثقفاً أخرساً وسياسياً أصماً تصدر ألحان الأوركسترا أقرب إلى حفلة تعذيب . صم بكم عمي فهم لا يعقلون . المواطن اليوم بدون ثقافة ترشده، والمثقف بدون تيار يدعمه، والسياسي بدون جماهير تمحضه الطاعة المخلصة؛ أقرب إلى التطويق من مجموعتين: الأولى تمارس النفاق والتمجيد، تشحن وعيه يومياً أنه ثالث ثلاثة بعد الإسكندر الأكبر وقورش العظيم، كسر مسلمة المستحيلات في المثل العربي يمثل نهاية التاريخ؛ فلن تنجب الأمة نظيراً له، في شهادة مدمرة عن معنى عقم الأمة، والثانية: تتربص به ريب المنون، تشحنها الكراهية تبرمج آلية العنف والعنف المتبادل، بغير أمل في الخروج من نفق الثقافة المسدود، في مجتمع أتقن فن الصمت وممارسة الإضراب العام الخفي في إجازة مفتوحة إلى يوم يبعثون .

المواطن الذي يتلقى وعيه السياسي من مواطن جاهل مثله كالأعمى الذي يقود أعمى . في النهاية يقع الاثنان في الحفرة . المواطن الذي يلقح وعيه من أقنية سرية تنقل إليه المعلومات مشحونة بالهلوسة، تكبر مثل كرة الثلج بالإشاعة، تفرج همه بالنكتة بدون

انفراج، أو تصور حلاً يتقدم ليلغي كل الحلول، أو تزيين له التنظيمات السرية العنيفة انتحاراً، تواجه فيه نملة حمقاء ديناصوراً لاحقاً يهز الأرض بأطنانه الثقيلة، أو في أحسن الأحوال ثور أهوج يتورط في مواجهة مصارع إسباني رشيق، يلوح له بالخرقة الحمراء، مدرب جداً على القتل، يطعنه في المكان المناسب، في الوقت المناسب، في النقطة القاتلة، على مرأى من جمهور مستعد دوماً أن يصفق للذي فاز بالانقلاب، يرّد المثل الشعبي الانتحاري (باللي أخذ أمانا نسيمه عمنا) يحكي حال أمة في غيبوبة عن التاريخ، ينسى مثل الثور من قصص كليلة ودمنة: ألا إني أُكَلْتُ يومَ أُكِلَ الثور الأحمر، ويغيب عنه المعنى القرآني الهائل أن من قتل نفساً استباح الأمة كلها؛ وأي إنسان تنتهك حرمة بـ (صفعة) يعني تلقائياً أن (تصف) الأمة كلها على (الدور) بما فيها الحاكم بانتظار ضربة السيف.

الطاقة لها ثلاث معادلات: الإهمال أو التنظيم أو الانفجار. يصدق هذا على الكهرباء والماء والجنس وقوة الجماهير، فكلها طاقات عمياء تنفجر أو تنظم أو تعطل. الكهرباء تنفجر بانفراج الشحنة العالي بالصواعق، والماء المنهمر يتدفق بالسيل العرم يغرق الأرض بالطوفان، والجنس المحبوس لا يجد أمامه إلا ركوب أمواج الإباحية؛ باستيراد كل بطاقات الأفلام الخليعة، تنقلها الدشوش الزاحفة على سطوح المنازل، تقود إلى استهلاك الطاقة الحيوية ومرض الروح وانفجار خفي لسرطان تفسخ فيه الأخلاق في عفن تقرأه في سيماء الوجوه البلهاء ولحن القول البذيء. وانفلات طاقة الجماهير تقود إلى تدمير البنية التحتية من نماذج أفغانستان والصومال، مُهَدَّدة بالرجوع إلى عصر إنسان نياندرتال قبل 150 ألف سنة. وهو

خطر قد ينزلق فيه أي مجتمع غير محصن ضد أوبئة العنف؛ فالنسيج الحضاري كما يقول المؤرخ ديورانت هش للغاية سريع التمزق، أضعف من نسج العنكبوت، كسبي يتراكم عبر التاريخ، يجب المحافظة عليه بإصرار وحكمة.

الكهرباء كانت مجهولة لا تتبدى إلا في صورة الهول الأعظم الصاعقة وتم حبسها في سلك كمارد لا تستغني عنه الحضارة لحظة يضخ الطاقة في مفاصل الصناعة، والماء كان يسيل على وجه اليابسة منذ أن خلق الله الأرض وما عليها فحُبِس خلف جدار بالسد يمنح الماء باقتصاد ينمي الزرع والضرع، والجنس تم تنظيمه أنثروبولوجياً بالعائلة في أربع وظائف: ممارسة الجنس الحلال بمتعة، وإنجاب الأطفال ل (حفظ النوع) واستمرار الجنس البشري، و(ترقية النوع) من خلال العمل التربوي بنقل كامل التراث الإنساني من مفاهيم وقيم وعادات، وأخيراً تنظيم الأنفاق. وتم تنظيم الجماهير في أحزاب ومؤسسات وحكومات شعبية تربيتهم أن يكونوا مواطنين مسؤولين، وليس رعايا السلطان العظيم يفعل بهم ما يشاء.

تنظيم الطاقة يقود إلى إضاءة المدن وكهرباء السدود والزواج السعيد والأمة الراشدة. وتوعية الجماهير طاقة تقود إلى تمليح المجتمع بالفكر الصحي والكوادر الفنية وبناء المؤسسات (مثلث النهوض بالأمة) لتنتهي بنضج الأمة وولادة آلية نقل السلطة السلمي كما نراه اليوم في العالم، في الوقت الذي يعيشه العالم العربي عصر الممالك البرجية والبحرية ودول طوائف الأندلس قبل كنسهم من خانة التاريخ بغير رجعة، شاهداً على طاقة حيوية خمدت، وحضارة فارقها نبض الحياة.

الجماهير طاقة عمياء بدون ثقافة ترشدها بالوعي السياسي فتتعلم التعبير وتقرأ حقها الدستوري وتستطيع أن تنجز مظاهره سلمية بدون تدمير المرافق العامة .

سياسة بدون قوة الجماهير تشبه منظر الكاريكاتور؛ عندما تختل النسب في خارطة الرسم؛ بين رأس كالكرة العملاقة وأيدي وأقدام مثل عيدان الكبريت . كائن خرافي من هذا النوع بتضخم فلكي للمركزية واحتكار مكثف للقوة بأثقل من نجم نتروني، يمتنع عن الحركة إلا بطريقة واحدة مقلداً حركة كرة القدم . شكل الحركة في هذا الكائن الكروي يخضع للدحرجة، أو ركل أقدام الأحداث في ملعب التاريخ، وعندما تواجه هذه الكتلة المدورة منزلقاً خطيراً تهوي إلى القرار السحيق تحت ثقلها الخاص لا يوقفها إلا قانون العطالة الذاتية في برمجة لا تنتهي للكوارث .

من يدخل المعاصرة يجب أن يودع عصر بيعة الخلفاء العباسيين؛ فلا يمكن بناء أنظمة حديثة بمركزية مكثفة تصل إلى جرعة السمية . النحاس والحديد معادن يحتاجها الجسم، والتيروكسين هورمون يضخ الفعالية في البدن، ولكن تراكم الأول يؤدي إلى تشمع الكبد، وزيادة الثاني يقود إلى رقص الأصابع والنرفزة وخفقان القلب ورشح العرق الدائم المزعج .

جدلية المثقف والسياسي أن الأخير مستباح الدم كههدف ممتاز، في حين أن المثقف يختبئ في الظلمات مثل الزوايا الميتة في مرايا السيارات . لم يكن عبثاً أن لعن القرآن المثقف الأخرس بألفاظ لا تقبل التأويل، عندما يكف عن بث موسيقى الوعي المنعشة، أو يجند كلماته للطاغوت في ممارسة حرفة بدون حرفة؛ فيشتري بآيات الله

ثمنًا قليلاً، أو يمارس السحر فيلتف على الواقع بالكلمات؛ فيكسب القاموس لفظة، ويخسر الواقع حقيقة.

كل الحدائث التي نعيشها اليوم تأسست منذ عصر كوبرنيكوس عندما انقلب التصور في مدارج معرفة الكون والتشريح والجغرافيا؛ فلم يكن هناك شيء أوضح من حركة الشمس بين الغدو والآصال، وتبين أن نظرة الناس إليها والكنيسة في ضلال مبین، لا تزيد عن وهم راكبي القطارات، عندما يظن الجالس أنه متحرك. ولم يكن الانقلاب في السماء فحسب؛ فتم اختراق تابو الجسد عندما وضع (فيزاليوس) مبضعه على جسد الإنسان لينطلق علم التشريح، وتم قلب جغرافية العالم بالدوران حول الأرض، وتحول مركز الحضارة إلى بحر الظلمات خلف أعمدة هرقل، وحبس العرب في زنزانة المتوسط وخسروا المحيط إلى الأبد. كل الظن في عالمنا العربي أن الحكام يفعلون ما يشاؤون، والشعوب لا تزيد عن أقمار تدور حول هذه الشمس العملاقة. نحن أمة مسحورة في حالة غيبوبة اجتماعية، يخيل إليها أن الأصنام فيها حياة والعصي تتسربل بجلود الحيات.

نحن اليوم بحاجة إلى نظرية كوبرنيكوس اجتماعية تقلب هذه المفاهيم؛ نعرف منها أن الأرض تدور حول الشمس، وأن الحاكم قمر يطوف بشمس المجتمع، وأن المرض ينشأ من انهيار جهاز المناعة الداخلي، وأن الغربان تحوم حول جثة البقرة الميتة، وأن البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي حُبِّث لا يخرج إلا نكدًا، وأن السياسي حفيد المثقف، وأن الرياضيات تعطينا فكرة التابع والمتحول والتفاضل والتكامل. نحن بحاجة إلى رياضيات اجتماعية جديدة.

المثقف ملح المجتمع ونوره، ولكن إذا فسد الملح فبماذا يُملح،  
وإذا انطفأ السراج فمن يوقد؟  
حتى ينكشف الغطاء عن عين المواطن الأعمى فيبصر، وحتى  
ينطق المثقف فيرتفع الخرس، وحتى يسمع السياسي فيزال الطرش  
فتفتح منافذ الفهم لتصبح الأمة راشدة من أين نبدأ ومن هو المفتاح  
الرئيسي في معادلة التغيير؟





### III

موت الثقافة وتدجين المثقفين



## المثقف وعلاقات القوة؟

(مثقفو العالم العربي يتوزعون في قسمة ضيزى

بين الوهمي الكاذب والمهاجر المنسحب والحقيقي المقتول)

يعتبر (نعوم تشومسكي) عالم الألسنيات الأمريكي أن المثقف الحقيقي هو من صدع بالحق في وجه القوة. ويعتبر القرآن أن المثقف الذي لا يقوم بتوعية الجماهير وخدمة الفكرة يلعنه الله والملائكة والناس أجمعين. ويرى (علي الوردى) في كتابه وعاظ السلاطين أن: (البلاء يعم حين يحف بالحاكم مرتزقة من رجال الدين فهؤلاء يجعلونه ظل الله في أرضه ويأتون بالملائكة والأنبياء ليؤيدوه في حكمه الخبيث، وبهذا يسمي الحاكم ذنباً في صورة حمل وديع). ويرى (الصادق النيهوم) في كتابه محنة ثقافة مزورة أنه: (منذ عصر سومر وحتى ظهور الإسلام كانت الثقافة سلاحاً مهمته تجهيل الناس أكثر من تثقيفهم. ولهذا السبب سكتت جميع الثقافات عن قضايا الإنسان وفشلت في تطوير مجتمعات حقيقية محررة من عبادة الأصنام الحية والميتة). ويقول المثل الإنجليزي: (إذا أردت أن تعرف حقيقة الإنسان فاعطه مالاً أو سلطة). إن نصف المصيبة هي وجود المواطن الأعمى والمثقف الأخرس والحاكم الأطرش ولكن كل المصيبة هي في التحام مثقف مأجور بعجلة السياسة أو بتعبير القرآن مزيج (الجبث والطاغوت). ومنه أطلق فولتير شعاره (اشنقوا آخر إقطاعي بأمعاء آخر

قسيس) ولم تنهض أوروبا إلا عندما حطمت قوتي الإقطاع والكنيسة لينهض مركب جديد متوازن من رأس المال والعمال وامتدادهما من النقابات والصحافة والأحزاب. ويبقى سر الديمقراطية في بذرة المعارضة، ولا معارضة بدون فكر، ولا استقلالية في التفكير بدون حرية (تعبير). و(خياطو) الفكر العربي يفصلون لنا اليوم ملابس بأصناف: فمنهم من يرى أن التفكير حرام وخطر. ومن يرى أن التفكير لأبأس به في حدود، ويجب أن ينسجم التعبير مع نغم الجوقة، وعلى المفكر أن يقول كلاماً لا يزعج مستيقظاً ولا يوقظ نائماً في حفلة الشيخير العام. في ظل أنظمة حريضة على راحة النيام. وهناك فصيلة (منقرضة) من المفكرين ترى أنه يجب تحريض التفكير وإطلاق التعبير بدون حدود وبدون خوف من المساءلة، لأن وظيفة الدماغ التفكير مثلما كانت وظيفة القلب ضخ الدم والتنفس للرئتين والكلية للأفراغ. وإذا كانت شاشة الكمبيوتر تظهر ما يجول داخل علبة الحديد المغلقة فإن التعبير هو شاشة التفكير. ولم يشتر أحد حتى الآن في العالم كمبيوتراً بدون شاشة (مونيتور). ولكن الفصيلة الأخيرة (الشاذة) ليس لها وزن ولا تشكل تياراً يعتد به وسط جماهير عمياء وسدنة يطلقون البخور يسبحون بحمد الحاكم بالعشي والإبكار. ومن تجاوز الخطوط الحمر صعقه التيار مرتين فاتهم بالخيانة عند السياسيين أو الردة على يد المتشددين. كان الإمام (ابن تيمية) يقول: «إن العلماء يُخطئ بعضهم بعضاً وأهل البدع يُكفّر بعضهم بعضاً». ويجب أن نضيف فقرة جديدة أن أهل السياسة (يُخون بعضهم بعضاً) فيصبح الناس ثلاثة أصناف: من يشير بإصبع الردة إلى أدنى حركة عقلية، وهكذا شنت (محمود طه 75 سنة) في السودان بتهمة الردة، والرجل

لم يرتد ولم تشفع له شيخوخته في النجاة من جبل المشنقة. ومن يتهم بالخيانة لمن اختلف معه في الرأي، وهكذا غصت أقبية المخابرات بمخالفي الرأي من كل صنف. وهكذا علق القوميون والإسلاميون المشانق لخصومهم وقتلوه في البر والبحر والمنفى من أجل الكلمة، وحكم بالإعدام أو أعدم رؤوس التيارات الفكرية؛ فأعدم (أنطون سعادة) في لبنان مؤسس الحزب القومي السوري، وحُكم بالإعدام (ميشيل عفلق) مؤسس حزب البعث، واغتيل (حسن البنا) مؤسس حركة (الأخوان المسلمين) بالرصاص في شارع عام، ومات الشيوعيون في أقبية السجون في كل مكان من أجل أفكارهم. وهناك أخيراً من يرى أن المختلف لا يزيد عن مخطئ ضل طريقه إلى الحقيقة فيمكن أن يستفاد منه بالحوار والجدل بالتالي هي أحسن. فالله سمح للكافر بالبقاء على قيد الحياة وشمسه تشرق على الأبرار والأشرار، وبنى الكون على التعددية (ولذلك خلقهم)، ومنح الخيار أمام الضمير فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فلا يمكن ولا يعقل أن تبنى شوارع سريعة باتجاه واحد، ولم يُعتبر (الكفر) مع (الإكراه) كفراً ولا (الإيمان) مع (الإكراه) إيماناً. وسمح بسب الرسول والنطق بالكفر عند الخوف على الحياة (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان). ولكن ثقافتنا تريد للحديث أن يكون (مونولوجاً) باتجاه واحد، وتريد أن تصادر كل ألوان التعبير التي لا ترضى عنها، ولا بأس من حشو القوائم السوداء بالكتّاب والكتب، والحدود (بالمطلوبين) في عصر العولمة كمن يقاتل بالمكنسة طائرة مقاتلة. ثقافتنا تصر أن ترى الوجود بنظارات ملونة، وعدم السماح للآخر بالوجود، واعتبار المرأة كائناً متخلفاً عقلياً يحتاج للوصاية، والطفل أبله لتلقي (الكف) في التربية

والتوبيخ في مخالفة الأوامر. أو هو (عفريت) بحيث إن (تعذيبه) في المدرسة يسمى (تهذيباً). إنها ثقافة تريد خنق مجاري التعبير، وإغلاق سريان أكسجين الحرية عن كل خلية عصبية تتألق بالتفكير، وإغلاق منافذ الفهم، واعتبار الآخر رجساً وخطراً، وأن عليه أن يحسن الإصغاء ويتقن فن الخرس الجماعي، وأن ثقافتنا كلها صدق وعدل، وأن الخطأ لا يقاربنا والوهم لا يتخللنا، وأن مفاتيح الحقيقة النهائية بأيدينا، فلا يسمح للمواطن أن يفتح فمه إلا عند طبيب الأسنان. ألا ساء ما يحكمون. إنها نكبة ثقافية بكل المعايير. وهذا يفسر سر تعضل الحركة التاريخية ولماذا نفشل في الالتحام بمركبة الفضاء الحضارية. لقد فقدنا التوازن وتهدنا في الفضاء التاريخي ولا نملك أدوات العصر للإقلاع. إن الحل ليس بثورة وليس بانقلاب عسكري فلقد فعلنا الكثير وحصدنا الخراب. ومنذ الانقلاب الأموي تتالت الانقلابات واستفحلت الأمور فالتهمنا السرطان الاجتماعي. كما لن تتحسن الأمور بالاتهام بالردة أو الخيانة ولا بالإكراه، ولا بهذا التشنج الفارغ والعنجهية المموجة التي نجح (الطالبان) في استعراضه أمام العالم كما يفعل المريض النفسي المصاب بمرض (الاستعراء) عندما يكشف سواته وهو يظن أنه يحسن صنعاً. ألا إنهم الأخسرين أعمالاً. المثقفون اليوم في العالم العربي ثلاثة أنواع: المثقف الوهمي أو الكاذب (Pseudo) والمثقف (المهاجر) والمثقف (الحقيقي). والمثقف الوهمي بدوره مركب من ثلاثة أصناف: فيلسوف (السلطة) ومفكر (الحزب الأيديولوجي) ومثقف (البضاعة) المشتري بثمن بخس دراهم معدودة. مثقف السلطة يفلسف وينظر ويقعد لثقافة الاستبداد تحت مقولة (المستبد العادل) كمن يجمع بين الماء والنار والشيء

ونقيضه ووجود الشيء وعدمه. ولكن هكذا كانت مهمة مثقف السلطة في التاريخ فمن مائدة السلطان يأكلون ويمدحه تنشد القصائد العصماء. ومنذ بناء الأهرام وجد مثقف السلطة مكانه تحت مظلة فرعون، وكانت مهمته محصورة تحديداً في إقناع الناس بتشديد أهرامات عملاقة لطاغية ميت وأن يلقوا بناتهم كل عام في النيل، أي إن الثقافة يمكن أن تستخدم سلاحاً مهمته تجهيل الناس أكثر من توعيتهم وهو ما نشاهده اليوم في كثير من المحطات الفضائية التي تحاول ضخ الحياة في أصنام ميتة. أما مثقف الحزب فهو الذي يستولي عليه شعور امتلاك الحقيقة النهائية، وأن الآخرين يجب أن لا يتجمعوا ولا يتحزبوا لأنهم حزب الشيطان كتب الله عليهم أنهم في الأذلين. وأما المثقف (المشترى) فهو الذي يكتم الحقيقة ويلبس الحق بالباطل واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون. ويلحق بالمثقف الكاذب أو الوهمي المثقف (التقدمي) بثقافة أوروبية بنسخة (معربة) حريص على تدمير ثقافته المحلية وحقق وعي المريض العربي بأفكار (قاتلة) منتزعة من وسط غريب، ونقلها بغير شروطها كما يقتل المريض بنقل الدم بزمرة مختلفة على حد تعبير (مالك بن نبي). وهذا يفسر لماذا كانت مجالسنا النيابية مهزلة لا تزيد عن ديكور محنط يضم أناساً أحياء من قبائل شتى. لقد نصحنا (ديكارت) منذ ثلاثة قرون أن لا نهدم بيوت الناس قبل أن نهيء ما هو أفضل فإذا دعيناهم إليها هجروا القديمة بدون تدمير. ولكن ما هي وظيفة المثقف الكاذب أو الوهمي؟ إنها ثلاث: (تبرير) و(تخدير) و(تزييف)، فأى شيء صدر من السلطة يحمل التناقض واللامعقولية يمكن صبه في قوالب تبريرية ممتازة، وأي معاناة من الأمة تتم معالجتها (بتخدير الوعي) العام على

يد أطباء خسروا شرف المهنة. إن حرفة الثقافة خطيرة ومليئة بالتحدي وغير مريحة عموماً؛ فالمفكرون في العادة فقراء مفلسون وهم يتعاملون مع أخطر الكائنات الكلمة التي اخترعها البشر. وتتحول الكلمات أحياناً إلى مشانق والسطور إلى ألغام أرضية تفجر المثقف ومصيره، ويبقى الخيار ذو ثلاث شعب: الثقافة كرسالة ومسؤولية أو الالتفاف على الواقع بالكلمات في عمل أقرب إلى السحر أو الجنون، أو تأجير القلم وممارسة مهنة بغير مهنة. الساحر يغمغم بكلمات هي من قاموس كلماتنا، والمجنون يتكلم بمصطلحاتنا بانفكاك كامل عن الواقع؛ فأن يقول تغديت في المريخ تبقى صحيحة في الغداء ووجود المريخ. والجنون هو فقط في انتقال مائدة الطعام إلى المريخ. إن (فلسفة الباطل) تقوم على التلاعب بالحقائق أو ما يسميه (نعوم تشومسكي) في كتابه ردع الديمقراطية فبركة المعلومات. وهكذا إذا تكلم الرئيس بكلمات عادية وصفت بأنها درر الحكم وأنها أجمل من المعلقات العشر ويجب أن تكتب بماء الذهب ويحفظها الطلاب المنكوبون بوباء ثقافة مزورة عن ظهر قلب. وإذا تم إنجاز ملمترات في البنية التحتية صاحوا إنجازات ثورية وهي بمقياس التقدم نكسة إلى الخلف. وإذا انهارت البنية التحتية من الفساد والرشوة والمحسوبية قال المثقف المزيف إنها دعاية مغرصة. وإذا غصت الشوارع بالعاطلين عن العمل قالوا إنه الاستعمار. وإذا تراجع الاقتصاد وتضخم ألف بالمائة قالوا كل العالم يمر بهذه الأزمة انظروا إلى تركيا أسنا أحسن حالاً. ونحن نعلم أن كوريا الجنوبية قفز دخل الفرد فيها خلال ثلاثين سنة 13 مرة في الوقت الذي تراجعنا إلى الخلف 13 مرة، بحيث أصبح الفرق 26 درجة، وندلف الآن إلى قبو بناية العالم المكون من



خمسين طابقاً حسب العملة. فلينظر كل امرئ إلى نقده كم يساوي من الدولار الأمريكي. ولكن هل هذه الأمور تحدث بالصدفة أم أنه أمر دبر بليل؟ الصنف الثاني من المثقف هو (المهاجر) وهو أيضاً نوعين: مهاجر إلى ربه إلى دول الديمقراطية بالزواج واللجوء السياسي وهي الهجرة الخارجية، وتقابلها هجرة (داخلية) بالانسحاب إلى زاوية في وطن لم يبق وطناً وليس فيه مكان للمواطنة، والتفوق في شرنقة يجتر فيها أفكاره، ضمن جدار سميك من العزلة تحفظ عليه حياته وكرامته في ظروف جفاف صحراء الفكر العربية. أما الصنف الثالث فهو المثقف (الحقيقي) وهذا يتم اغتياله بطريقتين: اغتيال أفكاره في لعبة (الصراع الفكري) التي تحدث عنها (مالك بن نبي) طويلاً في كتابه شروط النهضة وإذا حزب أمره تمت معالجته (بالقتل الاجتماعي) بعزله كأفراد البعير المعبد حتى لا تنتقل عدوى أفكاره إلى الجوار، ولا حرج من حشره في زنزانة إفرادية لمدة 17 سنة. وأحياناً تأتي الأوامر بتصفيته جسدياً على التلفون مع تليفق تهمة مناسبة. قال حاكم في جلسة حميمة لأعوانه: إن هؤلاء المفكرين المشاغبين يجب معالجتهم بحمض ثلاثي المفعول: فإما فرشنا تحت أقدامهم السجاد وأرکبناهم صهوات الجياد العتاق من السيارات الحديثة، وإما أغرقناهم في كنبات وثيرة من الديكور السياسي الميت. الشكل شكل حزب وتنظيم ومؤسسات، ولكن لهم أرجل لا يمشون بها ولهم أيد لا يكتبون بها وأفواه لا ينطقون بها. ومن استعصى دواءه وأعيت حيلته وركب (رأسه) لأجعلته من المسجونين، فإما خرج بعاهة يجر أقدامه أو ترنح كالمجانين أو استقبل شيخوخته مبكراً بدون معاش، ولكن ماذا يفعل المواطن العربي أمام هذا الاستعصاء الحضاري واليأس

المقيم؟ إنه يمارس الانتحار على طريقته. فأما إن كان من أصحاب الصوفية، فإنه ينتحر بالمسبحة على دف الشيخ ورقص الدرايش. وأما من صارع الأوضاع المرعبة مثل أي فدائي على حسابه الخاص، فإنه ينتحر في زنزانة تتعفن فيها عظامه عشرات السنوات، وهناك من ينتحر بالانسحاب الكامل من الواقع المرير إلى الماضي الزاهي فيطلق لحيته ويتوقف في الزمن قبل 1000 سنة ليقراً بعض المتون في إجازة مفتوحة حتى يعود الوعي الغائب من منفاه. إن فكرة العودة إلى زمن عمر بن الخطاب نكتة يضحك لها الفاروق في قبره، لأنها ترى أن إصلاح الأمة يتم بتغيير فرد. ولكن هل كان الماضي وردياً إلى هذا الحد؟ إن من قتل في معركة صفين من الصحابة كانوا أكثر ممن قتل في معركة بدر كما قرر ذلك (ابن كثير) في تاريخه البداية والنهاية. وعندما مات الحجاج ترك ثلاثين ألفاً من المعتقلين لا يقيهم شيء من حمارة القيظ أو صبارة القر وفيهم آلاف من النساء المعتقلات. وإن الدولة العباسية قامت على جثث الأمويين فاجتثتهم بالسيف حتى الرضع، والوصية الأولى لأبي مسلم الخراساني كانت: «وأن من رابك أمره ولو كان بطول شبرين اقتله ولا تبالي». وعندما قامت دولة (الموحدين) بالسيف لم يبقوا من عائلة (المرابطين) المالكة أحداً، وعندما تشفع أحدهم في غلام صغير أجابه شيخ الموحدين: وهل تريد أن يبقى شبل اللبوة. أين المشكلة إذن هل هي في السياسي الحائر أم المثقف الأخرس أم المواطن الخائف أم هي في الكل فهم في فلك واحد من الثقافة يسبحون؟ لا شك في أن هناك علاقة جدلية بين المرض و(المضاعفات) ولكن فك اللغز في هذا المثلث يبدأ من (المثقف) البريء المختبئ، فالسياسي حفيد المثقف وتلميذه البار.

ولكن كيف يمكن لمتقف وحيد معزول منقرض ممنوع من الكلام في مجتمع محرم فيه حرية النشر مهدد بالتكفير أو الخيانة وتمنع فيه السلطة تبادل الأفكار. كيف يمكن لمتقف في هذه الظروف الجهنمية أن يمارس دوره في التوعية؟ هل هذه صورة سوداوية للواقع بين متقف مهاجر ومستأجر ومقتول ومن يعيش في شرنقة أو من كان بنسخة أوروبية معربة؟ إن (سبينوزا) قديماً واجه الموقف نفسه بين المتشددين والسلطة فشق طريقه بعضا موسى فكان كل فرق كالطود العظيم. ويذكر المؤرخ البريطاني (ويلز) في تاريخه معالم تاريخ الإنسانية أن: (الورق حرّر عقل الإنسان) ولم يتقن (الكتابة) أيام الفراعنة وسومر سوى الكهنة حتى علم الأنبياء الجماهير الكلمة في الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى. فهذه الصحف التي كانت تنقش على الطين تهب اليوم في أمواج عاتية من ثبح البحر الأخضر الإلكتروني من الملكوت العلوي. والعلم يحطم الجغرافيا ويكسر الحدود السياسية وتفلت المراقبة من أيدي رجال المخبرات فهم في حسراتهم يتأوهون وبدأوا ينتسبون إلى العصر القديم كما انقرضت الديناصورات من مسرح الحياة وأخلت مكانها للثدييات الصغيرة قبل 65 مليون سنة فهذا هو منطق التاريخ أنه يمضي دوماً نحو الأفضل.

## مراجع وهوامش:

- (1) وعاظ السلاطين - الدكتور علي الوردي - دار كوفان - ص 263.
- (2) (صوت الناس - محنة ثقافة مزورة) - الصادق النيهوم - رياض الريس للكتب والنشر - ص 189.
- (3) وعاظ السلاطين ص 262.
- (4) قصة الفلسفة - ول ديورانت - فصل فولتير مقالة اسحقوا العار.
- (5) ضحى الإسلام أحمد أمين.
- (6) تاريخ ابن كثير البداية والنهاية.
- (7) تاريخ الأندلس، محمد عبد الله عنان.
- (8) الفتاوى، لابن تيمية.
- (9) مجلة 15 & 21 وملابسات شفق محمود طه.
- (10) مالك بن نبي - شروط النهضة والصراع الفكري في البلاد المستعمرة.
- (11) رينه ديكرات - المقالة على المنهج والقواعد لإحكام العقل.
- (12) نعوم تشومسكي - ردع الديمقراطية.
- (13) التهيئة للقرن الواحد والعشرين - باول كينيدي.
- (14) التعذيب في التاريخ - عبد الله قصي.
- (15) سبينوزا، فؤاد ذكريا.
- (16) معالم تاريخ الإنسانية - ه. ج. ويلز المجلد الثالث.

## الهجرة سفينة تغرق؟ (لماذا يهاجر المواطن العربي؟)

قال لي (عزيز) من (أحفير) إن أخاه شحن في قلب باص حتى يصل باريس، فخر مغشياً ووصل نصف ميت! فلما أفاق قال الحمد لله على مدينة النور والحريات!

أما سيدي محمد من (مركز أحد أولاد أزيابر) فقد ركب قوارب الموت إلى بلد ألفونسو السادس عشر، وبقي مختفياً عدة سنوات، حتى منّ الله عليه بالأوراق (كذا؟) فأصبح مقيماً في الاتحاد الأوروبي، يحمد الله على الأمن والرزق والكرامة.

إن قصص النزيف والهروب الكبير من ديار الإسلام إلى الكفر (كذا؟) تراجيديا كاملة، وأنا شخصياً قلدت إبراهيم أبو المهاجرين فقلت؛ إني مهاجر إلى ربي، وهكذا غادرت بلاد البعث إلى يوم البعث.

وأذكر ذلك اليوم المجيد حين دخلت قاعة القسم لأخذ الجنسية! كانت القاضية الكندية تنطق بكلمات واضحة بطيئة تكررهما باللغتين الفرنسية والإنجليزية:

أيها السيدات والسادة نحن نعلم الرحلة الصعبة التي قطعتم، والأوطان الغالية التي فارقتم، طمعاً بمصير أفضل لتستقروا في هذا البلد الرائع.

أيها الناس نحن فخورون بهذا الاستقطاب لثمانين إنسان ينتمون إلى ما يزيد عن ثلاثين جنسية؟

تابعت: دخلتم هذه القاعة مهاجرين، وتخرجون منها مواطنين مثلي لا أتميز عنكم بشيء.

الحق أقول لكم ادخلوا هذا البلد بسلام آمنين، واعتنقوا الدين الذي به تؤمنون، وتنقلوا واعملوا في أي مكان تحبون، وادخلوه وغادروه في اللحظة التي ترغبون، تعلموا قول الحق والعمل به، وفي ذلك لومة لائم لا تخشون.

علموا أولادكم ذلك، وعلى محاربة كل ألوان التمييز العنصري والجنسي كونوا حريصين.

في النهاية ختمت القاضية خطبتها:

والآن قوموا فليسلم بعضكم على بعض؛ فقد أصبحتم بنعمة الله إخوانا. عندها لم يتمالك معظم من في القاعة عن إمساك دموعهم، مبتلة بذكريات مؤلمة من دول الخوف والبطالة والحبوس والفلق. وقل أعوذ برب الفلق.

كان أكثر الباكين شهيق عائلة فلسطينية، ملأت مآقيها الدموع! واحمرت منها الأحداق.

كانت الخطبة تذكر بيعة الصحابة لرسول الله (ص)؟! . . .

هذا الكلام ليس دعاية للهجرة إليها، فكندا في غنى عنها، والناس يهرعون إليها من مشارق الأرض والمغرب، بأشد من جذب المغناطيس لبرادة الحديد بين قطبين جذب وطرده: يأس من وطن لم يبق فيه مكان للمواطنة، وأمل بوضع القدم في أرض الميعاد، يسبحون في تيار أطلنطي على ظهر مركب من ذهب، لينعموا ببلد يجمع بين

سحر الطبيعة والنظام وكل الضمانات، تحتل فيه كندا الرقم واحد في العالم حسب إحصائيات الأمم المتحدة، على الرغم من برده الزمهرير، في درجة حرارة قد تصل شتاء إلى 63 تحت الصفر في يوكوتان ومانيتوبا، وهكذا الحضارة كما نرى لا تعرف الجغرافيا! والتخلف يضرب، حيث كان الأجداد يفخرون بلسان الضاد الذي لا يجمعنا.

لماذا يغادر الكندي بلده ويعود إليه في أي وقت يشاء وبدون تأشيرة؟

إن هذا يعود إلى مرسوم (الحريات والحقوق) التي تسلم باليد كأول وثيقة مع تهنتته على الجنسية، تتضمن حقه أن يغادر بلده كما يحلو له؛ فالوطن بيته، ومتى يسأل الإنسان وممن يأخذ إذناً بمغادرة بيته أو الإيواء إليه؟

أما الحدود العربية فقد تحولت إلى أسوار شاهقة، لسجون كبيرة، تطل منها سحنة موظف عابس كاره لعمله، تحتجز مواطناً مسكيناً ویتيماً وأسيراً؟ لدول تئن تحت العجز المالي، ميزانيتها بيد عصابات من المافيات، تمد يدها إلى آخر قرش من جيب مواطن مفلس!

فمن أصل 22 دولة عربية يتراجع النمو في 17 منها، في وقت يتضاعف فيه السكان مرتين، حسب كتاب فخ العولمة في مطلع ألفية لا مكان فيه للعرب، حسب شهادة المؤرخ الأمريكي (باول كينيدي) في كتابه الاستعداد لدخول القرن الواحد والعشرين . .

إنها أجراس إنذار مفزعة لأناس فقدوا حاسة السمع؟

ما معنى تسرب الكفاءات وهرب رؤوس الأموال ونزيف الأدمغة

وصدور أفضل الكتب والمجلات تطبع بالحرف العربي في مكان لا يوجد فيها ناطق واحد باللسان العربي؟!!

إنها رواية بائسة عن وطن بلا دماغ! فهل يمكن لكائن ممسوخ من هذا النوع أن يعيش في وطن تحول إلى مقبرة، يعس فيها نباش قبور، وهوام تدب في جثث متعفنة؟

يقول المثل القوقازي: من يفقد وطنه يفقد كل شيء، مثل جنين بدون جبل سري ومشيمة ثقافية، يمشي فوق أرض بدون جاذبية، مكباً على وجهه، فقد التوازن الخلاق، في وطن يرجع إلى الخلف، ومواطن يمشي على رأسه بدون أن يشعر بالدوار؟

إن من يمشي على رأسه يفقد رأسه ورجليه معاً!

إنها ورطة من نوع محير فلم يعد الشرق يعجبه، ولا الغرب يسعده، فهو يعيش نفسياً في الأرض التي لا اسم لها؟

ما معنى تدفق المهاجرين العرب إلى كل أصقاع الأرض يشكلون 10% من سكان مونتريال في كندا وهم لا يعلمون؟ يحلمون بجنة أرضية جديدة، بعد أن غادروا وطناً تحول فيه بعضهم لبعض عدو، بلجوء جوع إلى السويد وألمانيا، أو استعداد الفتاة للقفز مع أي رجل إلى المجهول، هرباً من بلاد الجوع والبطالة، وجمهوريات الخوف والمخابرات، أو شراء جوازات سفر من الدومينيكان والأرجنتين، بعشرات الآلاف من الدولارات بدون تواجد، في تحصيل جنسيات لعائلاتهم يأمنون بها على أنفسهم في الشرق المنكود؛ لعلها تنفع يوماً إذا زلزلت الأرض زلزالها؟

لو فتحت السفارة الكندية أبوابها لهجرة مفتوحة بدون شروط في أي عاصمة عربية لزحف إليها كل إنسان بين 16 وال 60 عاماً، كأنهم



جراد منتشر مهطعين إلى الداع يقولون هذه فرصة لا تفوت؟ في فرار من سفينة تهوي في رحلة موجعة إلى قاع المحيط بأسرع من غرق التيتانيك؟

المواطن العربي لا يتمتع اليوم بأي حصانة، بما فيها الحاكم على رأس الهرم الاجتماعي، فلا ضمانة لأي إنسان أو شيء في أي مكان أو زمان، بدون أمل في معرفة الاتجاهات، معرضاً لهجوم أي حيوان ضار، في غابة تتشابك فيها الأكواع، تحكمه عائلات إقطاعية مسلحة، في وطن تفوح منه رائحة القلّة والذلة والفوضى، في إحساس بالدوار، ويتنفس فيه الإنسان مع جزيئات الهواء جزيئات رجال الأمن، عن اليمين والشمال بعيد، يحصون دبيب كل نملة، وطنين كل نحلة، ولا تأخذهم سنة ولا نوم!

مواطن بلا وطن، ليس عنده قوت يومه، غير آمنٍ على عياله، لا يعرف ماذا يحمل له المستقبل الأسود من هموم، خارج إحدائيات التاريخ والجغرافيا، يعيش ثقافة ميتة ودعت نبض الحياة، يعيش كي لا يعيش، لا يمر يوم إلا والذي بعده شر منه، في رحلة تردّ لا تعرف التوقف، في حجم مشاكل أكبر من التطويق فوق مستوى من بيده القرار والحل، يتخرج فيه الطالب الجامعي بدون أمل في مرتب يوفر له سقفاً يظله، أو يمنحه إمكانية بناء عائلة ينجب فيها أطفالاً سعداء يثقون بأنفسهم وبالحياة، في مجتمع يمشي باتجاه كارثة محققة!

لقد أصبح وضعنا مهزلةً للعالمين، في حجم النكته بدون أن يضحك أحد. أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون؟

لقد عاش جيلنا كلاً من الوهم القومي الثوري وحمّى الحركات

الإسلامية وانتهى إلى إفلاس الاثنين، في مؤشرات حادة أن حالة المريض تزداد سوءاً واختلاطاً، بدون دلائل انفراج في الأزمة، لينشأ جيل (الصدمة) أخطر ما فيه شعوره أن العلم لا قيمة له، ولا يدفع مسغبة الجوع، في وقت تدفع فيه أرحام الجامعات شباباً عاطلين إلى شوارع مكتظة بالفقراء.

ليس غريباً أن ينشأ تيار أشد من الممكنة الكهربائية، يشفط كل العقول والأموال، في تيار أطلسي أقوى من ظاهرة النينو، باتجاه ديمقراطيات تضخ أكسجين الحياة، وتوديع ثقافة استبداد، تعيش عصر بيعة الخليفة العباسي، الواثق بالله، أن يركب رقبة شعب ولد أخرساً يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً؟

من يستطيع الهرب من الأوضاع يبحث عن الخلاص الفردي، بين ركاب سفينة يتخاطفون أطواق النجاة، يلقي أحدهم بنفسه في اليم وهو مليم، فإن لم يهلك هو ماتت ذراريه في بطن الحوت الرأسمالي ما لم يكن من قوم يونس، أو غرق في لجج ثقافة غربية تضرب سفينتنا الغارقة بموج كالجبال.

يبدو أنه ليس أماننا للنجاة في طوفان الحداثة إلا الانطلاق بمشروع بناء سفينة نوح من الفكر جديدة؟ ولكن المشكلة ببساطة أن نوح لا يعيش بين ظهرائنا؟ ونواجه مشاكلنا بخطب وأدعية من العصر المملوكي ودول الطوائف والموحدين، وعقولنا مبرمجة في متاهات فئران التجربة في قبضة مسلمات لا فكاك منها، نحتاج إلى ولادة جديدة من رحم امرأة عجوز عقيم في انتظار استنساخ أسطوري.

لقد تحول الوطن في أحسن أحواله في عين المهاجر إلى وقت قصير للاستجمام، للتمتع بطقس جميل لا فضل فيه للجهد البشري،

واستعادة ذكريات الطفولة، يعيش الفرد أجمل لحظاته في الطائرة وهو عائد إلى الوطن وعند الخروج منه، عندما يكتشف بمرارة أنه لا يستحق أكثر من إجازة، فلقد كان في ما سبق وطناً، قد يتمنى أن يدفن فيه ولكن لا أن يعيش فيه بحال؟

هذا لمن استطاع الفرار، أما من كتب عليه البلاء والشقاء؛ فحكمه حكم الطاعون إذا دخل بلد؛ فلا يخرج منه إلا جثة إلى الآخرة!

اجتمعت بعائلة مهاجرة كندية أنفقت عليهما حكومتها بسخاء، ورجعا بأعظم شهادة جامعية من باريس، فلما رجعا إلى الوطن كانت المفاجأة أكبر من الصاعقة؛ فغادرا البلد بعد عدة سنوات في حالة ذهول، قد تبخرت من رؤوسهم الأحلام الوردية، وتركوا خلفهما الشهادات الكبيرة للوطن؛ فهما يتكسبان عيشهما اليوم في مدينة مونتريال في محل لبيع ملابس الأطفال، في شهادة صاعقة عن مصير العلم في الوطن العربي الكبير.

## أسرار الانقلاب التاريخي (آثار رحلة كولومبوس)

قبل ما يزيد عن خمسة قرون وفي أيام خريف عام 1492 للميلاد، رست ثلاث سفن إسبانية تحمل أسماء (نينيا) و(سانتا ماريا) و(بينتا) بأمره البحار الإيطالي كولومبوس على شاطئ أحد جزر البهاما، في أكبر غلط جغرافي عرفه تاريخ العلم، وفي أكبر كشف ولدته الصدفة المحض، ليقلب تاريخ الشعوب الأوروبية الفقيرة الجاهلة، فالأرض التي كانت ثلاث قارات تحولت إلى سبعة، مضيضة أربع قارات غنية إلى حساب الغرب، ومعها آلاف الجزر الغنية التي لا يحصيها العدد، في أكبر انعطاف وخسارة تاريخية للعالم الإسلامي.

يكاد الإنسان لا يصدق عندما يقرأ مغامرة البحار الإيطالي كريستوفرو كولومبو (Cristoforo Colombo) الذي سماه الإسبان الدون كريستوبال كولون (Don Cristobal Colon) والذي اشتهر لاحقاً باللغة الإنجليزية العالمية تحت اسم كريستوف كولومبوس (Christoph Columbus)<sup>(1)</sup> الذي ظن بوصوله إلى جزر البحر

---

(1) مجلة الشبيجل الألمانية (Der Spiegel) عدد 1 - عام 1992 م ص 100 وقد نشرت يومها بحثاً مزللاً تحت عنوان نهب العالم الجديد (Der Raub Der Neuen Welt) في ست حلقات لكشف الآثار العميقة والبعيدة لرحلة كريستوف كولومبوس، ولفظة (الدون) تعني بالإسبانية السيد العظيم =

الكاريببي أنه قد وطأ الهند، في لحظة تاريخية حاسمة، وبقي تحت تأثير هذا الخطأ الجغرافي الفادح حتى مماته عام 1506 م، وهو في الواقع اكتشف ما هو أهم من الهند، اكتشف عالماً جديداً لم يكن الهنود الذين اكتشفهم فيه هنوداً، بل كانوا السكان الأصليين لقاراتٍ جديدة غنية حظي بها الغرب في ضربة حظ تاريخية بين غفلة العالم الإسلامي عن مسار التاريخ وضعف السكان الأصليين. والهنود الحمر الذين أبادهم المستوطنون الأوروبيون بالبنادق والمدافع والحرب البكتريولوجية لم يكونوا هنوداً من قريب أو بعيد، في صدفة تاريخية عجيبة لم يحلم بها أحد. ولكن التاريخ حقق عندها انعطافاً لمصلحة الغرب ضد العالم الإسلامي. الشيء الذي توصل إليه البحار كولومبوس لم يفتن إلى قيمته لا المكتشف نفسه ولا الجيل الذي قام بهذه المغامرة الكبرى. ونحن اليوم نستطيع أن نفهم الحدث أكثر بكثير من مكتشفه الأساس كولومبوس نفسه، بعد الإمساك بالكرونولوجيا التاريخية.

لماذا يحدث ما يجب ألا يحدث؟

يطرح الكاتب (النيهوم) تساؤلاً حزيناً على هذه الصورة: «وطننا العربي يقع في خانة تضم أكثر الشعوب عجزاً عن ملاحقة مسيرة الحضارة، وهو موقع لا مبرر للشكوى منه، سوى أن الحضارة بأسرها ولدت في وطننا، وأن السفن والأسلحة التي ارتاد بها الأوروبيون

---

= (وكريستوبال) معنى حامل المسيح و(كولون) معنى المستعمر أو المستوطن، وهكذا فاسمه أصبح يرمز إلى حمل رسالة المسيح ونشره من خلال الاستعمار والاستيطان في العالم الجديد. ومن هنا جاءت لفظة الكولونياتية بمعنى الاستعمار من كلمة كولون.

قارات العالم الجديد كانت في أيدينا قبل أن يعرفها الأوروبيون بثلاثة قرون على الأقل، فلماذا يحدث الذي لا يحدث وكيف يمشي وطن وناسه إلى الوراء؟<sup>(2)</sup>.

وعندما يحاول أن يفهم البانوراما التاريخية أو السياق الكوني ويحاول الإمساك بالكرونولوجيا التاريخية<sup>(3)</sup> يصف أبعاد الانقلاب التاريخي بكلمات قليلة ومعاني حزينة ومزلزلة: في العالم القديم الذي شهد غارة الصليبيين على الوطن العربي منذ ألف سنة تقريباً كان العرب هم أصحاب الجيوش النظامية المتطورة، وكان موقعهم على أبواب آسيا وأفريقيا يضع بين أيديهم المفاتيح الذهبية للتجارة بين القارات، ويضمن لهم معركة سهلة ضد عصابات صليبية مفلسة، يقودها رجال أميون من طراز ريتشارد قلب الأسد.

ويقرر الكاتب بعد ذلك تحول المسار التاريخي لميزان الغرب على الصورة الآتية: «في العالم الجديد الذي نعرفه الآن يملك الصليبيون المفلسون أنفسهم وهم شعوب غرب أوروبا جميع مفاتيح التجارة الدولية بين القارات ويملكون أيضاً ثلاثة أخماس الكرة الأرضية، وأربعة أنهار من كل ستة أنهار، وخمسة فدادين، من كل سبعة فدادين صالحة للزراعة، وثمانية قروش، من كل تسعة قروش ونصف».

ولكن ما هو السر خلف هذا الانقلاب الصاعق؟

(2) صوت الناس - محنة ثقافة مزورة - الصادق النهوم - رياض الريس للكتب والنشر - ص 10.

(3) كلمة الكرونولوجيا (Chronology) تعني تسلسل الأحداث وفق تتابع زمني تاريخي.

يجيبنا الكاتب بقوله: «سبب هذا الانقلاب الصاعق أن شعوب أوروبا الغربية بحكم موقعها على المحيط الأطلسي في عصر تميز بتطوير الملاحة المحيطة على أيدي العرب، قد ارتادت فجأة ثلاث قارات ومئات الجزر المأهولة بشعوب بسيطة السلاح والتنظيم، فأبادت سكانها بالبنادق، وفتحتها لاستيطان ملايين من مواطنيها، الذين تولت الشركات أمر تهجيرهم، وتمويل مشروعاتهم في العالم الجديد، منذ مطلع الغارة خلال القرن السادس عشر»<sup>(4)</sup>.

### فكرة الكرونولوجيا التاريخية

عندما نرى كولومبوس مع تسعين بحاراً يضعون أقدامهم في جزر البهاما من جزر البحر الكاريبي، وهم يظنون أنهم وصلوا إلى الشرق من خلال الإبحار غرباً، على أساس كروية الأرض، ويسمون أهل الجزر الطيبين الذين يحسنون استقبالهم ويرحبون بهم بالهنود، تبقى هذه (اللقطة) من الكرونولوجيا التاريخية في إطار الرحلات الممتعة والمغامرات الشيقة، كما نرى أفلام الرحالة والقراصنة، ولكن الفيلم يكون قد بدأ من هذه اللحظة، فإذا أمسك أحدنا باللقطات التاريخية بدون ربط الواحدة بالأخرى، فإنه لا يفهم السياق التاريخي ولا يضع يده على السر المصون، القريب المحجوب عن العيون، والفيلم نفهمه عادةً بسبب وصل اللقطات ببعض وإدخال الحركة عليه بالسرعة، فالمنظر الواحد يبقى جامداً، ولكن تتابع اللقطات والمناظر بسرعة معينة، يدخل عليه الحياة، ويعطينا بالتالي إدراك المغزى الخفي خلف

(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 9.

هذه الأحداث التي تتالى، من حصيلة مجموعات جامدة من اللقطات، فهناك سببية تربط بين الأحداث.

### جدلية السبب والنتيجة

من هنا نعلم أن كل حدث هو نتيجة لما قبله وهو في الوقت نفسه سبب لما سيأتي بعده، ويصدق هذا على الأحداث الرهيبة التي نشاهدها حالياً في راوندا وبروندي وزائير من زحف الآلاف الهاربة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فقال لهم الله موتوا، في حرب أهلية بئيسة لا تشذ عن صرامة القانون الاجتماعي الذي أوردناه في جدلية الأحداث، ضمن سياق سنة اجتماعية. فما يحدث الآن بين قبائل الهوتو والتوتسي لم يأت من فراغ، بل لابد من رؤية السياق التاريخي وتبادل آثار الفعل ورد الفعل المدمرين، من تبادل جرعات الحقد والانتقام المتبادل، وتوزيع أدوار القوة والمذابح المتواترة. كذلك الحال في البوسنة فلا يمكن رؤية الأحداث في ضوء مذابح عام 1992 م، بل العودة إلى معركة أمسل فيلد (Amsfeld) عام 1389 م التي خلّدها العثمانيون في تاريخهم باسم معركة (قوص أوه) قبل ستمائة عام من ذلك التاريخ، بل العودة إلى التقسيم التاريخي، الذي قام به الإمبراطور ثيودسيوس عام 389 م، حينما قطع الإمبراطورية إلى حصتين بين ولديه أركاديوس وهونوريوس، ولم تتحد الإمبراطورية بعد ذلك قط، حذاء صدع تاريخي في المنطقة التي نسميها اليوم البلقان، دعى إلى حدوث شرخ ديني موازي للشرخ السياسي.

### الخلفية السياسية للصراع المذهبي

هذا الصراع يفتح أذهاننا لفهم أرضية الصراع المذهبي، فيعطي



فكرة عجيبة خفية عن نشوء الفرق الدينية، التي تلعب السياسة دوراً كبيراً في تشكيلها، فليست الأديان تفجر الحروب، بل النزاعات هي التي ترتدي ثوب الدين فتولد الصراعات، وفي البلقان تشكل عند هذا (الصدع) بالذات الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية، تحت خلاف مذهبي يكاد الإنسان لا يصدقه<sup>(5)</sup>، فالكروات تابعون لكنيسة روما، والصرب تابعون لكنيسة موسكو، التي كانت من قبل في القسطنطينية، قبل تحولها إلى (استامبول) المحرفة من كلمة إسلام بول أو إسلام بوليس (Islam Polis) أي مدينة الإسلام، كما كانت من قبل (قسطنطين بوليس) أي مدينة الملك قسطنطين، الذي اعتنق المسيحية عام 325 م وأنشأها لتكون منارة إشعاع للديانة المسيحية في الشرق، فحولها محمد الفاتح عام 1453 م إلى اسمها الجديد، بعد أن حافظت على كيائها الثقافي أكثر من ألف عام، خلافاً لروما التي دُمرت على يد قبائل الهون مبكراً عام 425 م، كما حوّل محمد الفاتح كنيستها الشهيرة (أيا صوفيا) إلى مسجد إسلامي في جوٍ من عدم التسامح، الذي كان يسود العالم وقتها، ونسي فيه المسلمون الروح العمرية في تعامله مع كنيسة القيامة، عندما رفض الصلاة داخلها، حتى لا يتخذها المسلمون ذريعة فيحولوها إلى مسجد، وبذلك حافظت كنيسة القيامة على نفسها حتى اليوم، شاهداً على روح التسامح والتعددية في الإسلام.

(5) يتعرض الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله في كتابه محاضرات في النصرانية إلى جوهر الخلاف بين الكنيستين عند نقطة انبثاق الروح القدس، وهو خلاف ربما لو سألت اليوم أتباع كلا الكنيستين لما عرفوه، فتقول كلا الكنيستين بالتثليث، ولكنهما اختلفا عند نقطة انبثاق الروح القدس، فقالت الواحدة بانبثاقه من الآب والابن، وقالت الثانية بانبثاقه فقط من الآب.

## الإبحار باتجاه المجهول عبر بحر الظلمات

هذا الانهيار الذي حدث للجناح الشرقي للعالم الغربي، أي انهيار بقايا الدولة البيزنطية عَجَلُ بأمرين، فسقطت غرناطة بعد 39 سنة من سقوط القسطنطينية عام 1492 م، وشعر الغرب بالاختناق وانقطاع السبل أمامه إلى الشرق، بعد أن تحول البحر المتوسط إلى بحيرة عثمانية، تسيطر عليه دولة عظمى بمقاييس ذلك الوقت، وانقطعت الطرق البرية التي أصبحت تحت رحمة الجند العثمانيين، وانقلب الشرق الأوسط حتى تونس إلى ولايات عثمانية، وتكفل القرصان (خير الدين بربروسا) ومساعدته (تورغوت) ببقية موجة الرعب في مفاصل الأوروبيين، وأخذت أوروبا تفكر جدياً الآن باجتياح جديد من طراز معركة بلاط الشهداء (بواتيه) بعد أن قفزت قوة إسلامية فية جديدة إلى الساحة العالمية، عندما زحف العثمانيون ثلاث مرات إلى قلب أوروبا كانت ذروتها حملة الخريف من عام 1683 م قبل 313 سنة من الآن. لم يبق أمام الغرب إلا أن يستند بظهوره بكل قوة إلى مخرج من هذه الأزمة الحضارية ولو بدخول بحار الشياطين وظلماته، فاخترقت أوروبا بحر الظلمات مع كل إدراكها أنها تبصر إلى المجهول، إلى بحيرات تغلي ناراً، ومنحدرات تخطف السفن، وسيكلوبات (كائنات ماردة) بعين واحدة تفترس البشر.

## الآثار الخطيرة الناجمة عن سقوط القسطنطينية

الضغط العثماني إذاً من الشرق الذي بدأ باجتياح الضفة الشرقية لأوروبا وتدمير الصرب في معركة أمسل فيلد ومقتل ملكهم لازار الذي يحتفلون بذكراه كل عام حتى اليوم، ومروراً بسقوط القسطنطينية الذي أحدث دويماً مربعاً ارتجفت له مفاصل الغرب، وتابع الزحف

العثماني مسيرته إلى البقان، فترتب على الامتداد وسقوط القسطنطينية بوجه خاص أمورٌ في غاية الأهمية:

**الأول:** تحولت القوة العثمانية إلى قوة عالمية مزدوجة الامتداد (أوروبية آسيوية) وبدأت في الزحف باتجاه البلقان الذي سيسقط برمته بعد قليل في أيديهم ولمدة قرون.

**الثاني:** تحول حس الدفاع في دول أوروبا المتنازعة بعدها للدفاع عن الميراث المسيحي كوظيفة مركزية، خاصةً بعد امتداد يد العثمانيين ثلاث مرات لحصار قلب أوروبا (فيينا)، انتهت الحملة الثالثة عام 1683 م على ما ذكرنا، عندما كان إسحق نيوتن يكتشف قانون الجاذبية ويكتب كتابه الموسوم المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية.

**الثالث:** انتقلت الزعامة الدينية للكنيسة (الأرثوذكسية) إلى مركز آخر استمر حتى هذه الساعة وهو (موسكو)، وهو ما يفسر التعاطف التاريخي بين الصرب والروس باعتبار انتمائهما المشترك لكنيسة واحدة

**الرابع:** هرب مجموعة كبيرة من العلماء إلى إيطاليا، مما حرك الجو الفكري هناك، وأسهم في قيام النهضة العقلية في أوروبا، فمن إيطاليا بدأت النسبمات الأولى لحركة التنوير، كما كانت في الوقت نفسه خسارة للدولة العثمانية التي كانت قوة عسكرية ضخمة، ولكنها لم تكن ذات تألق عقلي وفكري متميز.

### أخطر ما حدث على الإطلاق

**الخامس:** ولعله أخطر ما حدث على الإطلاق، فلقد خسرت أوروبا مع سقوط بيزنطة بوابة الدخول إلى البحر الأسود، وهذا يعني بكلمة أخرى حرمانها من الاتصال بالهند، فعمدت إلى اكتشاف

طرق جديدة بعد أن قطع العثمانيون الطريق عليها، وأصبحت في وضعية المحاصر وظهره إلى جدار الأطلنطي (بحر الظلمات)، وليس هناك من تقنيات لاجتياز المحيطات، فكانت المحرض لاكتشاف الهند من الغرب وليس من الشرق، كما يلف الإنسان لحك أذنه اليمنى باليد اليسرى، فكانت هذه الأزمة الأوروبية نعمة عليها كما ظهر بعد ذلك، لأن المسلمين سُجنوا خلف مضيق جبل طارق، في زنزانة البحر المتوسط، حين قفز الغرب لامتلاك أربعة قارات جديدة عبر المحيطات، ولتصب كل كنوز الأرض في خزائهم، وليصبحوا مركز الثراء العالمي، يهرع إليهم كل من في جيبه قرش للادخار لديهم! وما يتبعه من قيام الطبقة الوسطى والثورة الصناعية وبرزور البورجوازية وقيام المؤسسات الدستورية وولادة الديموقراطية، فكان انقلاباً مريعاً محزناً، انكسر معه التوازن التاريخي بالكامل بيننا وبين الغرب.

السادس: ارتبط سقوط القسطنطينية مع سقوط غرناطة كضربة انتقامية، فسقوط الأولى كان عام 1453 م والثانية 1492 م بفارق 39 سنة، ولكن التاريخ ينقل إلينا خبراً مثيراً آخر مفاده أن شهر يناير الذي سقطت فيه غرناطة كان يدرن بالموافقة على مشروع كولومبوس لعبور بحر الظلمات في رحلة إلى المجهول، بحثاً عن الذهب لتمويل حملات صليبية جديدة، ووصولاً إلى الشرق من خلال الإبحار عن طريق الغرب، في أعجب رحلة من نوعها لا يقارنها اليوم إلا رحلات ارتياد الفضاء لكشف المريخ.

### خسارة المحيط وآثارها المأساوية

الخطوة الجريئة التي قام بها الدون كريستوبال كولون والتي

تحتاج إلى مزيد من التحليل، في كيفية كسره حاجز الخوف من اجتياز بحر الظلمات، التي كانت الملكة الإسبانية نفسها مقتنعة به عندما قالت له: إن الناس يقولون إنه بحر لا يمكن ارتياده، فسكت وقال: ماذا كان يقول العرب عن غرناطة؟ أجابت الملكة بصوت خافت: إن غرناطة كالنسر في الجو لا تنال. ولكن التاريخ يخبرنا أن غرناطة سقطت من الجو جريحة تحت الحراب الإسبانية، وسلم عبد الله الصغير مفاتيحها في ذل ما بعده ذل، ليخلد التاريخ مكان بكاءه (مكان الحسرة) (La Plaza de Fuerza) وهو يطل على مدينته التي ودعها إلى الأبد، كما يخبرنا التاريخ أن بحر الظلمات أخذ اسم المحيط الأطلنطي (Atlantic).

### نقطتا التحجر ونتائجهما

في الواقع لم يخسر العرب شبه الجزيرة الإيبيرية، بل خسروا المحيط واللعبة الكونية برمتها، فعندما كانت معارك الاسترداد الإسبانية ماضية في زخمها، تبتلع الأندلس قطعة بعد أن تهضم التي قبلها، كان صلاح الدين الأيوبي يهزم الصليبيين في معركة حطين عام 1187 م، ليسترد القدس في العام الذي بعده، يظن أن دورة الحروب الصليبية قد انتهت وكانت قد بدأت فعلاً، هكذا يخبرنا التاريخ في ثلاث انكسارات مشؤومة، في سقوط طليطلة وإشبيلية وغرناطة (بين الأعوام 1085 م - 1248 م - 1492 م)، ففي عام 1085 ميلادية كانت الحروب الصليبية قد بدأت في الجناح الغربي قبل أن تبدأ في الجناح الشرقي بأربعة عشر عاماً. في هذا العام سقطت مدينة طليطلة، العاصمة التقليدية لشبه الجزيرة الإيبيرية، لتبدأ الحروب الصليبية في المشرق

بكل ضراوة عام 1099 م، في أعنف حرب عرفها الجنس البشري، وأشدّها ضراوة، وأغزرها دمًا، وأطولها زمنًا فقد استمرت 171 عاماً (من عام 1099 حتى 1270 م)، وفي عام 1086 م نجح المرابطون في إيقاف ألفونسو السادس في معركة الزلاقة في نهاية القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد (1086 م الموافق 479 للهجرة) وفرملة سقوط الأندلس أربعة قرون لاحقة، ولكن منتصف القرن الثالث عشر للميلاد يظهر انهياراً مأساوياً للعالم الإسلامي في جناحيه الشرقي والغربي، سجل ظاهرتيه الكاتب الفرنسي لوي غارديه، في ظاهرة لم نتعاف من آثارها، فنحن ندفع ثمنها مضاعفاً حتى اليوم في الصومال وأفغانستان.

يقول لوي غارديه: «ليسمح لنا بنوع من التنميط التاريخي. إننا نزعم أن هناك نقطتي تحجر وتجمد تتحكمان بهذه الحركة الانكفائية والدفاعية، حيث يتحصن العهد الحديث للعالم الإسلامي، هاتان النقطتان تقعان معاً في القرن الثالث عشر الميلادي، وهما: من جهة الاستيلاء على إشبيلية سنة 1248 م من قبل الجيوش المسيحية الإسبانية، ومن جهة ثانية الاستيلاء على بغداد ونهبها من قبل جيوش المغول بأمره البوذي هولوكو سنة 1258 م، ولا يعني هذا أن القرن الثالث عشر الميلادي - السابع الهجري هو عهد الانحطاط، ولكن هاتين الهزيمتين فتحتا بنوع من الأنواع في تاريخ الشعوب الإسلامية ثغرة ماتزال تتفاقم»<sup>(6)</sup>.

(6) الإسلام بين الأمم والغد - محمد أركون ولوي غاردي - ترجمة علي المقلد - دار السوبر - ص 77.

## الانهيار بدأ قبل ستة قرون

إن هذه الثغرة التي اتسعت على الراقع، أدركها ابن خلدون في حس حضاري متميز، فكتب في مقدمته عام 1408 م، وهو يراقب سحب الظلام التاريخية القادمة من الأفق البعيد: «هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر؛ فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن، وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبه ومقدار عمرانه، وكأنا نادى لسان الكون في العالم بالخموم والانقباض فبادر بالإجابة، والله وارث الأرض ومن عليها»، ليخلص إلى نتيجة منطقية في سبب عكوفه على كتابة هذه الظاهرة التاريخية، وهذا الانقلاب الكوني الذي يستدعي التسجيل بشكل ملح: «وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة، وعالم محدث، فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها»<sup>(7)</sup>.

(7) المقدمة لابن خلدون، ص 33.

## الأدوات المعرفية التاريخية

حتى تفهم أحداث التاريخ لابد لها من الربط الكرونولوجي وإدخال عنصر الحركة فيها، مستخدمين آليات التفكيك والتحليل التاريخية التي لا تعتمد منهج النقل فقط، واستخدام الأدوات المعرفية التاريخية، حتى يمكن الوصول أو بكلمة أدق الاقتراب من سر التاريخ المغيب ضمن أحداث حفظت في أوراق وملفات أكلها البلى، وتلعب السينما دوراً حيوياً في الوصول فهم رائع من هذا النوع.

وعندما يستعرض الكاتب النيهوم خسارة شبه الجزيرة الإيبيرية فإنه يحلل آثارها على الشكل الآتي: «إن العرب لم يخسروا إسبانيا كما يقال في كتب التاريخ، بل خسروا المحيط كله، ومعه الأمريكيتين وأستراليا ونيوزيلندا وآلاف الجزر وجميع ممرات التجارة الدولية، وقد حشرتهم مدافع الإسبان وراء مضيق جبل طارق؛ لكي يتفرجوا على التاريخ من بعيد، ويروا الفلاحين الأوروبيين يبشرون بسفن عربية وخرائط عربية إلى عصر آخر في عالم جديد، وعندما نزلت فرقة الخيالة الإسبانية في المكسيك، وتقدم المدعو (كورتيز) لإبادة الهنود أكثر من سواه، كان على التاريخ أن يسجل بهدوء، أن الحصان العربي قد وصل إلى أمريكا، لكن فارسه العربي لم يصل!؟

خلال الثلاثمائة سنة التالية كان العرب يقضون عقوبة الحبس وراء مضيق جبل طارق، مثل مارد مسحور في قمقم، وكان البحر المتوسط قد أصبح زنزانة للمسلمين، ولفظ المحيط موجة رأسمالية عاتية ما لبثت أن اجتاحت العالم بقاراته السبع، ووضعها جميعاً تحت إدارة رأسمالية واحدة، لأول مرة في تاريخ العالم والإدارة معاً...» ليصل في النهاية إلى رسم صورة العالم في العصر الفيكتوري «الملكة



فيكتوريا تتلقى سنة 1865 م تقريراً عن وضع الإمبراطورية يقول لها مباحياً: سهول روسيا وأمريكا الشمالية هي حقول قمحنا. شيكاغو وأوديسا هي مطاحن غلالنا. كندا والبلطيق غابات أخشابنا. أستراليا مراعي خرافنا. أودية أمريكا الغربية مراعي أبقارنا. مناجم البيرو تغدق علينا الفضة. أستراليا وجنوب أفريقيا مناجم لذهبنا. الهندوس والصينيون يزرعون لنا الشاي والقهوة. الأنديز تزرع لنا السكر. إسبانيا وفرنسا عرائش أعنابنا. بلدان البحر المتوسط حدائق ثمارنا. أما القطن الذي زرعه في جنوب الولايات المتحدة فقد امتد الآن إلى جميع مناطق الأرض الدافئة»<sup>(8)</sup>.

المهمة التي تواجهنا هي فهم أحداث التاريخ بشكل ديناميكي جدلي، ومن خلال رؤية فلسفية عميقة لآليات الصراع الإنساني، فالأحداث لا تولد من فراغ ولا تتشكل عبثاً وبدون خلفيات من الإنجاز التاريخي.

### فلسفة ولادة الحدث التاريخي

حتى يمكن فهم الأحداث التاريخية لابد من القيام بإجراء تحليل تاريخي، لإدراك العوامل الخفية والعميقة التي قادت لتشكيل هذا الحدث. فكل حدث هو في علاقة جدلية في عدة مستويات. كونه سبباً ونتيجة في الوقت نفسه، نتيجة لما قبله، وسبباً لما سيأتي بعده، وكونه في وضع (مجموعة) من العناصر (المركبة) بين تفاعل العناصر الداخلية والخارجية، وليس ولادة لحدثٍ مفردٍ يتيم، وكونه في حالة

(8) المصدر السابق نفسه للكاتب الليبي الصادق النهوم.

(ديناميكية) فحتى يولد ويبرز أي حدث إلى العيان، فلا بد من (تفاعل) مجموعة من العناصر بكم وكيف معينين، وكونه يولد بشكل أساسي بعد أن مهدت العناصر الداخلية لتشكيله.

### الارتطام الحضاري الحزين

عندما وضع كولومبوس أقدامه في جزيرة إسبانيولا (جمهورية هايتي والدومينيكان حالياً)، لم يدر في خلدِه قطُّ مأساة الارتطام المروع الذي سيحدث بعد هذا اللقاء، ويقود إلى إفناء مائة وثمانين مليون من البشر، في كارثة إنسانية لم يكشف اللثام عنها إلى اليوم، في موت ثمانين مليون من أبناء القارتين الأمريكيتين قبل أن يختم القرن السادس عشر، وإبادة مائة مليون من السود من أفريقيا، في عمليتين دمويتين إلى أبعد الحدود، الأولى بالتفريغ والثانية بالشحن على ظهور السفن لاستحداث مزارع الرجل الأبيض في الأرض الجديدة ومد أوروبا بالغذاء والذهب.

هذا اللقاء الحضاري غير المخطط له، وهذا الارتطام بين حضارات العالم القديم والجديد قاد إلى تدمير حزين لكامل الحضارات الموجودة في الأمريكيتين، في عملية عنيفة لأقصى الحدود لم تعرف الرحمة، فتم القضاء الكامل على حضارة الآزتيك والإنكا والمايا والهنود الحمر، في عملية يعجز عنها الشيطان الرجيم.

العالم القديم منح اسم العالم الجديد؛ شعوبه أبيدت، وحضارته دمرت بالكامل وسويت بالأرض، ولغته لم يعد يتحدث بها أحد، وكتبه يحاول علماء الفلولوجيا حتى اليوم فك ألغازها، فيما تبقى من كتب قليلة للاهتداء إلى سرها، وأهم من كل هذا انقلاب الميزان

التاريخي لمصلحة الغرب، فهذا الانقلاب الصاعق المزدوج في تبدد الهيمنة الإسلامية في العالم، وصعود القوة الغربية للإمساك بمقود الحضارة العالمية، في ما يسمى الدول الصناعية السبع، كلها بدأت برحلة رجل خرافي متعصب يؤمن بالأساطير أكثر من العلم، ويسجل خيالات فكرية أقرب إلى الهذيان، ولكن كل هذا لا يعني شيئاً البتة. الشيء المهم أن هذا الرجل أحدث زلزالاً في التاريخ الإنساني من حيث يشعر أو لا يشعر، فهو الذي فتح فتحة في سد يأجوج ومأجوج فهم ينسلون.

## الإبحار للمجهول عبر بحر الظلمات (الخلفية التاريخية لظروف اكتشاف العالم الجديد)

كان مدير مكتبة الإسكندرية (إيراتوستينس) (Eratosthenes) يقلب في أوراق البردي لديه في المكتبة العامرة التي تضم ما ينوف عن نصف مليون كتاب، وإذا كان عالماً في الفلك فقد لفتت نظره فقرة جاءت في إحدى لفائف البردي تقول «عند منتصف النهار تماماً من يوم 21 حزيران/ يونيو من كل عام لا يبقى لأعمدة المعبد ظلال، وإذا نظرنا في قعر البئر حدق فينا قرص الشمس يلمع على ظهر الماء يتأملنا كالمسحور»، كانت الفقرة تتحدث عن معابد الفراعنة جنوب أسوان الحالية قريباً من أول شلالٍ لنهر النيل<sup>(1)</sup>.

تأمل (إيراتوستينس) الفقرة يحللها وطرح السؤال الآتي على نفسه: لماذا تختفي ظلال أعمدة المعبد في جنوب مصر ولا يحدث مثل هذا في معابد الإسكندرية على طول مدار العام؟ كان يمكن لملاحظة بسيطة من هذا النوع أن تمر على كثير من الناس؛ فكأي من آيةٍ في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون، ولكن الفيلسوف إيراتوستينس لم يكن موظفاً (بيروقراطياً) في مكتبة

(1) كتاب الكون - تأليف كارل ساغان - ترجمة نافع أيوب لبس - سلسلة عالم المعرفة رقم 178، ص 28.

الإسكندرية، ينظر في ساعة الدوام متى ينصرف من عمله؛ فعشاق المعرفة يحدقون في الحقائق مذهولين، فلا يشعرون بوقوع خطي الوقت الهارب، بل كان عالماً وفيلسوفاً، يعشق الجغرافيا، وهو مغرم بالفلك، يقرض الشعر ويغوص في المعادلات الرياضية؛ فوقف أمام هذه الملاحظة في محاولة لفك ألغازها.

كيف حسب (إيراتوستينس) محيط الكرة الأرضية؟

كان السؤال في الواقع سؤالين فلو كانت الأرض مسطحة لكانت الظلال واحدة وجوداً وعدمًا، على اعتبار أشعة الشمس المتوازية القادمة من النجم البعيد، ولكن وجود الظل في شمال مصر واختفاءه قريباً من خط الاستواء جنوب مصر عند الانقلاب الصيفي في 21 حزيران/ يونيو يمكن تفسيره ليس في السماء، بل في الأرض، فلا بد من تحدب الأرض حتى تتشكل الظلال في مكان وتختفي بالكلية في مكان آخر، ويتفرع من هذا الكشف الأول سؤال ثانٍ وهو: إذا كانت الأرض محدبة فهذا يعني أن استمرار التحدب وتواصله سيشكل في نهاية امتداد الخط كرة بشكل من الأشكال، قد لا تكون منتظمة تماماً، ولكنها كرة في شكلها العام. عندما درس إيراتوستينس هذه الظاهرة خرج منها ليس بمعرفة أن الأرض كروية، بل حسب على وجه التقريب محيط الكرة الأرضية، وكل الذي استخدمه في كشفه هذا عينان للرؤية، وأذنان للسمع، وقضيبان للملاحظة، وحساب زاوية ميل الظل، واستئجار إنسان يقيس المسافة بين الموقعين في الإسكندرية وأسوان. وعندما عرف أن زاوية ميل الظل هي سبع درجات، وكانت المسافة بين الموقعين حوالي ثمانمائة كم أو ما يعادل 500 ميل، كان معناه أن محيط الكرة الأرضية يبلغ أربعين ألف كم، أو

حوالي خمس وعشرون ألف ميل، باعتبار أن سبع درجات من كرة ذات 360 درجة، وقاعدة المثلث الذي يشكل رأسه مركز الأرض، وقاعدته المسافة بين أسوان والإسكندرية، هو جزء من خمسين من محيط الأرض؛ حين تُقسم 360 درجة على سبع درجات (بالضبط 4,51)، كان محيط الأرض يساوي ضرب قاعدة المثلث في خمسين مرة، فيما لو تصورنا الكرة الأرضية مقسومة إلى (حزوز) مثل البطيخ، كل حز فيها قاعدته 800 كم، فاجتماع القواعد الخمسين يعطي مسافة محيط الكرة الأرضية.

### الاختراق العلمي والتطبيق الميداني

كان هذا الاكتشاف (النظري) لكروية الأرض وقياس محيطها على يد (إيراتوستينس) في القرن الثالث قبل الميلاد في جامعة الإسكندرية مزلزلاً؛ لأن النتيجة التي تنبنى عليه، أن الإبحار من أي نقطة في الأرض والاستمرار في التوجه إلى الأمام يعيد الإنسان إلى نقطة البدء، حيث تغلق الدائرة، لذلك ختم (إيراتوستينس) كشفه النظري بإمكانية التحقق منه عملياً فقال: إذا لم يكن اتساع المحيط الأطلسي عائقاً، فإننا نستطيع أن نعبّر البحر بسهولة من إيبيريا إلى الهند ومن المحتمل تماماً أن يوجد في المنطقة المعتدلة الحرارة، أرض أو أرضان مسكونتان، وفي الواقع فإذا كان هذا الجزء من العالم مسكوناً فسوف يكون مسكوناً برجال لا يشبهون الناس الموجودين في مناطقنا، ويجب أن ننظر إليه بوصفه عالماً مسكوناً آخر<sup>(2)</sup>، بل إن الفيلسوف

(2) المصدر السابق، ص 31.

الروماني (سينكا) مضى أبعد من ذلك، حين قال: «بعد سنوات سيأتي عصر يطلق فيه المحيط قيود الأشياء وتظهر أرض فسيحة ويكشف فيه النبي تيفيس عوالم جديدة ولن تكون ثولي (آيسلندا) أقصى طرف للأرض»، كما أن هذا الشيء توقعه الجغرافي سترابو (Strabo) الذي عاش في القرن الأول الميلادي واعتمد كشف إيراتوشينس، فقال: «لا يقول أولئك الذين عادوا من محاولات الدوران بحراً حول الأرض أنهم مُنعوا من ذلك بسبب قارة اعترضتهم فبالبحر بقي أمامهم مفتوحاً، ولكنهم عادوا بسبب الافتقار إلى التصميم وندرة المؤن»<sup>(3)</sup>، وسترابو في الواقع أمسك بنصف الحقيقة لأنه لم يوضح الجانب الفني تماماً، فندرة المؤن معناه بكلمة أخرى طراز من السفن مختلف تماماً عن الموجودة في تلك العصور، وهو الذي وصل العرب إلى تطويره لاحقاً وعرف بسفينة المحيط، تلك التي دارت حولها أساطير السندباد البحري وقصص ألف ليلة وليلة، حيث جاب العرب البحار العليا كلها وعرفوا الهند والصين بكل سهولة، ووصلوا جزر تيمور التي هي أستراليا ونيوزلندا.

### تطوير السفينة المحيطية على يد العرب:

قبل رحلة كولومبوس بثلاثة قرون توصل العرب إلى تطوير سفينة المحيط (القلعة المتحركة)، فأمكن حل المشكلة التقنية لارتياح بحر الظلمات. وفي وقت نهب العالم الجديد على يد عصابات كورتيس الإسبانية، كانت القوة العثمانية عالمية في غاية الجبروت، تسيطر على

(3) المصدر السابق، الكون، ص 30. كما أن فقرة سينكا تم نقلها من قصة

الحضارة لويل ديورانت، المجلد 23، ص 161.

حوض البحر المتوسط ولم تؤثر فيها معركة ليبانتو كثيراً<sup>(4)</sup>. ويبقى سؤالان تاريخيان ملحّان الأول: لماذا لم تتدخل القوة العثمانية لإنقاذ الأندلس؟ والثاني لماذا لم تنطلق القوة الإسلامية إلى بحر الظلمات (الأطلنطي)؟ مع وجود كل الإمكانيات الممتازة والمتوفرة في ذلك الوقت، بإعداد حملة كولومبوس بثلاث سفن بكلفة حوالي مليون ونصف مارادافي (عملة إسبانية) كانت مشكلة أمام الملكة إيزابيلا إلى درجة أنها عرضت حليها للرهن، في الوقت الذي كانت سفن المحيط العربية جاهزة، والبحرية التركية في أحسن حال، والقوة العثمانية تستحم بالمال والرجال؟

### كسر حاجز بحر الظلمات تقنيا

يقول الكاتب الليبي (الصادق النهوم): «لكن المحيط نفسه كان اسمه (بحر الظلمات) وكان اجتيازه للوصول إلى أراضي العالم الجديد مشكلة تقنية معقدة، تتوقف على تطوير السفينة، من وسيلة نقل في بحار مغلقة مثل البحر الأبيض المتوسط، إلى وسيلة نقل في المحيط،

(4) أشهر معركة بحرية جرت بين قوى الإمبراطورية العثمانية وقوى التحالف الأوروبية المشكّلة من فرنسا وإسبانيا والقوة البابوية بالإضافة إلى النمسا وقادها (دون جوان) من البندقية فاشتهر هذا الاسم منذ ذلك الوقت، عندما يقال عن شاب جميل معتز بنفسه وقوته أنه دون جوان، خاصة في الأوساط المسيحية، وكنت أسمع هذا اللفظ كثيراً وأنا طفل، فلا أدرك معناه ومن أين جاء. كانت هذه المعركة عام 1571 م بسبب احتلال العثمانيين لقبيرص، وانتصرت فيها أوروبا نصراً محدوداً، حيث عبأ العثمانيون في العام التالي قوة أعظم ومشوا بجانب السواحل الإيطالية في حالة تحدي، فلم تحرك أوروبا شيئاً، راجع في هذا كتاب قصة الحضارة، ويل ديورانت.



عبر مساحات مفتوحة من المياه، من دون مرافق، ومن دون محطات تموين. وهي مشكلة لم تكن ظروف التقنية البحرية قادرة على حلها حتى نهاية القرن العاشر على الأقل؛ فالإبحار عبر المحيط يتطلب سفينة عميقة القاع لنقل حمولات تغطي تكاليف هذه الرحلة الطويلة، بالإضافة إلى سطوح خاصة بالمدافع، لحماية السفينة من غارات القراصنة، وغرفاً لجنود المدفعية، ومخازن للتموين، وأطعمة يمكن حفظها لعدة أشهر، ودراية بأمراض البحر الناجمة عن الإبحار الطويل، وخرائط مفصلة لحركة التيارات والرياح، وهي شروط تتطلب بدورها مستويات تقنية خاصة، في تصميم السفن، وآلات القياس معاً، مما جعل ظهور السفينة المحيطية على أيدي العرب، عند مطلع القرن الحادي عشر، إنجازاً فنياً حاسماً لا يقل ضخامة أو إثارة للمشاعر عن ظهور سفن الفضاء في العصر الحالي. لقد فتح العرب للحضارة طريقاً عبر المحيط<sup>(5)</sup>، ولكن!

### قصور طاقة الإبداع العربية

بعدها ينتقل الكاتب ليوجه سؤالاً غير مباشر لقصور الطاقة الإبداعية عند العرب، فما الذي منعهم أن يستديروا بظهورهم ليندفعوا إلى المحيط؟ «في ذلك الوقت لم يكن ثمة ما يمنع العرب من أن يستديروا بسفنهم غرباً ويقصدوا شواطئ العالم الجديد، في رحلة كان من شأنها أن تغير مجرى التاريخ، وتفتح للإسلام والعرب ثلاث قارات مرة واحدة، وهو إنجاز كان العرب مؤهلين تقنياً لتحقيقه، منذ

(5) الصادق النهوم - صوت الناس - محنة ثقافة مزورة - رياض الريس للكتب والنشر - ص 135.

مطلع القرن الحادي عشر، قبل مولد كولومبوس بثلاثة قرون على الأقل. ولو كان السباق على المحيط سباقاً مفتوحاً أمام جميع الأمم لاختلف شكل العالم الذي نعرفه، بقدر ما يختلف العرب عن الأمريكيين. لكن السباق كان مغلقاً بالسلاسل في وجه العرب بالذات<sup>(6)</sup>، وهذا الإغلاق تم إحكامه تدريجياً منذ عام 1085 م، بعد سقوط (طليطلة) العاصمة التقليدية لشبه الجزيرة الإيبيرية الموافق 479 هـ، حيث نجح الخليفة المرابطي (يوسف بن تاشفين) في إحراز نصر في العام الذي بعده عام 480 هـ الموافق 1086 م، في معركة (الزلاقة)، ولكنه فشل في استرداد مدينة طليطلة (Toledo). واستمرت حروب الاسترداد الإسبانية، حتى حصل الانعطاف الرهيب الثاني في معركة العقاب عام 1212 م، فلم تقم قائمة للإسلام بعدها حيث هُزم الموحدون، وانزوى المسلمون في الزاوية الشرقية الجنوبية في غرناطة، ينتظرون مصيرهم النهائي الذي عبر عنه فيلسوف الأندلس لسان الدين ابن الخطيب المعاصر لابن خلدون بتعبير شعري «كنا عظاماً فصرنا عظاماً»، ونصح أهل الأندلس بالرحيل لأنها لم تعد دار إقامة، وزحف الإسبان ليس باتجاه غرناطة بل باتجاه المحيط، فقفروا إلى الساحل الأفريقي وسيطروا على سبتة ومليلة ومازالوا، وهكذا أغلقوا فوهة المحيط أمام العرب وسُجن العرب بضربة محكمة أليمة في زنزانة البحر المتوسط، يتفرجون إلى التاريخ من بعيد، وشركات التمويل تحمل ملايين الفقراء الأوروبيين إلى الأراضي الجديدة. وكان بإمكان القوة العثمانية البحرية أن تفعل شيئاً، ولكنها كانت مشغولة

(6) المصدر السابق، ص 136.

بحروب من نوع مختلف مع الفرس، على مساحات تافهة من الأراضي العراقية، فحرب صفين تكررت كثيراً في التاريخ ولانزال، في الوقت الذي كان الأوروبيون يضعون أيديهم على ما مساحته أضعاف مساحة تركيا وفارس معاً، ولكن غرناطة عاشت فترة أخرى امتدت من عام 1212 م حتى عام 1492 م ليس بفعل قوة ذاتية أكثر منها من تفرق الإسبان وعدم اتحاد كلمتهم، ولذا فإن زواج فرديناند وإيزابيلا واتحاد العرش الإسباني كان نذير شؤم على الأندلس والعالم الإسلامي، وإذا كانت الأندلس هي مشعر وضع العالم الإسلامي في جناحه الغربي على الأقل، ففلسطين اليوم أشد خطراً من الأندلس القديمة، فسقوط فلسطين هو حلقة في مسلسل السقوط والانهار الشمولي في العالم الإسلامي والعربي. وفي هذا الإطار ليس الصلح مع إسرائيل هو المشكلة، كما أن وجود إسرائيل ليس هو المشكلة الملحة، بدليل أننا نسينا إسرائيل في حربنا الأخيرة، ونحن اليوم نهدد إسرائيل أن لا تنسحب من السلام. المشكلة هي في التفتت الداخلي العربي وهشاشة الأوضاع الداخلية العربية، التي تقود إلى نمو السرطان الصهيوني، الذي قد يكتب مصير المنطقة في القرن الواحد والعشرين، ويرسم خريطة المنطقة بالكامل، ليس بفعل قوته الذاتية بقدر تأكلنا وضعفنا وهزالنا الداخلي، بحيث يكون القرن القادم في المنطقة قرن الحضارة الإسرائيلية، وهذا الكلام قد يحمل مسحة تشاؤمية، ولكن التاريخ لا يعبأ بمشاعرنا، بل يمضي وفق قانونه الصارم الذي لا يرحم ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾.

كيف خسر العرب خطوط التجارة الدولية إلى الأبد؟

عندما يتكلم النيهوم عن ضياع الفرصة التاريخية وأثر رحلة

كولومبوس في الانقلاب التاريخي لمصلحة الغرب يختصر الصورة بالكلمات الآتية: «إن تطوير السفينة المحيطية على يد العرب خلال القرن الثاني عشر يصبح إنجازاً تقنياً لا يقل أهمية عن تطوير سفن الفضاء في القرن العشرين، فقد فتحت هذه السفينة ثغرة في جدار المحيط واكتشفت أرضاً جديدة تزيد مرتين على مساحة القمر، فضاعفت بذلك حجم السوق التجاري وأضافت إليه عشرات السلع الجديدة من القطن والذرة والبطاطس وديوك الحبش إلى السكر والكوكايين، لكن العرب أصحاب الاختراع لا يملكون رأس المال القادر على تمويل حملات الاستيطان، ولا ينالهم من وراء تطوير السفينة المحيطية سوى حبسهم في القمقم، شرقي مضيق جبل طارق، بينما كان كولومبوس ينطلق غرباً قاصداً أمريكا في سفن عربية بخرائط عربية. وفي هذه المرة نزل الستار مثل المقصلة وخسر العرب خطوط التجارة الدولية إلى الأبد»<sup>(7)</sup>.

### فكرة تعدد العناصر وتضافر العوامل

أمام ظاهرة رحلة كولومبوس واكتشاف أمريكا وبقية القارات نرى أن فكرة كروية الأرض قائمة منذ 2300 سنة، ومحاولات الإبحار إلى الغرب جربت منذ أيام الفرعون (نخاو) عندما أبحر أسطول فينيقي تحت أمرته من البحر الأحمر، في حركة التفاف حول رأس القارة الأفريقية، وانتهاءً بعبور مضيق جبل طارق، والرجوع إلى الحوض المتوسط، ثم مصر في رحلة ثلاث سنوات. وهو الزمن الذي تحتاجه

(7) الإسلام في الأسر - الصادق النهوم - كتاب الناقد - رياض الريس للكتاب والنشر - ص 153.

اليوم مركبة الفضاء فويجير لقطع المسافة بين الأرض وزحل . ولكن عبور المحيط كان يوماً شيئاً آخر مليئاً بالتحدي، وليس ذلك السير الخائف بجانب حيطان القارة على الشواطئ مثل عرج البط . كان عبور المحيط يحمل التحدي الأكبر في عدة مستويات، ومع القرن الحادي عشر استطاع العرب حل المشكلة التقنية بتطوير سفينة المحيط عابرة القارات والمحيطات . مع هذا لم يستفد لا العرب ولا غيرهم من هذا التطوير وبقي الأطلنطي بحر الظلمات المرعب، الذي تسبح فيه الكائنات الخرافية، وتروي أمواجه أساطير الغرق للسفن، وعبور خط الاستواء يحول البحر إلى بركة تغلي بالماء تطبخ السفن وراكبيها . فاحتاجت رحلة كولومبوس إلى عناصر جديدة كي تنطلق فلم يكن يكفي لا الفكرة النظرية في كروية الأرض ولا التطوير التكنولوجي في سفينة المحيط، وهكذا تبطل خرافة فكرة: (الحاجة أم الاختراع)، فالأداة اخترعت قبل الحاجة ولم تستعمل، حتى تدخلت عناصر تاريخية جديدة دفعت مشكلة عبور المحيط إلى حافة الإلحاح والعمل الإسعافي، وكان ذلك بعد سقوط القسطنطينية .

### التحدي الحضاري وظاهرة صدام الحضارات

يقول المؤرخ الأمريكي ويل ديورانت في سفره التاريخي: «لقد كان قدراً ظاهراً أن يجرؤ امرؤ في هذا العصر على اقتحام مخاطر الأطلنطي ليكتشف الهند أو كاثي (الصين) إذ تحدثنا الأسطورة عن وجود أطلانتيس عبر البحر بل إن الأساطير المتأخرة ذهبت إلى وجود نبع وراء الأطلنطي تمنح مياهه الشباب الدائم . وأدى فشل الحملات الصليبية إلى ضرورة كشف أمريكا، وكانت لسيطرة الأتراك على شرقي

البحر المتوسط، وما اقترفه العثمانيون في القسطنطينية والأسر الملكية المناهضة للمسيحية في فارس وتركستان من إغلاق الطرق البرية ومنع المرور فيها، سبباً جعل الطرق القديمة للتجارة بين الشرق والغرب باهظة التكاليف ومحفوفة بالمخاطر، وتشبثت إيطاليا وفرنسا بقايا تلك التجارة على الرغم من عوامل التثبيط من ضرائب الطرق والحرب، ولكن البرتغال وإسبانيا كانتا بعيدتين جداً في الغرب، وكان من الصعب عليهما الاستفادة من مثل هذه الاتفاقات وكانت مشكلتهما لا تحل إلا بالعثور على طريق آخر وقد وجدت البرتغال طريقاً حول أفريقيا ولم يعد أمام إسبانيا إلا أن تجرب حظها في المرور غرباً<sup>(8)</sup>. وفي الواقع تبقى إجابة ديورانت أيضاً لا تروي غليل الباحث النهم عن خلفية الإبحار إلى الغرب كما وصفتها مجلة ألمانية: مثل سيارات مستعملة مكدودة تريد أن تمشي ليلاً بدون إضاءة في الصحراء، وكانت رحلة كولومبوس أفضع من كل هذا؟!<sup>(9)</sup>. فلماذا لم تفعل إسبانيا مثل ما فعلت البرتغال على المضمون، بالسير بجانب الساحل الشرقي لأفريقيا للوصول إلى الهند؟ في ضوء تقارير أجمع عليها مستشارو الملكة إيزابيلا أن حسابات كولومبو خطأ في خطأ. ليس هذا فقط؛ بل إن محاولاته تمت دراستها من فريق من العلماء في جامعة (سالامنكا) وتوصلوا بعد دراسة مستفيضة لعدة سنوات أن حسابات كولومبوس غير صحيحة، وأن الوصول إلى الغرب إلى اليابان بمسافة

(8) كتاب قصة الحضارة - تأليف ويل ديورانت - المجلد 23، ص 159.

(9) المجلة الألمانية (Abenteuer Seefahrt - P. M. Perspektive) مغامرات

750 ليجواس (ميل بحري إسباني) يعتبر كذبة كبيرة (قدر كولومبوس المسافة بـ 4800 كم وهي إلى اليابان 18000 كم أي حوالي أربع أضعاف المسافة) وقد عرف طعم العذاب المترع بعد ذلك (ماجلان) عندما قام برحلته في الطواف حول الأرض، مع هذا يجب أن نعترف لكولومبوس أنه من الذين ساروا في الأرض ونظروا، وكان من السائحين كما علمنا القرآن، في الحين الذي أهمل العالم الإسلامي هذه الوصية فهوى إلى أسفل سافلين. وكان لابد من التمويل وعناصر أخرى قبل ولادة المغامرة الكبرى.

### ولادة المغامرة الكبرى

لا تكفي المعلومات النظرية، ولا التقنية الملائمة، ولا التدافع الحضاري، ولا حتى التمويل، بل لابد من رجل متعصب إلى درجة الهوس، مغامر إلى درجة الهلوسة وأحلام اليقظة، قد استولت عليه فكرة إلى حد الجنون فترك الأهل والولد، ينتقل من بلد إلى آخر ومن ملك إلى آخر، يعرض مشروعه بألف لسان وحجة وطريقة، هذا الرجل (الدون كريستوبال كولون) كما عرف باللغة الإسبانية قام بالاتصال بنصف دزينة من أباطرة وملوك أوروبا، يعرض عليهم مشروعه ومزاياه، مثل الذي يرى الحلم الموحى. كان تحت ثقل الشعور برسالة، يجب أن ينجزها قبل أن يموت. حتى جاءت قناعة الملكة إيزابيلا بشكل لاعقلاني تماماً، ونجحت الرحلة بشكل لاعقلاني تماماً، ووصل إلى حلمه في الحلم فقط وليس في أرض الواقع، ولم يعثر على الهند ولا الصين (كاثاي) واليابان (سيبانجو) (Cipango) قط، ولكنه وصل إلى أعظم بكثير مما حلم به، وكوفئ

بأقل بكثير مما يستحقه . وكانت نهايته أن أرسل إلى إسبانيا مصفداً بالأغلال .

### لعنة المبشر (لاس كاساس) على الإسبان

وفي الوقت الذي كان كشف كولومبوس خيراً عميماً ورزقاً وفيراً للفقراء الأوروبيين، كان عذاباً مترعاً، وفناء ماحقاً، وإبادة شيطانية تعجز عنها أبالسة الجحيم، لشعوب جزر البحر الكاريبي وأمم الأمريكيتين، إلى درجة أن المبشر المرافق لحملة كولومبوس (لاس كاساس) وقف قبل موته يستمطر لعنة الله والملائكة ليس فقط على جنود كولومبوس بل على كل إسبانيا لحجم الجرائم والفظاعات التي ارتكبت بهذه الكلمات: «إنني أعتقد أنه بسبب هذه الأفعال المارقة والمجرفة والشائنة التي اقترفت بشكل بالغ الحيف والاستبداد والبربرية، فإن الله سوف يصب على إسبانيا غضبه وحنقه، لأن إسبانيا كلها قليلاً أو كثيراً، قد نالت نصيبها من الثروات الممتزجة بالدم والتي جرى اغتصابها عبر كل هذه الخرائب وكل هذه الإبادات»<sup>(10)</sup> .

في أي خانة تاريخية يمكن وضع اسم كولومبس؟

عندما كان الفيلسوف الفرنسي (فولتير) في بريطانيا حدثت أمامه مناقشة حامية عن أعظم الناس أثراً في حياة البشر، فصاح بعضهم الإمبراطور يوليوس قيصر، وهتف آخرون بل القائد الإسكندر، وقالت طائفة بل هو جنكيزخان، ولكن الرد الذي أفحم الحضور هو إسحق

(10) جاءت الفقرة في كتاب فتح أمريكا . . . مسألة الآخر، ص - 257 - تأليف (تزفتيان تودوروف) ترجمة (بشير السباعي) تقديم فريال جبوري غزول، نشر دار سينا، تحت رقم 9294 لعام 1991 م .



نيوتن؛ لأنه يحكم عقولنا بالمنطق والصدق، وهؤلاء يستعبدون عقولنا بالعنف، ولذلك فهو يستحق الاحترام. هذه الواقعة حركت الفلكي الرياضي (مايكل هارت) الذي يعمل في هيئة الفضاء الأمريكية، المولع بدراسة التاريخ، لوضع كتاب من 600 صفحة يضم أعظم الشخصيات في تاريخ الجنس البشري، اختارها من بين عشرين ألف شخصية مثيرة من بني الإنسان، ووضع مقاييس صارمة لأحكامه من مثل: كونها شخصية حقيقية لا خيالية، وأنها تركت أثراً في البشر عامة، وليست ظاهرة محلية قومية، واعتبر عمق الأثر سلباً أو إيجاباً مثل تيمورلنك وهتلر. فوصل إلى وضع الرسول (ﷺ) في رأس القائمة وجاء صاحب روايتنا كولومبس في المرتبة العاشرة، ولكنه عندما ذكره قال عنه ما يلي: ولو كنا نرتب هؤلاء العظماء حسب سلوكهم الأخلاقي ل جاء مكانه قرب النهاية، ولكننا نتحدث عن أبعد الناس أثراً في التاريخ الإنساني<sup>(11)</sup>.

---

(11) الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله - أنيس منصور - المكتب المصري الحديث، ص 44.

## مأساة اصطدام الحضارات

يظن بعض الناس أن الظروف التاريخية لرحلة كولومبس إلى المجهول، بقيامه بما يشبه المستحيل في تلك الأيام، باختراقه بحر الظلمات الذي كان شعاره في العصور الوسطى البحر الذي لا شيء وراءه، ظنوا أن الغرب عزم الإبحار فقط إلى الغرب ليصل إلى الشرق، فكتب إلى الأخ المهندس (إبراهيم بشماف): «أتمنى أن تلقي بعض الضوء على الاتجاه الآخر من العالم في هذا الموضوع، وهو الدوران حول الأرض من جهة الشرق، وما العوائق التي حالت دون أن يكون السبق في ذلك الاتجاه؛ رغم وجود العديد من الجزر التي تغري المرء في الغد بذلك الاتجاه؟»، لم تكن حركة كولومبس إلا واحدة من ثلاث لتطويق العالم الإسلامي ويروي لنا التاريخ أن تطويق العالم الإسلامي لم يتم بمحور كولومبس فقط، أي الإبحار إلى الغرب ليصل إلى الشرق من خلال المعطيات الجغرافية بكروية الأرض، الذي تم على يد الإسبان؛ بل تم إحكام التطويق بثلاث محاور إسباني - برتغالي - روسي؛ فكولومبس (ذو الأصل الإيطالي) المتزوج من برتغالية والمرسل من إيزابيلا الملكة الإسبانية) رحل بشكل لاعقلاني بروح المغامرة والتعصب الديني الذي كان قد تلبس الروح الإسبانية من خلال حروب مجهدة طويلة لاسترداد الأندلس؛

في حين كان المحور البرتغالي بالاتجاه المعاكس، بالالتفاف حول العالم الإسلامي من الشرق، حيث تم التقدم بخطى بطيئة لاكتشاف الشاطئ الغربي لأفريقيا ثم الامتداد إلى الهند فالصين فاليابان، على الشكل الذي شرحه المؤرخ البريطاني جون أرنولد توينبي (J. A. Toynbee) في كتابه القيم دراسة التاريخ "Study of History".

وأما المحور الثالث فكان بتقدم روسي من آسيا الوسطى لاحتلال قازان عام 1553 م والامتداد حتى المحيط الهادي. ويمكن فهم حرب الشيشان الحالية في هذه البانوراما التاريخية، ضمن سياق الكرونولوجيا التاريخية. فالامتداد الروسي الممزوج بالدم والدموع، من خلال استئصال شعوب شمال القفقاس وتهجيرهم، كان ضمن هذا السياق من عملية إحكام تطويق العالم الإسلامي. ولكن أعظم إنجاز حصله الغرب بطريق الصدفة المحضة، هي في اكتشافات كولومبس الذي لم يعرف حتى لحظة مماته إنجاز العملاق والانعطاف التاريخي لكل أوروبا، بل صناعة التاريخ الذي فعلته يده، وهو مقهور حزين منكسر القلب يطالب بتنفيذ الوعود الملكية له في بلدة الوليد، وهو الذي رسم قدراً جديداً لكل فقراء أوروبا، لأن ثروة أوروبا تضاعفت خلال قرن واحد مائة مرة، وأضافت إلى أراضيها أربع قارات جديدة وآلاف الجزر الغنية بما يزيد عن ضعف مساحة القمر، فأصبح الغرب بهذا يمتلك «جميع مفاتيح التجارة الدولية بين القارات، وثلاثة أخماس الكرة الأرضية»<sup>(1)</sup>، وأربعة أنهار من كل ستة أنهار تتدفق ماء سلسبيلاً

(1) كتاب صوت الناس - محنة ثقافة مزورة - الصادق النهوم - رياض الريس للكتب والنشر ص 9، وبعض الفقرات الملحقة تم نقلها بشيء من التصرف.

على وجه الأرض، وخمسة فدادين من كل سبعة فدادين صالحة للزراعة وثمانية قروش من كل تسعة قروش ونصف يملكها إنسان على وجه الأرض. والنكته في رحلة كولومبس أن المغامرة والحظ والحسابات الخاطئة هي التي قادتته إلى هذا الكشف الذي وصفه المؤرخ الحضاري إيجون فريدل (Egon Friedell) بأن ما حدث معه في هذه الصدفة التاريخية هو أدعى للغرابة من حظ (اليانصيب) (Lottery Treffer)<sup>(2)</sup>!

### الميزان العالمي في القرن الخامس عشر للميلاد

وعندما يصف المؤرخ البريطاني توينبي الوضع العالمي الحضاري يسجل تحول المحيط الهندي إلى بحيرة عربية، ولذا فإن انكسار الميزان التاريخي تم من خلال منعطفين: الأول كان في الانهيار المزدوج لجناحي العالم الإسلامي في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد، عندما سقطت إشبيلية في الغرب وبغداد في الشرق بزمن متقارب لا يتجاوز عشر سنوات، بين عامي 1248 م و1258 م، وكان هذا أول الغيث ليتكامل مسلسل الانقلاب التاريخي مع نهاية القرن الخامس عشر للميلاد، ونقل صورة العالم كما ذكرها توينبي قبل غسق الليل عندما وقب في العالم الإسلامي: «كانت الحضارة الإسلامية عند نهاية القرن الخامس عشر تهيمن على الشاطئ الأفريقي المطل على المحيط الأطلسي، والممتد من بوغاز جبل طارق حتى السنغال. فكان العالم المسيحي والحالة هذه مقطوع الصلة برأ أفريقيا الاستوائية. بينما كانت موجات التأثير العربي تندفع إلى القارة

(2) مجلة الشبيجل الألمانية، العدد 2 عام 1992 م - ص 95.

السوداء، لا على طول حدها الشمالي في السودان خارج الصحراء الكبرى فحسب؛ ولكن كذلك على طول ساحلها الشرقي المعروف بـ (السواحلي) على شاطئ المحيط الهندي. والحق أن هذا المحيط قد غدا بحيرة عربية، لم يكن للبنادقة سبيل إليه. وكانت السفن العربية لا تقنع بارتياح الشاطئ الأفريقي في كل مكان من السويس حتى سوفاالا، وإنما كانت تشق طريقها إلى أندونيسيا. فانتزعت مجموعة الجزائر من الديانة الهندوسية وضممتها إلى حظيرة الإسلام. ثم اندفعت شرقاً لتقيم مركزاً في غربي المحيط الهادي؛ إذ هدت إلى الإسلام سكان جنوبي الفيليبين من عنصر الملايو<sup>(3)</sup>.

وأما كيف حصلت حركة تطويق العالم الإسلامي تاريخياً فيصفها المؤرخ البريطاني توينبي على الشكل الآتي:

حركة تطويق العالم الإسلامي بدأها البرتغاليون:

استطاع الملاحون البرتغاليون كشف جزائر ماديرا حوالي عام 1420 م وجزائر الأزور عام 1432 م. ثم نجحوا في تطويق الجبهة العربية البحرية على الأطلسي بدورانهم عام 1445 م حول الرأس الأخضر وبلوغهم خط الاستواء عام 1471 م إلى كاليكوت (Calicut) على الساحل الغربي للهند «وهي غير كلكوتا على الساحل الشرقي من اسفين مثلث جزيرة الهند الغاطس في المحيط الهندي»<sup>(4)</sup>، وسيطرتهم

(3) مختصر دراسة التاريخ - جون آرنولد توينبي - ترجمة فؤاد محمد شبل - لجنة التأليف والترجمة والنشر - جزء ثالث - ص 308.

(4) نلفت النظر إلى أنه في عام 1492 اكتشف كولومبس الأمريكيتين، وبعده بخمس سنوات أي عام 1497 اندفع فاسكو دا جاما إلى الهند، فكما نرى كان اندفاع الغرب بثلاث قرون، قرنان من الغرب بانشطارين واحد بالالتفاف حول =

عام 1511 على بوغاز ملقا، واندفاعهم في غربي المحيط الهادي ليرفعوا علمهم في كانتون عام 1516 م وعلى شواطئ اليابان عام 1542 - 1543 م. وهكذا في لمحة البصر اختطف البرتغاليون من أيدي العرب السيادة البحرية على المحيط الهندي، بينما كان الرواد البرتغاليون المتجهون شرقاً يحدقون بحركة خاطفة من التوسع البحري للغرب بالعالم العربي الإسلامي من الجنوب؛ كان ملاحو الأنهار من القوزاق يتجهون شرقاً ويوسعون حدود العالم الروسي بالسرعة والاكتمال نفسيهما؛ وذلك بإحداقهم بالعالم الإيراني الإسلامي من الشمال، ولقد فتح الطريق أمام القوزاق القيصر المسكوفي إيفان الرابع، حين استولى على قازان عام 1553 م، إذ كانت قازان قلعة العالم الإيراني الإسلامي عند حدوده الشمالية الشرقية، وبعد سقوطها لم يعد ثمة عقبة عدا الغابات والصحيق، وهما حليفان تقليديان عرفهما البدو من محاربي القوزاق) ليقرر الحقيقة المرة التالية: «وهكذا في غضون فترة تقل عن القرن، لم يقتصر الأمر على الأحداق بالعالم الإسلامي، الذي كان شركة بين المجتمعين العربي والإيراني، ولكن أمكن تطويقه تماماً. ففي أواخر القرنين السادس عشر وأوائل السابع عشر وضع الطوق حول رقبة الفريسة»<sup>(5)</sup>.

---

= أفريقيا إلى الهند، والثاني بالوصول إلى الهند بالإبحار غرباً، والثالث روسي بالانطلاق شرقاً إلى سيبيريا وآسيا الوسطى والقوقاز إلى المحيط الهادي، ولا ننسى طموحهم بالوصول إلى المياه الدافئة في المحيط الهندي من خلال اختراق العلم الإسلامي جنوباً.

## من يملك البحار يملك العالم و ثروته

كانت الضربة المضادة التي وجهها الغرب إلى العرب والعالم الإسلامي ساحقة؛ لأن الغرب بارتياحه البحار العليا والمحيطات، مستخدماً الأسلحة والتقنيات العربية نفسها، من البوصلة والاسطرلاب والسفينة المحيطية والخرائط العربية، بل والحصان العربي دبابة العصر القديم، استطاع أن يضع يده على البحار والمحيطات والممرات المائية، فتحوّلت المحيطات التي كانت سابقاً حواجز فاصلة بين الثقافات، إلى جسور اتصال يتم القفز منها إلى قارات جديدة. لذلك وجدنا في الأدبيات التي عاصرت شكسبير من يكتب ما يلي: «ما زال يصدق الشعار الذي طرحه السيد والتر رالي (Walter Raleigh) الذي عاصر شكسبير في أيام الملكة إليزابيث مائة عام بعد كولومبس: من يسيطر على البحار يسيطر على التجارة، ومن يملك تجارة العالم يستحوذ على ثروة العالم وبالتالي يملك العالم بذاته»<sup>(6)</sup>، وهو الذي حرك الفكرة نفسها عند البريطاني (آدم سميث)<sup>(7)</sup>، عندما سطر كتابه المعروف ثروة الأمم "Wealth of Nations" الذي رأى كل تجارة

(6) مجلة الشبيجل الألمانية - عدد 1 / 1992 م - ص 96.

(7) آدم سميث (1723 - 1790 م)، كان أستاذاً للفلسفة في جامعة جلاسجو وأصدر كتابه نظرية المواطن الأخلاقية، ولكن أعظم كتاب رفع ذكره هو كتاب ثروة الأمم "Wealth of Nations" الذي استطاع فيه صياغة نظرية اقتصادية متكاملة متماسكة، تصلح أن تكون أساساً لأي تقدم في مجال الاقتصاد، واستطاع أن يفهم ما يسمى بفوضى السوق الحرة أنه ليس في الواقع إلا جهازاً دقيقاً يقوم بتنظيم نفسه بنفسه (قانون العرض والطلب) (Demand and Supply)، راجع كتاب الخالدون مائة - مايكل هارت - ترجمة أنيس منصور - المكتب المصري الحديث - ص 159-162.

البحار أصبحت في يد الأوروبيين الغربيين بالذات الذي منحهم تفوقاً خاصاً.

### قانون هيرودوت في تصادم الحضارات

مع هذا لا يمكن فهم حركة التفاف الغرب بمعزل عن السياق الكوني لأحداث التاريخ، ويعرف المؤرخون هذه الظاهرة تحت قانون صدام الحضارات أو مأساة التلاقي، ويعتبر المؤرخ اليوناني هيرودوتس أول من انتبه إلى هذه الظاهرة، في إطار الصراع الفارسي اليوناني، ولكن حركة الغرب برحلة كولومبس هي ضمن هذا السياق التاريخي الذي تتعاقب فصوله المثيرة بدون توقف، فمن المفيد والجميل أن نتوقف قليلاً لتأمل هذا القانون الذي أورده المؤرخ: «كان هيرودوتس هو الذي كشف خلال القرن الخامس قبل الميلاد عن أن التلاقي بين المجتمعات المتعاصرة لا يتم على انفراد، ولكن في حلقات متسلسلة مترابطة، بمعنى أنه يترتب على الحدث حدث آخر. . وهكذا في سلسلة متتابعة من الأحداث يقفو بعضها بعضاً. وقد توصل إلى كشفه هذا، حين أخذ على نفسه أن يقص خبر الصراع الذي نشب حديثاً بين الإمبراطورية الأخمينية ودول المدن الهلينية المستقلة في بلاد اليونان في أوروبا. وارتأى هيرودوتس - لكي يجعل روايته مفهومة - أن يضعها في مكانها بين السوابق التاريخية. حتى إذا نظر إليها من هذه الزاوية؛ أدرك أن الصراع اليوناني الفارسي هو آخر الأحداث في سلسلة المصادمات من النوع نفسه. فإن ضحية العدوان؛ لن يقنع بالتزام جانب الدفاع وحده. فإذا أصاب التوفيق دفاعه، راح



ينتقل من الدفاع إلى الهجوم المضاد»<sup>(8)</sup>.

### التعاقب التاريخي للصدم الحضاري

هذه الآلية (الميكانيزم) الحضارية تتشكل عندما يستطيع المُعتدى عليه امتصاص الهجوم الأولي، ليتحول بعد ذلك من الدفاع إلى الهجوم، تماماً كما حدث في الهجوم النازي على ستالينغراد، عندما حوَّصر الجيش النازي في النهاية، واستسلم بعد أن تقلص حجم الجيش العرمرم بمنجل الموت من (360) ألف جندي إلى تسعين ألفاً، ستكتحل أعين خمسة آلاف فقط منهم برؤية الوطن الأم، بعد رحلة الأسر في معتقلات سيبيريا؛ بحيث تترتب علاقة السبب بالنتيجة بشكل جدلي، فيتحول الحدث الواحد في الوقت نفسه إلى سبب ونتيجة، نتيجة لما قبله، وإلى سبب لما سيأتي بعده.

إذا كان المؤرخ الإغريقي هيرودوتس قد بدأ رحلة الفعل ورد الفعل من عند الهجوم الفارسي على الأراضي اليونانية، فإن الحدث التاريخي يعود إلى زمن أبعد من ذلك، كما أن أثره لا يبقى عند الاستجابة اليونانية، فبداية البداية ترجع إلى الصراع الهليني الفينيقي، وتأتي قصة الصراع بين طروادة وهيلاس في هذا التسلسل، على شكل أساطير من خطف الفتيات الحسان لتشعل حروباً عالمية في العصر القديم. كما أن هزيمة معركة (سلاميس) التي مُني بها (كزركسيس) الفارسي في الأرض اليونانية في القرن السادس قبل الميلاد، لم تقف

(8) كتاب مختصر دراسة التاريخ - تأليف أرنولد توينبي - ترجمة فؤاد محمد شبل - الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية - لجنة التأليف والترجمة والنشر - الجزء الثالث، ص 388.

عند هذا الحد، بل استجرت حملة الإسكندر ليطحن جيش دارا المليون في معركة (أربيل) عام 333 قبل الميلاد (ثلاثة ثلاث مرات). وعندما سقط المجتمع السوري محطماً تحت قدمي الإسكندر جاء الرد ساحقاً ماحقاً على شكل فاتورة متأخرة الدفع عندما «وُفِّقَ العرب المسلمون في نقض ما أنجزه الإسكندر بعد انقضاء ألف سنة من عبوره الدردنيل. إن العرب بفضل سلسلة حملات خاطفة كالبرق حرروا الأراضي التي كانت جزءاً من العالم السوري وقتاً ما، وتمتد من سوريا حتى إسبانيا»<sup>(9)</sup> ولكن الهجوم العربي الضاغظ حرر القوة المضادة التي اندفعت في شكل الحروب الصليبية، ليستجيب لها العالم الإسلامي في صورة الاندفاع العثماني العسكري، ليولد بالمقابل الاندفاع الغربي باتجاه المحيط الذي بدأ قبل خمسة قرون، كما أشار إلى ذلك توينبي بقوله: «كذلك اقتحم الأتراك المسلمون - بلا مبرر - بلاد المسيحية الغربية مندفعين على طول الدانوب إلى معاقل الغرب. وفي هذه المرة اتخذ رد الفعل الغربي شكلاً أكثر أصالة وأوخم عاقبة. وحقاً كان طي العالم المسيحي الغربي بين طرفي الهلال العثماني قد بلغ من التوفيق حداً؛ دفع الغربيين إلى تعويض خسائرهم في البحر المتوسط، الذي أفضل في وجوههم بتسخير طاقتهم مرة أخرى في الإقلاع لغزو المحيط؛ الأمر الذي جعل منهم بعد ذلك سادة العالم»<sup>(10)</sup>.

(9) توينبي، مختصر دراسة التاريخ، الجزء الثالث، ص 390.

(10) توينبي، مختصر دراسة التاريخ، الجزء الثالث، ص 392.

### انتهاء عهد المتوسط وبدء مرحلة الأطلنطي

ويستعرض المؤرخ الأمريكي بعض هذه المظاهر من السيطرة العالمية في صور مختلفة: «وكان للاكتشافات التي بدأها هنري الملاح وتبعه فيها فاسكو دا جاما، وبلغت أوجها في عهد كولومبس وانتهت بماجلان، أثر في قيام أعظم ثورة تجارية في التاريخ قبل اختراع الطائرة. فتحت البحار الغربية والجنوبية للملاحة والتجارة، وأنتهت عهد البحر الأبيض المتوسط في الحضارة وبدأت عهد الأطلنطي. وكلما ازداد تدفق الذهب من أمريكا إلى إسبانيا ازداد التدهور الاقتصادي في ولايات البحر الأبيض المتوسط»<sup>(11)</sup>، وحصل شيء حاسم بهذا التحول التاريخي من تراكم الثروة، ونمو الطبقة الوسطى البورجوازية، وتقاسم السلطة بين العمال وأصحاب رأس المال، بدل التحالف القديم بين الإقطاع والكنيسة، وقاد هذا إلى تبدل جوهر في البنية السياسية، وتفجر الثورة الصناعية، وقيام الأديان الجديدة (الرأسمالية والاشتراكية) ونمو المؤسسات الدستورية وتحرر المرأة وإلغاء الرق وتدشين العدل الاجتماعي بأوقيانوس من الدماء: «ووجدت دول الأطلنطي في العالم الجديد مخرجاً لفائضها من السكان ولطاقاتها الاحتياطية ولمجرمها ووجدت هناك أسواقاً رائجة لبضائعها الأوروبية. وازدهرت الصناعة في أوروبا الغربية وطالبت بالاختراعات الآلية وبأشكال أحسن من الطاقة مما أدى إلى الثورة الصناعية»<sup>(12)</sup>، بل وتغيرت ألوان الطعام وتبيلها، فالبهارات والتوابل

(11) قصة الحضارة - ويل ديورانت - ترجمة الدكتور عبد الحميد يونس - الجزء

23، ص 178.

(12) ويل ديورانت - قصة الحضارة 23 - ص 178.

أخذت تنقل من كل فج عميق، كما تم نقل النباتات غير المعروفة من القارة الجديدة إلى أوروبا لتنتشر بدورها في العالم، فالبطاطا التي تناولها والطماطم والذرة والتبغ وديك الحبش كله تم استيراده بالأصل من أمريكا.

### الأثر الثقافي للانسيح الإسباني في العالم القديم

وكان الشيء الحاسم هو في انتشار الثقافة والدين فقد أصبحت اللغة الإسبانية لغة عالمية، كما ضمت الكنيسة ملايين لاحصر لهم إلى ظلها، وفقد الإسلام واللغة العربية مقابل ذلك انحساراً لا يغط عليه، لم يتعاف منه حتى الآن، بفعل مرض عضال في عمق الثقافة، تشكل مع الانقلاب الأموي وقيام الدولة البيزنطية الأموية واغتيال العقل الراشدي. يقول ديورانت: فقد انتشرت المسيحية فوق رقعة واسعة من نصف الكرة الأرضية وكسبت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من الأنصار في العالم الجديد أكثر مما سلبهم منها الإصلاح الديني في العالم القديم. . . . وتلفقت أمريكا اللاتينية اللغتين الإسبانية والبرتغالية اللتين أثمرتا أدباً قوياً مستقلاً. . . . وتم إلغاء الشعار السائد في القرون الوسطى لجبل طارق: لا شيء خلفه، وأصبح هذا الشعار: خلفه الكثير وزالت كل الحدود وأصبح العالم مفتوحاً وبدا كل شيء ممكناً. والآن بدأ التاريخ الحديث بموجة طاغية تتسم بالإقدام والتفاؤل.

### مخبر التاريخ لفهم الأحداث الحضارية

هذه الأحداث الدرامية التاريخية لا يمكن للإنسان إدراك مغزاها إلا بدمج آيتين على طريقة الفيلم السينمائي، أي وصل اللقطات، ثم إدخال عنصر الحركة عليها، وهي هنا في الأحداث التاريخية عملية

عقلية بحثة، لذا فإن ظاهرة الصدم الحضاري لا يمكن إدراكها من خلال عمرنا القصير وبقى المخبر التاريخي هو الذي يعطينا فهم آلية نظم التاريخ الذي اعتبره القرآن مصدراً للمعرفة. ويمكن أن تسعفنا البيولوجيا بنماذج توضح فترة حضانة أي فعل، فكما أن الجرثوم يغتس في البدن فيخرب ولكن لا يظهر أثره على السطح إلا بعد زمن تختلف مدته بين ساعات في التسمم الغذائي ومائة يوم في التهاب الكبد الإثنائي، كذلك تظهر نتائج العمليات الجراحية بفوارق زمنية متباينة، بين نتيجة فورية في جراحة الأوعية، وعدة أيام في جراحة البطن، لتأخذ أسابيع حتى يستوى المكسور على ساقه يمشي بها، أما الجراحة العصبية فتحتاج في معالجة قطع العصب إلى أشهر طويلة ممضة، وبناتج غير مشجعة. إذا أردنا معرفة تطور كل هذه الأمور فيمكن أن نبصرها في عمرنا القصير الذي نحياه، ولكن ماذا جرى للحضارات لا يمكن معرفة نتائج التاريخ فيها إلا في القرون المتطاولة، ومن هنا لفت القرآن نظرنا للسير في الأرض ودراسة سير الأمم الماضية فاعتبر القرآن التاريخ مصدراً للمعرفة، ومن هنا فإن الانقلاب التاريخي بعد رحلة كولومبس لم يشعر بها الذي دشنها نفسه ونحن نعي اليوم أبعاد تلك العملية الجراحية التاريخية الكبرى.

كيف نفسر ارتطام أكبر قوتين إسلاميتين في مطلع القرن الخامس

عشر للميلاد؟

في الوقت الذي كان فيه السلطان العثماني بايزيد خان الأول يتأهب لغزو أوروبا بحملة قوامها نصف مليون جندي، وذلك مع فجر القرن الخامس عشر الميلادي، تحركت عاصفة عسكرية أشد هولاً، ومن العرق التركي والدين الإسلامي نفسيهما، وبسبب تاريخي

تافه، مزمجرة كالإعصار من الشرق يقودها عسكري تترى مرعب خلدَّ اسمه في التاريخ بكل الفظاعات الممكنة (تيمورلنك)، ليحطم الطموحات العثمانية الجينية للسيطرة على أوروبا في معركة أنقرة التي قررت مصير أوروبا في 20 تموز/ يوليو عام 1402 م الموافق 19 ذي الحجة من عام 804 هجري، وليوقف المد الإسلامي، ولينقذ جنين الحضارة الغربية الذي كان قد تشكل آنذاك في أحشاء الزمن بعد أن تلقح من نطف الحضارة الإسلامية، التي كانت تودع التاريخ وتتوج ختامها بتألق الشمعة الأخير بفكر سنني متماسك هو فكر ابن خلدون، الذي أرَّخ لهذه المرحلة بمقابلة شخصية مع تيمورلنك الذي واصل تحطيم الشرق الأدنى ليحط الرحال في دمشق أخيراً. هذا الارتطام الأعمى بين قوتين إسلاميتين لتنجو وتولد حضارة غير إسلامية هل هو مجرد مصادفة عبثية؟ أم عمى تاريخي؟ لتأمل الواقعة تحت مبضع التاريخ!

انتبه توينبي إلى طرف من المغزى التاريخي في حدين: الأول هو «ذلك أن نزعة تيمور الاستبدادية باكتساحها كل شيء وجدته في طريقها في اندفاعها الأرعن نحو دمارها نفسها، قد أوجدت فراغاً جرَّ العثمانيين والصفويين في النهاية صوب ارتطام، كانت فيه الضربة القاضية على المجتمع الإيراني». والثانية وهي الأهم «ولكن بعد ما اتخذت أفعال تيمور سبيلها على النسق التدميري المتقدم وقف تقدم الإسلام في أوراسيا إلى الأبد، بل تحول المغول والكالموك بعد ذلك بقرنين إلى المذهب اللامي من بوذية ماهايانا».

ويبدع مالك بن نبي في تعليقه على ظاهرة العمى التاريخي هذه والارتطام الحضاري ويدمج بين تحطيم قوة (طغتميش) التي كانت في

طريقها لاحتلال روسيا، والتي يحللها توينبي على الشكل الآتي في ظروف افتراضية: «ففي ظل هذه الظروف الافتراضية: ربما تجد روسيا نفسها اليوم؛ داخل نطاق إمبراطورية تضم نفس مساحة الاتحاد السوفيتي الحالية، ولكن مع اختلاف الأهمية؛ إمبراطورية إيرانية تحكم فيها سمرقند موسكو، عوضاً عن أن تحكم موسكو سمرقند»، وتحطيم قوة بايزيد الأول المستعدة للانقضاض على أوروبا:

«لقد قام تيمورلنك في الواقع بعمل لم يكن يستطيع إدراكه حتى بعد انتهائه منه، لأن مغزاه التاريخي الحق لا يمكن أن يظهر إلا بعد عدة قرون. إن مسألة كهذه قد تركنا مشدوهين بحجة أنها ذات طابع ميتافيزيقي، ولكننا لكي نعطي للأحداث تفسيراً متكاملًا يتفق مع مضمونها كله يجب ألا نجس تصورنا لها في ضوء العلاقات الناتجة عن الأسباب، بل ينبغي أن نتصور الأحداث في غايتها التي انتهت إليها في التاريخ، ومن هذا الجانب قد يلزمنا أن نقلب المنهج التاريخي: فنرى الظواهر في توقعها بدلاً من أن نراها في ماضيها، ونعالجها في نتائجها لا في مبادئها، فلكي نفهم ملحمة تيمورلنك ينبغي - مثلاً - أن نسأل أنفسنا: ماذا كان يمكن أن يحدث لو أتيح لظغميش أن يحتل موسكو، ومن بعدها وارسو..؟ ولو قدر لبايزيد أن ينصب رايته على أطلال فيينا، ثم على أطلال برلين..؟ لو حدث هذا لأذعننا أوروبا حتماً لصولجان الإسلام الزمني المنتصر، ولكن ألا يدفعا هذا إلى أن نرى توقعاً مختلفاً تمام الاختلاف عما حدث فعلاً وكان سيحدث في التاريخ..؟ كانت النهضة الأوروبية التي مازالت في ضمير المقادير ستنصهر في (النهضة التيمورية) ولكن هاتين النهضتين - على الرغم من عظمهما - كانتا مختلفتين، فلم

يكن مغزاهما التاريخي واحداً، فلقد كانت الأولى فجراً يفيض على عبقريات جاليلو وديكارت وغيرهما، بينما كانت الأخرى شفقاً يغلف الحضارة الإسلامية لحظة أفولها. كانت إحداهما بداية نظام جديد، وكانت الأخرى نهاية نظام دارس، وما كان شيء في الأرض يستطيع أن يدفع عن العالم الليل الذي أخذ يبسط سلطانه آنئذٍ على البلاد الإسلامية في هدوء، فلو أن تيمورلنك كان قد اتبع دوافعه الشخصية لما استطاع شيء أن يحول دون نهاية الحضارة الإنسانية. فهناك حسب تعبير إقبال (خطة للمجموع) هي التي تكشف عن اتجاه التاريخ.

لماذا حال تيمورلنك دون قيام بايزيد وطغتميش بنشر الإسلام في قلب أوروبا.؟ والجواب لكي تتابع أوروبا المسيحية جهودها الحضاري الذي لم يكن العالم الإسلامي بقادر عليه منذ القرن الرابع عشر، حيث كان في نهاية رمقه، فملحمة الإمبراطور التتري تجلو غاية التاريخ، إذ كانت نتيجتها متطابقة مع استمرار سير الحضارة ودوامها، كما تتعاقب دوراتها، ويتم الكشف الخالد عن العبقریات التي تتناوب على طريق التقدم». «فإن سيف تيمورلنك هو الذي شق الطريق أمام الحضارة الغربية الوليدة وسط أخطار الغروب التي كانت تخيم على العالم الإسلامي، فهل يمكن في ظروف كهذه أن نتحدث عن نوع من (العمى)؟ وهل لا يمكن أن نرى في ذلك أمارة على نوع من التجلي العلوي وراء تصرفات تيمورلنك؟»<sup>(13)</sup>.

(13) كتاب وجهة العالم الإسلامي لمؤلفه المفكر الجزائري مالك بن نبي، ص (200)



## وتلك الأيام نداولها بين الناس!

قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق... من الغريب أن كل الذين ساروا في العصر الحديث في الأرض ليصنعوا التاريخ هم من غير المسلمين.. فكافأهم الله ورفعهم، في الحين الذي صب الذل مترعاً على العالم الإسلامي لأنه لم يعمل بوصية الله، فركد إلى الحياة الدنيا وأثقل إلى الأرض واتبع هواه، فسار كولومبس في الأرض فغير خريطة العالم وأضاف إلى قارات العالم أربع قارات جديدة. وسار دارون في الأرض فأحدث ضجة في العالم في فهم أصل الحياة - ولا يعيننا كم أصاب فيها بقدر أنه عس في العالم وسار في الأرض - مازالت زوبعتها لم تنته. وسار كوبرنيكوس في السماء فقلب دوران الأفلاك. وسار فيساليوس في جسم الإنسان فقلب البناء التشريحي وفهم كيف تعمل آلة الجسم. وسار ماجلان فطاف حول الأرض فعرف أنها كروية قطعاً وتدور، ومازال العالم الإسلامي حتى اليوم يناقش في بدايات من هذا النوع، وحسمها العالم الغربي منذ خمسة قرون فهو يخطط اليوم لرحلة كولومبس جديدة ليس في كشف أرض جديدة فوق كوكبنا، بل كواكب جديدة يزحف إليها من خلال دراسة ظاهرة ترشح النجم<sup>(14)</sup>، إذاً نحن لا نفقه العالم الذي نعيش فيه، لأننا لم نشترك في صناعته، فنحن لا نعرف الديمقراطية ونقل السلطة السلمي. نحن لا نفهم بناء دولة المؤسسات. نحن لا نستوعب معنى

(14) «مع تطوير مناظير مراقبة النجوم أمكن معرفة أن أي شمس تترشح بمقدار معين إذا وجد كوكب يدور حولها، وقد تم الكشف عن العديد من هذه الكواكب اليوم كما في الإعلان الفلكي الذي صدر العام الفائت من مؤتمر فلورنسا في إيطاليا حيث كشف النقب عن نظام بيتا بكتوريش وبيجاسوس 51».

احترام الآخر وعدم إلغاء الآخرين، نحن لا نعرف معنى التسامح مع المختلفين عنا في الآراء. فنحن عملياً نعيش في القرن الخامس عشر للميلاد وليس الهجرة، فالزمن قد توقف عندنا منذ خمسة قرون.

## التدمير المروع لحضارات أمريكا<sup>(1)</sup> (الوجه الآخر لاكتشاف أمريكا)

سؤال تاريخي يحملق كالمشدوه بدون تحرير إجابة واضحة عن مغزى مسح ثلاث حضارات من الوجود، هي حضارات المايا والأزتيك والإنكا وامتدادات إنسانية مرافقة مثل القبائل البدائية في جزر الكاريبي والهنود الحمر على أرض الأمريكيتين، على يد الإسبان والبرتغاليين؟! إن ما تم ليس قهر هذه الحضارات والاستيلاء على خيراتها واستعباد سكانها فهذه نصف الكارثة! إن ما تم كان إبادة شاملة وتفريغ كامل للجزر من سكانها، في حملة تعجز عنها الأبالسمة، في القضاء على حوالي سبعين مليون نسمة، في تعداد لسكان الأرض يومها يصل إلى مائتين مليون نسمة مع مطلع القرن السادس عشر. لذلك، فإن مصطلح (اكتشاف أمريكا) يحمل ذاتية متفخحة، وعنصرية غربية، وتمركزاً وتمحوراً أوروبين، ويتفرع عن هذا السؤال آخر أشد إلحاحاً، كيف استطاع الإسبان بحفونات بشرية ضئيلة اجتياح إمبراطوريات عملاقة، تصل في تعدادها إلى 25 مليون نسمة في حضارة الأزتيك التي تضم المكسيك اليوم، وستة ملايين في حضارة الإنكا في

(1) كتاب أفول الغرب - تأليف أوسفالد شبنجلر - ترجمة أحمد الشيباني - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، الجزء الثاني، ص 284 - 286.

أمريكا الجنوبية، ما يضم خمسة من دول اليوم، ممتدة على حزام يصل بين كولومبيا والإكوادور والبيرو وبوليفيا وتشيلي، في الوقت الذي كان تعداد كل مملكة الإسبان لا يتجاوز مليونين في ذلك الوقت؟!

### بين صناعة هوليوود والواقع

عمدت هوليوود كعادتها في إدخال المساحيق على وجه كولومبس فأخرجته إلى التاريخ ذلك العادل الرحيم فيبضت صفحته، وهكذا يفعل النفاق والتزوير الغربيين، ففي الوقت الذي يباد الهنود الحمر تخرج سينما هوليوود لتخرج أولئك المتوحشين يحملون الفؤوس والبلطات يقتلون البيض حملة الحضارة ومشعل الإنسانية، ولكن هل يروي التاريخ الواقعة بهذه الصورة الوضيئة وهل هذا ما جرى فعلاً؟!

### أشبهه شيء بالصدمة!!

يقرأ الإنسان بعض الكتب أحياناً فتحدث في عقله زوبعة وإعصاراً وأثراً شبيهاً بالصدمة، وهذا ما حصل معي عند قراءة بعض الكتب التي تركت بصماتها في نفسي في أثر لا يمحو ومن هذه الكتب: آخر الراحلين والإنسان يبحث عن المعنى واكتشاف أمريكا مسألة الآخر، فأما الأول فبقيت تحت أثر الصدمة منه مدة أسبوعين، وكنت أحياناً لا أستطيع متابعة شحنة المعلومات لحجم الحزن والمعاناة الإنسانية فيها، وأنا أقرأ قصة فناء شعب بالكامل من شعوب شمال قفقاسيا بعد تهجيرهم على يد الروس والأتراك معاً، ولم يبق من يروي قصته سوى شخص واحد عاش في تركيا واستطاع كاتب أن يلتقط آخر أخبار المأساة. في هذه القصة الرومانسية المروعة، التي تتوالى فيها فصول

الحزن والهلاك، لا يملك الإنسان من حبس دموعه مرات ومرات، وهو يرى النهاية المترعة بالعذاب، لشعب يتهاوى إلى العدم تدريجياً. وأما الثاني فيروي أهوال معسكر أوشفيتز على يد النازيين، حيث يُقرر مصير الإنسان بين المحرقة والحياة، في صورة الأعمال الشاقة، بإشارة أصعب من ضابط نازي. وأما الثالث فهو الذي يروي مسح حضارات الأمريكيتين على يد الإسبان وإبادة سبعين مليون من البشر في عمل جهنمي تعجز عنه أبالسة الجحيم، ولا غرابة فآدم يتأرجح بين أن تسجد له الملائكة أو يسابق الشيطان إلى جهنم ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

### عملية الامتلاك والتسمية ونهب العالم الجديد منذ اللحظة الأولى

كانت البداية مع يوم 12 تشرين الأول/ أكتوبر حينما وطأت قدما كولومبس جزر البهاما في البحر الكاريبي، حيث أحسن استقباله أهالي الجزيرة الطيبين نافحينهم بالهدايا والطعام وطيور البيغاء، لإسبان يسيل لعابهم للذهب الذي لم يكن أهل الجزر يعطونه هذه الأهمية الكبرى، وكانت الرحلة الأولى لا تزيد عن التعرف إلى الجزر، استعداداً للاستعمار وإبادة السكان الأصليين، ومنذ اللحظات الأولى تم تسجيل ملكية الأراضي باسم ملوك إسبانيا، كما منحت الجزر أسماء؛ فالأرض ليس لها أصحاب، وإذا كان لها أصحاب فهم أشياء تتبع الأرض، وجزيرة (جوانا هاني) أصبح اسمها (سان سلفادور) في عملية إلغاء كاملة للآخر، تمهيداً للتصفية الجسدية، وكان حظ السكان الأصليين سيئاً، بانقطاعهم التام عن حضارات العالم القديم، فلم يكونوا يعرفوا الحصان ولا الحديد فضلاً عن البنادق والمدافع وتقنيات

القتال التي تم تطويرها في ذلك الوقت في العالم القديم .

### كيف وصف كولومبس أهالي الجزيرة في اللقاء الأول

وعندما أطلت أشجار النخيل الباسقة من ظهر الجزيرة وقعت عينا كولومبس على سكان قبائل (التاينو) الذين لن يبقى منهم أحد بعد فترة فوصفهم على الشكل الآتي: شباب بصحة ممتازة، بقوام رفيف وأشكال رشيقة، كانوا يتقلون عراة كما ولدتهم أمهاتهم، رجالاً ونساءً في براءة وانسجام كاملين مع الطبيعة وكأنها جنة عدن، مسالمين طيبين ودعاء في غاية الكرم، كان معظمهم شباباً لا يتجاوز الثلاثين، كان نموهم رائعاً، وأجسامهم رشيقة لا يعلوها التغضن والبدانة، وجوه مليحة في غاية الجمال خاصة عيون النساء، في جلود صقيلة ملتمة لم تعرف التجعيد، وكان شعرهم فاحماً كثيفاً وكأنه عرف الفرس .

إلا أن مذكرات كولومبس تفتح عيننا في النهاية على ملاحظة مشؤومة ستتحول إلى كارثة على أهل الجزيرة في رحلاته الثلاثة القادمة: إنهم لا يعرفون صناعة الحديد والسلاح والخيل والحرب، وأظن أنه بإمكان خمسين رجلاً إخضاع كل أهل الجزيرة .

مع هذا يجب أن نسجل لكولومبس أن رحلاته لم تكن تفسحاً مريحاً للنفس، ومغامرات طاردة للملل، بل كانت في بعض الأحيان رحلات مليئة بالأهوال، فبين رحلته الأولى (1492 - 1493 م) التي كشف فيها الساحل الشمالي لكل من جزيرتي كوبا وإسبانيولا، التي هي اليوم جمهورتي الدومنيكان وهايتي، ورحلته اللاحقة (1493 - 1496 م) التي كشف فيها جزيرة بورتو ريكو وجامايكا والساحل الجنوبي لكوبا، ليصل في رحلته الثالثة (1498 - 1500 م) إلى الحافة

الشرقية من أمريكا الجنوبية، حذاء فنزويلا الحالية مصطاداً مرة أخرى جزيرة ترينيداد (وتعني الثالوث المقدس مثل اسم القنبلة الذرية الأمريكية الأولى تعبيراً عميقاً عن روح الحضارة الغربية المسيحية) ليقفز في رحلته الأخيرة (1502 - 1504 م) إلى الساحل الشرقي من أمريكا الوسطى فيكتشف هذه المرة أرض القارة وليس الجزر فقط، ولكنها كانت رحلة لا تنسى محفوفة بالأهوال فكتب في مذكراته يصف تلك الرحلة:

### يوميات الرحلة الأخيرة

وفي الخامس من كانون الأول/ ديسمبر عام 1502 م هبت ريح عاصفة مصحوبة بالمطر ووصف كولومبس في يومياته قوتها العاتية: «ظللت تائهاً لمدة تسعة أيام وضاعت كل بارقة أمل في الحياة. لم تر عينا قط بحراً كهذا هائجاً عالي الأمواج يغطيه الزبد. إن الرياح لم تمنع تقدمنا فحسب بل إنها لم تتح لنا أي فرصة للسير وراء لسان من الأرض يعتصم به من العاصفة ومن ثم اضطررنا إلى مواصلة السير في هذا المحيط الملعون ونحن نتقلب فيه كالقدر حين يغلي على النار، ولم تبد السماء قط مخوفة كما بدت في هذا اليوم فقد ظلت يوماً وليلة ترسل شواظاً من نار يلسعنا كألسنة اللهب. وتفجر البرق بشدة حتى أنني كنت في كل مرة أتساءل عما إذا كانت الرياح قد حطمت صواري وانتزعت قلعوعي. وكانت ومضات البرق تتوالى بعنف وبصورة مروعة حتى اعتقدنا جميعاً أن السفن توشك أن تنفجر. ولم تتوقف الأمطار عن الهطل طوال ذلك الوقت. وأنا لا أقول إنها كانت تمطر فقد كانت المياه تتدفق حتى خيل الي أنه طوفان آخر. وكان الرجال منهوكي

القوة وتمنوا الموت ليضع حداً لآلامهم المروعة<sup>(2)</sup>، وعندما رست سفينته على شاطئ جزيرة جامايكا اضطر للبقاء هناك أكثر من سنة حتى تمكن من إخبار رفاقه في جزيرة إسبانيولا من أجل إنقاذه وإرسال سفينة تقله من الجزيرة، ومن أجل الوصول إلى جزيرة إسبانيولا اضطرت مجموعة من الرجال في الانطلاق لمسافة أكثر من أربعمائة كم في زورق من جذع شجرة مات بعضهم في الطريق في رحلة مغامرة مليئة بالتحدي والعذاب، شاهدة في الوقت نفسه على مدى الطموح وروح المغامرة عند المكتشفين الأوائل وطبيعة الروح الجديدة المتدفقة في صدورهم.

وفي النهاية تحفنا كولومبس في مذكراته بقصة تروي عقلية سكان جزر الكاريبي مع خسوف القمر فكتب يقول:

### قصة خسوف القمر في جامايكا

وما أن حل شهر شباط/ فبراير حتى خفض هنود جامايكا هداياهم من الطعام للملاحين، الذين جنحت سفنهم إلى شاطئها، إلى الحد الذي بدأ فيه الإسبان يتضورون جوعاً، وكان مع كولومبس تقويم فلكي جاء بحساباته عن خسوف القمر أنه سيحدث يوم 29 شباط/ فبراير؛ فاستدعى زعماء الوطنيين، وأنذرهم بأن الله غاضب عليهم غضباً شديداً، بسبب سماحهم بتجويع رجاله ودفعهم للمعاناة، وأنه - عقوبة لهم على ذلك - سوف يحجب عنهم ضوء القمر، ويجعل عليهم الليل سرمداً إلى يوم القيامة؛ فسخرؤا منه، ولكن عندما بدأ

(2) قصة الحضارة - ويل ديورانت - الجزء 23 - ص 175.



خسوف القمر أصيبوا بالذعر وسارعوا بإحضار الطعام إلى السفن، فطمأنهم كولومبس حينها قائلاً: إنه دعا الله أن يعيد للقمر ضياءه وبهجته فاستجاب له، وأنه وعده سبحانه وتعالى أن الهنود سيطعمون المسيحيين جيداً بعد هذا. وعاد القمر للظهور!<sup>(3)</sup>.

### حملة التطهير العرقي الإسباني في العالمين

يمكن أن نقول إن حظ العالم الجديد كان سيئاً بتدفق الإسبان الذين خرجوا لتوهم من معركة الاسترداد، بعد أن دحروا المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية، فكان رد الفعل الإسباني مروعاً عدوانياً إلى أبعد الحدود، غير معقول وغير مبرر في غاية القساوة والغباوة معاً، في اتجاهين في إلغاء الآخر، في تفرغ شبه الجزيرة الأيبيرية من المسلمين واليهود معاً، في حملة تطهير عرقي مروعة يتلمذ على أيديهم الصرب فيها وفي تفرغ الجزر من سكانها الأصليين في حملة إبادة لا تعرف الرحمة، على نحو غير مفهوم، فكراهية المسلمين مبررة من خلال صراع حرب الاسترداد التي دامت ثمانين قرون. ولكن يبدو أن حالة الحرب المستمرة حولت الناس من الطرفين إلى وضع نفسي مرضي (Psychopath) لا يحسن التصرف ضد أي كائن إنساني، فالالتقاء بالإنسان يبرمج فقط مشاعر الكراهية، ولكن علم السيكولوجيا يفيدنا أن هذا النوع من المرض مدمر، فهو يغتال صاحبه في النهاية، ويلتهم كل المشاعر الإيجابية، فالحب مشاركة، والكراهية نفي وإلغاء وتهميش واستبعاد الآخر. وهو بالمقابل شهادة للعالم الإسلامي على تميزه، عندما يحافظ على الإثنيات بدون إبادة وتطهير

عريقي وتهجير جماعي، وفي الزمن العثماني خطر في بال البعض مقابلة الإسبان بأفعالهم، لتهجير كل مسيحيي الدولة العثمانية، ولكن العلماء وقفوا في وجه هذا التوجه وحافظ العالم العربي على التعددية فيه. فالأقليات المسيحية في العالم العربي شهادة تفوق تاريخية للعالم العربي على أنه أفضل شعوب الأرض تسامحاً مع الأقليات والإثنيات والعروق والأديان، وهو مجتمع يشبه طبيعة الرمل، تغوص فيه كل الأديان والأقليات والمذاهب والطوائف، وفي هذا الضوء يجب فهم الكيان الصهيوني أنه غير يهودي، بل هو أقرب أن يكون مصرفاً رأسمالياً وجيباً أمريكياً وجزيرة أوروبية مصطنعة مسلحة بالصواريخ النووية.

### سوء حظ القارة ومأساة الاصطدام الحضاري

يرى المؤرخ البريطاني ه. ج. ويلز (H. G. Wells) في كتابه معالم تاريخ الإنسانية (Outline of History) أن حظ أهالي أمريكا الأصليين كان في غاية التعاسة، باكتشافهم على يد أشد شعوب أوروبا تعصباً وانغلاقاً وضيقاً، أو كما وصفهم المؤرخ الأمريكي ديورانت، بأنهم كانوا كاثوليك أكثر من البابا نفسه، وأن إسبانيا كانت بلداً وسيطاً في عصر حديث فقال: «لم تكتف إسبانيا برفض حركة الإصلاح البروتستنتي فحسب، بل تجاوزتها إلى رفض النهضة أيضاً، اللهم إلا لحظة عابرة، وظلت وسيطة في عالم حديث، قانعة بنصيبها هذا... كان الكل متدينين من الملوك إلى قطاع الطرق (أشد كثرلثة من البابا)... وفي كل مكان كنت تجد القساوسة لا متسامحين أو راضين عن مباحج الحياة، بل ملقين جواً من الاكتئاب على كل شيء إلا

مصارعات الثيران؟!»<sup>(4)</sup>، وهو الجو العام الذي عرضه أيضاً فيلم كولومبس؛ من مطاردة القطط، والاعتقال على الشبهة، وحرق الكتب والساحرات في الساحات العامة، ونسبة المرض إلى تعكر مزاج المريخ، وتحريم الحمامات العامة، ومعالجة السعال الديكي بلبن الحمير، وبيع صكوك الغفران لدخول الجنة؛ مما عجل بحركة الإصلاح الديني فانفجرت ثورة (مارتن لوثر) في الأرض الألمانية، من هذا الانحراف الذي لم يهضمه قط .

### العلاقة بين نمو الرأسمالية الحديثة وحركة الإصلاح الديني

وحيث حدثت حركة الإصلاح الديني واشتد عود الاتجاه البروتستانتي انفجرت الثورة الصناعية لاحقاً بفعل تغير المناخ العقلي، من التعصب والانغلاق، إلى حرية الفكر وحرية الكسب، كما انتبه إلى ذلك عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر (Max Weber) عندما لاحظ بروز ظاهرة الرأسمالية الحديثة، حيث تكاثرت البروتستانت، سواء الأصليين أو الفارين من الاضطهاد، كما في (الهوجنوت) وهم البروتستانت الفرنسيين، الذين فروا من فرنسا باتجاهين: برلين ولندن، فأنعشوا الصناعة وحسنوا الاقتصاد، أو لاحقاً إلى العالم الجديد فولدت القوة العالمية الحديثة الضاربة: الولايات المتحدة، التي بُنيت من البروتستانت الفارين من تعصب القارة الأوروبية وانغلاقها، وسجل هذه الظاهرة في دراسة منتقاة بعناية، بعنوان الروح الرأسمالية والأخلاق البروتستانتية *"The Protestant Ethic and Spirit of Capitalism"* (بالمناسبة كلمة بروتستانت معناها المحتج المعترض

(4) ويل ديورانت، الجزء 29، ص 81 .

وهي تحمل في تضاعيفها الاحتجاج على انحراف الكنيسة) وأمريكا اليوم تُحكم من قبل البروتستانت البيض، وحيث تمكنت الكشلكة توقف التقدم، مثل إسبانيا والبرتغال وبولونيا وإيطاليا، وفي فرنسا الكاثوليكية تم كسر هذا الاستعصاء بالثورة الفرنسية التي طرحت شعاراً: اشنقوا آخر إقطاعي بأمعاء آخر قسيس، ومن هنا يمكن فهم كارثة استئصال حضارات العالم القديم بمنجل التعصب، جنباً إلى جنب مع استئصال الإسلام من شبه الجزيرة الإيبيرية، التي لم تكن في مصلحة الإسبان قط، في حماقة تاريخية، تدل على ما يفعل التعصب بأهله، عندما هوت إسبانيا من قوة عالمية، إلى دولة أوروبية من درجة ثانية وثالثة هي والبرتغال، تستحم في الفقر والتخلف معاً.

### لنقرأ التاريخ في بدايته ونهايته

يقول ديورانت: «وحين وصل فيليب الثاني إلى إسبانيا 1559 م استقبل في بلد الوليد بتنفيذ حكم للمحكمة شهد فيها 200000 شخص يرأسهم الملك عشرة من المهترطين يشنقون واثنين يحرقان أحياء والتمس أحد المحكومين عليهم الرأفة من فيليب فرفض واكتسب إعجاب الشعب بقوله: لو أن ابني كان شقياً مثلك لحملت بنفسني الحطب لأحرقه»<sup>(5)</sup>.

يقول المؤرخ البريطاني (ويلز) في معرض تعليقه على كارثة اللقاء الحضاري بين أوروبا وسكان أمريكا أو العالم الجديد «ومن سوء حظ العالم أن كان أول من بلغ أمريكا من الأوروبيين، هم هؤلاء الإسبان القليلو الاستطلاع، المجردون من أي رغبة علمية والظالمون إلى

(5) قصة الحضارة، ويل ديورانت، الجزء 29، ص 82.

الذهب، والمشبعون بروح التعصب العمياء الراجعة إلى حرب دينية قريبة العهد. لم يصدر عنهم غير ملاحظات قليلة ذكية عن طرائق هذا الشعب البدائي وفكراته. وقد أعملوا فيهم السيف وسرقوا ثرواتهم واستعبدهم وعمّدوهم مسيحيين، ولكنهم لم يدركوا إلا القليل العرف والعادات والأفكار الأصلية التي تغيرت واختفت أمام همجيتهم. كانوا في تدميرهم وعدم مبالاتهم وقلة تقديرهم أشبه بالنازليين البريطانيين الأوّل في تسمانيا، الذين كانوا يطلقون الرصاص عند رؤيتهم رجال العصر الحجري القديم الذين كانوا لا يزالون باقين هناك، ويضعون لهم اللحم مسمماً ليأكلوه»<sup>(6)</sup>.

ولم يكن الذهب الذي تدفق من أمريكا مع إبادة السكان ونهب العالم الجديد، سوى لعنة (ميداس) الأسطورية<sup>(7)</sup> فمع تدفق المعدن الأصفر قفزت الأسعار بشكل جنوني، حولت الغنى إلى فقر، بفعل تضخم الأسعار وهي ظاهرة التضخم النقدي المعروفة في الاقتصاد.

### ظاهرة التسمم بالذهب

ورفع تدفق المعادن النفيسة الأسعار رفعاً جنونياً فبلغت نسبة الغلاء في الأندلس 500 في المائة في القرن السادس عشر، وصعدت

(6) معالم تاريخ الإنسانية - ه. ج. ويلز - ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - المجلد الثالث - ص 1032 - 1033.

(7) تقول الأسطورة اليونانية أن ميداس استجابت له الآلهة بتلبية رغبته في ما يريد فأراد أن يتحول كل شيء تمسه يده إلى ذهب، ولكن فرحته لم تظل سوى دقائق معدودة، لأن هذه الاستجابة تجلت على شكل لعنة غير قابلة للتصديق والإعادة، فالماء الذي يشرب والطعام الذي يتناول تحول إلى ذهب فمات جوعاً وعطشاً ورعباً وبكاءً.

الأجور لتلحق بتكاليف المعيشة في سباق محموم أصبح في النهاية عديم الجدوى. وكان كثير من الصناعة يقوم على أكتاف المغاربة (المورسكو) وهم المسلمون الذين اعتنقوا المسيحية ظاهرياً. لقد كان عامة الإسبان يحتقرون العمل ويقنعون بالقليل في تفلسف؛ فالنوم في كوخ، والاصطلاء في الشمس ومداعبة القيثارة، والبكاء على شح الحسان، ذلك خير من الكدح والعرق شأن العبيد والمسلمين. وقد ساهم طرد المغاربة عام 1609 مع غلاء المنتجات الإسبانية في اضمحلال الصناعة في إسبانيا<sup>(8)</sup>.

وأما قرار طرد المسلمين من الأندلس المشهور المعروف بقرار عام (1609) فهي دراما تاريخية، فقد تم طرد ليس المسلمين بل المسيحيين الذين هم من أصول إسلامية، أو يشتبه أن لهم أصول إسلامية، ومن المعروف أن غرناطة سقطت عام (1492) م وأما قرار الطرد هذا فهو بعد (114) عاماً أي بعد ثلاثة أجيال من التنصير فهذا هو التاريخ الأوروبي. وكان طرد اليهود الكامل قد تم قبل هذا بـ 117 سنة ليفجر عبقرية باروخ سبينوزا في هولندا، وبين الحين والآخر تقع بعض الاكتشافات العرضية المذهلة عن التاريخ الإسباني من العثور على ما يزيد على ألف هيكل في أوضاع مرعبة في سردابٍ سري تحت كنيسة (يسارع الإعلام الغربي إلى نسبته فوراً إلى العرب وعندما تفوح رائحة محاكم التفتيش تطوى القضية خلال ساعات كما رأيتُ ذلك في التلفزيون الألماني) أو حادث صدم سيارة لجدار قديم في مدينة بلنسية (Valencia) فيفتح الجدار العريض كاشفاً عن مكتبة

عربية محفوظة عبر القرون في عمق الجدار. لنسمع شهادة التاريخ:

مصر مسلمي بلنسية في عهد فيليب الثالث (1598 - 1621 م) لا يقتصر الأمر في الواقع على مدينة واحدة، ويمكن أن نفهم حجم المأساة حينما نتصور طرد عشرين بالمائة من سكان بلد هم اليد العاملة المنتجة فيه. يقول ديورانت عن الملك فيليب الثالث: ولكن مشروعه التالي كان لا يقل تكلفة عن الحرب. كان مسقط رأسه بلنسية، حيث يعيش ثلاثون ألفاً من أسر المغاربة، وكان فيه من التقوى ما يكفي لتبغيضه في هؤلاء المزارعين والصناع الذين كان لجدهم واقتصادهم الفضل في احتفاظهم باليسر وسط فقر المسيحيين المستكبر العاجز. وأعرب سرفانتس عن الخوف من أن هؤلاء المغاربة الذين ارتفعت نسبة المواليد فيهم عنها في المسيحيين القدامى لندرة العزوبة عندهم، سيسودون إسبانيا عما قليل، وقدم خوان دي ريبيرا رئيس أساقفة بلنسية المذكرات إلى فيليب الثالث عام 1602 م يحضه فيها على طرد جميع المغاربة الذين تزيد أعمارهم على السابعة؟! وقال في تفسيره للكوارث التي نزلت بإسبانيا بما فيها تدمير الأرمادا، إنها عقوبات أنزلها الإله لإيوائها الكفار، فهؤلاء المسيحيون المزيفون يجب ترحيلهم أو إرسالهم لسفن العبيد، أو شحنهم بالمراكب إلى أمريكا ليشتغلوا عبيداً في المناجم. وبرغم تحذيرات البابا، وبرغم احتجاجات ملاك الأراضي الذين كانوا ينتفعون من مستأجريهم المغاربة، أصدر ليرما عام 1609 م مرسوماً أمر به جميع مسلمي أقليم بلنسية - مع بعض الاستثناءات - بأن يستقلوا خلال ثلاثة أيام مراكب أعدت لهم لينقلوا إلى أفريقيا، غير حاملين معهم من المتاع أكثر مما تطيقهم ظهورهم. وتكررت الآن المناظر التي رافقت طرد اليهود قبل

117 عاماً. وأكرهت الأسر البائسة على بيع أملاكها بخسائر فادحة، وساروا إلى الموانئ يتعشرون في شقائهم، وسرق الكثيرون منهم، وقتل البعض في طريقهم إلى السفن أو وهم على ظهورها. فلما وصلوا إلى أفريقيا تهللوا لبلوغهم أرضاً مسلمة، ولكن ثلثهم هلكوا جوعاً أو قتلوا باعتبارهم مسيحيين. وفي شتاء 1609 - 1610 م جرت حركات طرد أخرى لمن بقي من المغاربة في غير بلنسية، وهكذا نزعت أملاك 400000 من أكثر أهل إسبانيا إنتاجاً وأقصوا من البلاد، وكان هذا في أعين الشعب أمجد منجزات الحكم، وتطلع الإسبان السذج إلى عهد أكثر رخاءً، بعد أن استرضوا الإله بتخليص إسبانيا من الكفار. واغبتبت الحاشية بالحصيلة التي تجمعت من مصادرة أملاك المغاربة، فكان نصيب ليرما منها 250000 دوكاتية ذهب، ونصيب ابنه 100000، ونصيب ابنته وصهره 150000.

### عاقبة طرد المسلمين من إسبانيا

وما حلت سنة 1618 م حتى كان جشع ليرما وإهماله، وإسراف الملك وحاشيته وفساد الموظفين، وتمزق الاقتصاد بخروج المغاربة، قد هبط بإسبانيا إلى دركٍ نهب حتى هذا الملك الخامل إلى ضرورة التغيير... وفي عام 1621 أنذر مجلس قشتاله الملك بأن مُلكه في طريقه إلى الإفلاس والدمار لفداحة الأعباء والضرائب والرسوم، وتوسل إليه أن يعتدل في نفقاته. فتقبل النصيحة ولكنه مضى يسلك مسلكاً ملكياً مترف الجهاز والصيانة. في هذه السنة بعينها مات مخلفاً لولده ملكاً عريضاً لاحول له ولا قوة، وحكومة فاسدة لا كفاية فيها، وشعباً هوى إلى درك الفاقة والتسول والسرقعة، وطبقة استنكفت أن



تؤدي ضرائبها، وكنيسة خنقت فكر الشعب وحطمت إرادته وأحالت خرافاته أكداً من الذهب<sup>(9)</sup>.

وفي الوقت الذي كانت الثقافة الإسبانية تقوم بأكثر حماقة تاريخية في إلغاء التعددية، ونفي الآخر سواء في العالم القديم بطحن مسلمي الأندلس، أو أهالي أمريكا الطيبين البسطاء وتسلب عليهم كل الوسائل الممكنة لإبادتهم بما فيها الحرب البكتريولوجية، كانت إسبانيا في الواقع تلغي نفسها، فمن يلغي الآخرين يقوم في الحقيقة بإلغاء نفسه، فهو سلاح ينعكس على من يستخدمه، وهكذا انهارت الإمبراطورية الإسبانية بمرض انتحار داخلي بحت، واليوم عندما يزور الإنسان إسبانيا يلاحظ أمرين: البصمة العربية التي لا تقبل الزوال، ففي كل مكان اسم عربي، وبجانب مدريد مازال وادي الحجارة (بالإسبانية: وادا لاخارا) موجوداً، وانتقل اسمه إلى أمريكا الجنوبية، كما يلاحظ المقاهي التي لا تنتهي فبين كل مقهى ومقهى مقهى، وبين كل بنك وبنك بنك، شهادة على شعب يعيش على السياحة ومصارعة الثيران، ويتقن إضاعة الوقت، ولا ندري هل الأخير مرض عربي أو إسباني؟  
وأما أخبار مدمرو الحضارات، وقتلة الأمم في العالم الجديد، فكانت تتم بدون أن يعرف الوعي العام الأوروبي عنها شيئاً، فلا الدش ينقل بسرعة الضوء، ولا الفاكس يحرر أخبار الرعب، وهو ما سيصدم به القارئ مع المقالة القادمة في ضوء المعلومات الجديدة، التي بدأ كشف النقاب عنها مؤخراً.

(9) ديورانت، قصة الحضارة، الجزء 29، ص 100-101.

## هولوكوست العالم الجديد (الوجه الآخر لاكتشاف أمريكا) (2)

يعتبر اكتشاف أمريكا أكثر حوادث التاريخ إغراقاً بالمفارقات، وأشدّها ترويعاً، وأدعاها إثارةً للدهشة والحزن معاً. قصة كتبت سطورها بالدموع، وغمست صفحاتها بالدم؛ ففي الوقت الذي توقفت الحروب الصليبية في الشرق، اندفعت بكل زخم إلى الغرب، مع فارق أن الشعوب الجديدة لم تكن مثل الشعوب الإسلامية تملك قدرة الدفاع عن قدرها التاريخي، بعنصرين حسماً الصراع لمصلحة الغرب، التفكك الداخلي، والتفوق التكنولوجي في إدارة الحرب، بتطوير الطاقة النارية والمدافع، وعند هذا المفصل التاريخي تم تشكل العالم الحديث الذي ننتمي إليه؛ فبقدر ما كان المكتشف (الدون كريستوبال كولون) خرافياً ينتسب إلى عقلية القرون الوسطى المشحونة بالأحقاد الصليبية<sup>(1)</sup> بقدر ما تم رسم قدر العالم الإسلامي والغربي معاً عند هذه

(1) يرى عالم السوربون (تزفتيان تودوروف) أن أكثر أسباب رحلة كولومبس لم تكن في البحث عن الذهب للذهب، بل كان الذهب الوسيلة التي يستطيع بها تهئية جيشين في مدى 12 سنة (خطة خرافية كاملة كما نرى) بمائة ألف راجل وعشرة آلاف فارس لاجتياح الشرق الأوسط واسترداد بيت المقدس، ظهر هذا واضحاً في إلحاحه على الملكة إيزابيلا الإسبانية أن تُقسم على ذلك، التي استجابت للإلحاح حتى يتابع مشروعه، وكذلك في الخطة التفصيلية التي =

النقطة بالذات، أن ينزل الأول إلى هاوية الفقر والضعف، أن ينزوي ويتهمش، أن يتحول إلى دول المحيط والأطراف (على حد تعبير المؤرخ الأمريكي باول كينيدي)<sup>(2)</sup> أن يعاني من التبعية والتجزؤ والهيمنة والاختراق، أن يقع تحت ضغط الانسحاق والتفكيك. بقدر ما يصعد الثاني إلى السيادة العالمية والثروة المتراكمة والتقدم الحضاري والإنجاز التكنولوجي والسطوة الكونية؛ فريتشارد قلب الأسد الأمي، لم يعد أحفاده أميين، وحجم هذا الأسد كبر إلى ما لا نهاية فاستولى على بحار العالم أجمعين، وبنى لنفسه بيتاً على سطح القمر.

كانت الحضارة تكتب بالمداد الأسود من اليمين إلى الشمال، فكتبت بالدم من الشمال إلى اليمين.

اكتشاف أمريكا لمن؟ وفي عين من؟

تعطي كلمة اكتشاف ظلالاً عجيبة من الانتفاخ الأيديولوجي الغربي، فالقارة التي تم الوصول إليها كانت مليئة بالسكان، مزدهرة بالحضارات، لها مدنها العامرة بالحركة، يحمل الناس والمدن أسماءهم الخاصة بهم. كل هذا تم مسحه بالكامل من أسماء ومعالم ودين، فالحضارات طمست، والمدن نسفت، والشعوب أُبِيدت، والثقافات أحرقت، وكأنه يوم القيامة يوم الانفطار العظيم.

---

= عرضها على البابا - يراجع في هذا كتاب (فتح أمريكا - مسألة الآخر تأليف تزفتيان تودوروف) - ترجمة بشير السباعي - مع التقديم الرائع لفريرال جبوري غزول، ص 17 و18.

(2) يراجع في هذا كتاب التحضير للقرن الواحد والعشرين تأليف (باول كينيدي) ترجمة محمد عبد القادر وغازي مسعود - نشر دار الشروق.

تقول الكاتبة فريال غزول: «لكننا اليوم نتحرج من استخدام مصطلح (اكتشاف) لأن الكلمة تتضمن عنصرية وتمحوراً أوروبياً ومركزية غربية، فالمكتشف (بكسر الشين) أوروبي والمكتشف (بفتح الشين) هو القارة التي كانت حينذاك مجهولة بالنسبة لأوروبا والعالم القديم، ولكنها معروفة عند أهلها وعامرة بالسكان الأصليين ذوي الحضارة العريقة، مثل الأزتيك والإنكا والمايا وغيرهم. إن الاكتشاف هنا هو اكتشاف من وجهة نظر الأوروبي، لا من وجهة نظر أهل البلاد القاطنين فيها. وبهذا تكون كلمة اكتشاف التي استخدمتها أوروبا التوسعية حاملة في ثناياها أيديولوجية تضخم الذات الأوروبية وتغيب الآخر اللاأوروبي. فهي حتماً تعبير لا يمكن أن يستخدمه سكان القارة الأصليين، لأن هذا الحدث لم يكن اكتشافاً لهم على الإطلاق؛ وإنما كان اكتشافاً من وجهة نظر الآخر فقط»<sup>(3)</sup>.

### حركة انعطاف التاريخ

مشكلة العالم الإسلامي اليوم أنه لم يستوعب الصدمة الحضارية حتى هذه اللحظة، فهو لم يدرك طبيعة التغير الذي حدث في القرون الفارطة، فهو أقرب أن يعيش في القرن الخامس عشر الميلادي بأرقام هجرية، فالزمن قد توقف عنده منذ أمد بعيد. مشكلته أنه لم يكن (شاهداً) على صناعة العصر الحديث؛ فضلاً عن أن يكون مشاركاً في طبخه وتهيئته، فالعصر الحديث صناعة منفردة من أحفاد ريتشارد قلب الأسد. فإذا أردنا معرفة العالم المعاصر فيجب أن نرجع لفهم التكوين

(3) فتح أمريكا - تقديم فريال غزول، ص 5.

الجنيني الأول؛ إن لم يكن التشكل الكروموزومي الخلوي البدئي له .  
وكما يقول المفكر الجزائري (مالك بن نبي): إن الذي يدخل العصر  
ولم يستوعب طبيعة الإضافات الجديدة لن ينجو من السخرية بحال .

إن الأمر الذي يدعو إلى الضحك حقاً، أن الذي دشّن العصر  
الحديث رجل لا ينتسب إلى العصر الحديث بشيء، فمن سخرية  
القدر وعجائب الصدف، أن هذا الرجل المغرق بالخرافة، يهيهء  
الجيوش في عقله لدخول بيت المقدس هو الذي أدار عجلة التاريخ  
فعالاً، وبدل العالم الذي نعيش فيه من حيث لا يدري هو ولا يدري  
أحد، في اتجاه أعمى تماماً، لم يتنبأ به أحد من قبل .

يقول عالم السوربون (تزفتيان تودوروف) الذي أثار ضجة عالمية  
بكتابه فتح أمريكا - مسألة الآخر الذي رافق نشره مرور النصف  
الألفي لذكرى رحلة كولومبس: «فتح أمريكا هو الحدث الذي دشّن  
وأسس في واقع الأمر هويتنا الحاضرة؛ وحتى أن كل تاريخ يسمح لنا  
بفصل أي فترتين هو تاريخ تعسّفي، فإنه لا يوجد تاريخ أنسب لتمييز  
بداية العصر الحديث من عام 1492، العام الذي يعبر فيه كولومبس  
المحيط الأطلسي، ونحن جميعاً الأحفاد المباشرون لكولمبس، بقدر  
مالكلمة بداية من معنى، فمنذ عام 1492 نجد أنفسنا كما قال (لاس  
كاساس)<sup>(4)</sup> في ذلك الزمن الجديد إلى هذا الحد، والذي لا يشبهه أي  
زمن آخر، فمنذ ذلك التاريخ انكمش العالم، حتى وإن كان الكون قد  
أصبح لانهائياً، وصار العالم صغيراً. لقد اكتشف الناس الكلية التي

(4) ينقل عن كتاب 8 "Historia De Las Indias".

يشكلون جزءاً منها، بينما كانوا حتى ذلك الوقت يشكلون جزءاً ليس فيه كل»<sup>(5)</sup>.

### تدمير حضارة المكسيك

إن الفيلسوف الألماني أوسفالد شبينجلر (Oswald Spengler) يكتب في مؤلفه الموسوم أفول الحضارة الغربية *“Der Untergang Des Abendlandes”* أسطراً حزينة مبكية عن تدمير حضارة الأزتيك، والمايا، والإنكا. بيد عصابة كورتيس وكولومبس وبيثارو الإسبان، الذين عاصروا إبادة المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية في القرن السادس عشر الميلادي، ليصل إلى حقيقة مروعة، تفصح عن جريمة قتل تاريخية، وإبادة لمجتمع بكامله، ومسح لحضارة مزدهرة، بهذه الكلمات: «حضارة المايا لم تمت جوعاً ولم تكبح أو يعترض سبيلها معترض، بل إنما قتلت قتلاً، وهي في أوج ازدهارها، ودمرت كما تدمر زهرة عباد الشمس إذا قطع أحد المارة تاجها. . . أقول كل هذه الدول وبكل ما لها من أرصدة حضارية لم تندثر لحرب بائسة، بل جرفتها خلال سنوات قليلة عصابة ضئيلة العدد من اللصوص ودمرتها تدميراً، جعل الآثار التي خلفها السكان بلهاء لا تحتفظ حتى بأي ذكرى عن تلك الحضارة. . .» ثم يصف بحزن وألم آثار الحضارة وأطلالها الباكية: «فمن المدينة العملاقة تينوشتلان (Tenochtitlan) لم يبق حجر واحد لم يغيبه الثرى في أحشائه، وأذعنت العناقيد من مدن المايا العظيمة التي شيدت في غابات يوكاتان العذراء لهجمات

(5) فتح أمريكا، ص 11.

نبات الأرض واستسلمت لها استسلام من فترت همته وخارت عزمته، وهكذا ترانا اليوم لا نعرف اسم أي مدينة من تلك المدن. ولم تعف يد الدمار إلا عن ثلاثة من كتبهم، لكنها كتب لم يتمكن أحد حتى الآن من قراءتها. فعدد قليل من المدافع والبنادق بدأ هذه المأساة وأنهاها»<sup>(6)</sup>.

### كيف تم هذا الإنجاز الجهنمي؟

عكف عالم السوربون تزفتيان تودوروف في دراسة كاملة لاكتشاف السر المغيب خلف الإنجاز الجهنمي، الذي أشرف على تنفيذه الإسبان في القرن السادس عشر، وقام بمحاولة (سيمبوطيقية - تاريخية) أي تطبيق اللغة على التاريخ، واللغة هنا ليست لغة الإشارات والنطق بل كل تعبيرات الحضارة من البناء واللباس والطعام والعادات والقيم والكتب، وكانت المهمة أمامه شاقة، كون الضحية غير حاضرة في محكمة التاريخ، فكيف يستطيع استنطاق الكتب وكل من كتبها تقريباً هم من الإسبان الذين أشرفوا على الجريمة التاريخية وتنفيذها؟! مشى تودوروف في ثلاث محاور لكشف اللغز حول تدمير حضارات العالم الجديد وصب جهوده على حضارة الأزتيك: 1- دراسة ماوراء الأسطر في كتابات الإسبان الاستعماريين 2- دراسة نصوص محدودة مما كتبه جيل متأخر من بقايا أهل البلاد الأصليين 3- ثم دراسة بعض النصوص النادرة لأناس استيقظ ضميرهم على حجم الإبادة، فكتبوا في لحظات موتهم وشيخوختهم شهاداتهم للتاريخ مثل المبشر (لاس

(6) تدهور الغرب - أوسفالد شبنجلر - ترجمة أحمد الشيباني - الجزء الثاني -

كاساس)، وكان ما لفت نظره حجم الإبادة الجهنمية، فكيف أمكن في مدى جيلين إرسال سبعين مليون من البشر إلى المقابر؟!  
يجيب تودوروف إن عدد سكان الأرض في عام 1500 ميلادي يبلغ نحو من 400 مليون نسمة، يسكن منهم 80 مليوناً في القارتين الأمريكيتين، وبحلول أواسط القرن السادس عشر يتبقى من هذه الملايين الثمانين عشرة ملايين؟! أما إذا قصرنا حديثنا على المكسيك، فإن عدد سكانها عشية الفتح يبلغ 25 مليوناً؛ بينما يبلغ في عام 1600 ميلادي مليون نسمة، ويعلق تودوروف على هذه الإبادة السكانية غير المفهومة بالشكل الآتي: وإذا كانت كلمة إبادة قد استخدمت استخداماً دقيقاً في الحديث عن حالة ما، فهذه الحالة هي تلك التي نتحدث عنها. فهذا رقم قياسي ليس فقط من الناحية النسبية (تدمير بنسبة 90% في المائة وأكثر) وإنما من الناحية المطلقة فقط، لأننا نتحدث عن انخفاض لعدد السكان يقدر بـ (70) سبعين مليون إنسان. ولا يمكن أن تقارن مذبحه من مذابح القرن العشرين الكبرى بهذه المجزرة<sup>(7)</sup>.

### إفناء وتفريغ جزر الكاريبي من سكانها الأصليين

وتضيف مجلة الشبيجل (المرأة) الألمانية في عددها الثاني من عام 1992 ميلادي بمناسبة مرور 500 عاماً على اكتشاف أمريكا<sup>(8)</sup> فتتابع رواية القصة الحزينة في ستة حلقات متصلة بلحن شجي حزين تحت عنوان نهب العالم الجديد وباللغة الألمانية *Der Raub der*

(7) فتح أمريكا، ص 143.

(8) عدد مجلة الشبيجل الألمانية - رقم 2 الصادرة في 6 كانون الثاني/ يناير عام

1992 م من عامها 46 - الصفحة 104.



”*Neuen Welt* فتشير إلى مصير شعوب جزر البحر الكاريبي التدميري الذي لحق بالفناء: (ذلك أن لاس كاساس عام 1542 ميلادي في رحلته الأخيرة لجزيرة إسبانيولا (جمهورية هايتي والدومينيكان في الوقت الراهن) لم يكن قد تبقى من شعب التاينو الذي كان يعمر الجزيرة قبل ذلك، وحسب الإحصائيات الإسبانية بالذات والتي أجريت من قبل، والتي كان يزيد فيها عدد الشعب عن مليونين لم يتبقَّ منهم أكثر من مائتي إنسان!)

### كيف تم إفناء شعب التاينو في جزر بحر الكاريبي

بعد سنوات قليلة من الفتح كان شعب (التاينو) من سكان الجزيرة قد انقرض، وغيَّب بطن الأرض، وأسرع إليه الفناء من كل جانب، وكان الرقم (واحد) الذي تمت إباده بين الشعوب الأصلية الوديعه التي كانت تعمر عالم جزر الكاريبي، التي تتابعت إلى عالم الإبادة والفناء بعد قرن من وصول السادة الإسبان، وكان تسارع الفناء يختلف من جزيرة إلى أخرى، فمنها ما كان سريعاً رهيباً ومنها ما كان بطيئاً زاحفاً، بحيث إن مسلسل الإبادة هذا غطى سماء الجزر التعيسة هذه كلها، من أمثال جزيرة كوبا وجامايكا وبورتو ريكو والأنتيل، وأما تعساء جزر الباهاما الذين شكل اكتشافهم - وكانوا الأوائل - بداية نحس مروعة فقد بدء بهم ليُحملوا دفعة واحدة كعبيد إلى الجزر الكبرى المجاورة، ولتُفرغ الجزر بالكامل منهم، ليكونوا الدفعات اللاحقة لعمليات الموت الجماعي، حيث قضوا نحبهم لاحقاً بشكل مروع، وأما جزيرة جامايكا التي كانت مسكونة بشكل كثيف من سكانها الأصليين والذين كان تعدادهم يفوق المليون، فلقد فوجئ

الاستعماريون الجدد (الإنجليز) الذين حملوا العبيد من أفريقيا؛ حيث فرغوا بدورهم من مواطنهم من أفريقيا، ليزرعوهم في هذه الجزيرة للقيام بمشروع استعماري جديد في إيجاد مزارع السكر - فكل السود الذين نراهم اليوم في شاشة التلفزيون في هايتي الحالية ليسوا من الشعب الأصلي الذي أبيد، بل من الأفارقة الذين نزعوا من أفريقيا وزرعوا بعدها في هايتي وجزر أخرى وأمريكا الشمالية - أقول فوجئت السفن البريطانية التي رست في سواحل الجزيرة المنكوبة بأن الجزيرة خالية من السكان تماماً بعد أن ابتلعتهم القبور الجماعية. وعندما رسى هيرناندو كورتيس مع 600 من رجاله الأفظاظ على ساحل المكسيك أحرق سفنه (كذا؟! ) وهدم مملكة الآزتيك، حيث بدأ حصد أرواح الناس بمنجل لا يعرف الرحمة وفاق كل تصور، فحسب الأرقام التي تم الاعتراف بها، أن عدد الناس الذين كانوا يعيشون في المكسيك (مملكة الآزتيك) في ذلك الوقت بلغ حوالي 25 مليوناً، وبعد ما يقرب من ثمانين عاماً حوالي عام 1600 ميلادي لم يبق على ظهر الأرض منهم إلا مليون واحد فقط؟! وابتلعت الأرض بالإبادة الجماعية وعلى مدى جيلين 24 مليون نسمة؟

### كارثة بحجم فلكي خرافي

ما حدث يعتبر من الأحداث القليلة التي فجع بها الجنس البشري في الألف الثانية للميلاد، والتي مازالت تبدو غير قابلة للاستيعاب، إنه حدث يعتبر في حجم رعبه الموسوم أشبه بكارثة كونية، أو إجرام شكل رقماً قياسياً خاصاً به، إنه وحيد في نوعه، ولا يمكن مقارنته بأي حدث آخر، ولا يمكن أن يشبه أي حمام دم من مذابح القرن

العشرين، أو يقترب من حجمه الفظيع، ذلك الذي حدث لشعوب أمريكا المسكينة.

على هذه الشاكلة الدموية اختصر العالم السيمولوجي البلغاري الأصل الذي يدرّس في السوربون (تزفتيان تودوروف) ما حصل لأفول وهلاك شعوب الأمريكيتين، وربطت مجلة الشبيجل الألمانية التي ذكرناها آنفاً بين مدينة غرناطة المحاصرة بالثلوج الكثيفة وقوات الملكة إيزابيلا ملكة قشتالة والملك فرديناند ملك أراجون التي توحدت للمرة الأولى في تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية، وكان أهم أمرين فعلاه هو طرد المسلمين من إسبانيا؛ ليلحقه مباشرة بعد انزياح القوة الإسلامية التي كانت تقف في وجههم، الانسياح في العالم بحثاً عن الذهب لتمويل حملات صليبية جديدة، من خلال الوصول إلى الصين واليابان، التي وصفها ماركو بولو في رحلاته قبل قرنين، عن أشياء خرافية عن الشرق وسحره وثرواته والذهب الذي يغطي القباب والسقوف، ولكن النكتة أن كولومبس بقي إلى آخر حياته يظن بوصوله إلى الهند بعد اكتشاف جزر الكاريبيك، ولذا سمي أهل أمريكا بالهنود، ولا علاقة لهم بالهنود من قريب أو بعيد.

إن النهاية المترعة بالعذاب في إبادة شعوب جزر الكاريبيك والمكسيك وأمريكا اللاتينية بوجه الخصوص على يد الإسبان، ليلحقهم بعد ذلك أولاد عمومتهم من أبناء أوروبا من الفرنسيين والإنجليز والبلجيكيين والهولنديين، ليكملوا الرسالة الحضارية في إبادة الهنود الحمر، والأفارقة السود على حد سواء، في رحلة الموت من سواحل أفريقيا عبر المحيطات السبع، يعتبر شيئاً مروعاً، ورقماً قياسياً، وعذاباً من مستوى نوعي، قاده وأشرف على تنفيذه أبالسنة

الاستعمار، وشياطين البحث عن الذهب، ورسول الحملات الصليبية الجديدة، التي تركت بصماتها على العالم حتى اليوم.  
لا غرابة أن نرى المبشر نفسه الذي رافق الحملات الصليبية الجديدة يصاب بصدمة نفسية لا تبارحه حتى لحظات موته الأخيرة، فيترك لنا أسطراً حزينة.

### لعنة المبشر الإسباني (لاس كاساس)

عندما نسمع (لاس كاساس) المبشر الإسباني قبل موته يكتب وصيته وهو يستمطر لعنة الله وغضبه على كل المجتمع الإسباني بهذه الكلمات النارية: «إنني أعتقد أنه بسبب هذه الأفعال المارقة والمجرمة والشائنة التي اقترفت بشكل بالغ الحيف والاستبداد والبربرية، فإن الله سوف يصب على إسبانيا غضبه وحنقه، لأن إسبانيا كلها قليلاً أو كثيراً، قد نالت نصيبها من الثروات الممتزجة بالدم والتي جرى اغتصابها عبر كل هذه الخرائب وكل هذه الإبادات»<sup>(9)</sup>، ولكن قبل أن نعرف مصير اللعنة التي كانت بمثابة تنبؤ مسبق لكل المصير الأوروبي، كيف صب المبشر الإسباني لعنته على الفتح الإسباني الذي رافقه، والذي يعطينا أيضاً شعور الاسف مضاعفاً عن الغياب الإسلامي العربي في سباق المحيط، الذي لو انتبه إليه العرب، لما يحدث في الغرب في لحظات التاريخية الحاسمة هذه، وكان عندهم الحس الحضاري، لم يكونوا فقط لينشروا لغتهم ودينهم ويفوز بالسباق العالمي، بل كانوا على الأقل

(9) جاءت الفقرة في كتاب فتح أمريكا . . . مسألة الآخر، ص - 257 - تأليف (تريفان تودوروف) ترجمة (بشير السباعي) تقديم فريال جبوري غزول، نشر دار سينا تحت رقم 9294 لعام 1991 م.

أسهموا في إنقاذ أرواح الملايين من البشر التي تساقطت بأسرع من الريح القاصف وبأنفه من الذباب الهالك.

### حمى الذهب والمذابح الجماعية الصليبية

وفي حمى البحث عن الذهب كان كل شيء مستباحاً، فيجب أن يتم الوصول إلى الثروة بأسرع وقت وأعظم التكاليف البشرية. المهم تكديس الذهب وإرساله إلى إسبانيا التي تسمت به، وأصبحت بلعنة ميداس من خلفه، فبقدر تدفق الذهب إلى إسبانيا، بقدر جنون الأسعار هناك، وزيادة الحملات العسكرية في أوروبا، من حرب الوراثة الإسبانية، إلى حرب الثلاثين سنة، إلى حرب المائة سنة، فكان الذهب المتدفق يصرف بأكثر مما جاء، لتنهيار إسبانيا في النهاية جزاءً وفاقاً، من فرط التوسع، والتورط في المصاريف والإنفاقات الخارجية، وهي الظاهرة التي مرضت بها كل الإمبراطوريات العظمى، كما شرحها المؤرخ الأمريكي (باول كينيدي) في كتابه صعود وسقوط القوى العظمى في القرون الخمسة الفارطة.

### بين السيانيد والصدمة البكتريولوجية

لجأت الحملات العسكرية الإسبانية في البدء إلى القتل كما فعل النازيون في الحرب العالمية الثانية. وكما انتهى النازيون إلى الأسلحة النوعية للتسريع في الإبادة الجماعية بأفران الغاز وسم السيانيد، فقد استخدم الإسبان أسلحة العهد القديم عندما لاحظوا ضعف مناعة سكان الأمريكيتين ضد أمراض العالم القديم، فنقلوا إليهم الجدري والحصبة، فكانوا يموتون بالجملة ويتساقطون مثل الذباب والبعوض موتاً جماعياً بأداة قتلٍ حضارية بالجملة؟! وينقل إلينا التاريخ الذي

تمت إماطة اللثام عنه مؤخراً، مناظر مقززة تدعو إلى الغثيان من فعل الإنسان بأخيه الإنسان.

كانت الأمهات تشنق على جذوع الشجر ويتم شنق الأطفال على أقدامهن، يقول ديجو دي لاندا: «هذا أنه رأى شجرة بالقرب من هذه المحلة، شنق قائد على فروعها عدداً كبيراً من الهنديات كما شنق على أقدامهن الأطفال الصغار. . . لقد اقترف الإسبان أهوالاً لم يسبق لها مثيل، إذ كانوا يقطعون الأيدي والأذرع والأرجل، ويقطعون أثداء النساء، وكانوا يلقون بهن في البحيرات العميقة ويطعنون الأطفال لأنهم لم يكونوا يمشون بالسرعة التي تمشي بها أمهاتهم. وإذا ما سقط أولئك الذين كانوا يقتادونهم مسلسلين من الأعناق، ولم يسيروا بالسرعة التي يسير بها رفاقهم، فقد كانوا يقطعون رؤوسهم حتى لا يضطروا إلى التوقف وفك أغلالهم». كان التسلي يتم بنزع الطفل الذي يرضع من ثدي أمه، ثم يرمى إلى الكلب الجائع ليفترس أمام عيني أمه؟ أما الزعيم الهندي (كواوهتيموك) فتم شنقه على فرع شجرة، ورحمة به يوضع صليب بين قدميه (ظاهرة التعميد قبل الموت؟!).

ومشى المسلسل الجهنمي على مراحل؛ فبعد الاستسلام تم تحويل شعوب الجزر والقارات إلى عبيد، ثم بدأت (مفرمة اللحم) في عملها الإجرامي على أكمل صورة، كما نقلت صور بعض المذابح في ما يدعى كوبا الآن وكانت تحمل اسماً آخر.

### مذبحة كاوناو في كوبا

تبدأ الحادثة بظرف عرضي، فعند وصول الإسبان إلى هناك انفتحت شهيتهم لتناول طعام الإفطار، في مجرى جاف لإحد الأنهار

حيث لفت نظرهم الأحجار الصوانية المكتظة، وهو ما ألهمهم فكرة شحذ سيوفهم. وعند وصولهم إلى القرية بعد هذا الإفطار على العشب، انفتحت شهية الإسبان لفكرة جديدة، فلما لا يتحققون مما إذا كانت السيوف قاطعة بالدرجة التي تبدو بها، وفجأة يستل إسباني السيف، كمن يتخبطه الشيطان من المس، وسرعان ما يحذو المائة الآخرون حذوه، ويشرعون في تمزيق أحشاء وقطع وذبح هذه الشياه والحملان من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، الذين كانوا جالسين هادئين وادعين يتفرجون في عجب على الجياد والإسبان. وفي ثوان معدودة لا يبقى على قيد الحياة أحد من جميع أولئك الذين كانوا موجودين هناك، ولدى دخول الإسبان بعد ذلك إلى البيت الكبير الذي كان مجاوراً، يشرع الإسبان بالمثل عن طريق الطعن والقتل بقتل جميع من كانوا هناك، حتى سال الدم في كل مكان كما لو أنه قد جرى ذبح قطع من الأبقار، ومن بعض اللقطات المثيرة من هذا الفيلم الإسباني الذي هو هنا ليس مصارعة الثيران بل ذبح البشر، ينقل إلينا هذا المنظر الفريد المعبر: «عندما نزل الشاب الهندي لمحبه جندي إسباني كان موجوداً هناك، فاستل سيفاً قصيراً ووجهه إليه، كما لو كان من أجل الاستمتاع بضربة في خصره تعري أحشاءه، ويحمل الهندي المسكين أحشاءه في يده ويهرب من البيت راكضاً؛ ويقابل القس الذي يتعرف إليه فيحدثه فوراً عن أمور الإيمان (بأي لغة؟) بقدر ما كانت تسمح بذلك الحالة المؤلمة، جاعلاً إياه يفهم أنه إذا كان يريد أن يُعمد، فسوف يذهب إلى السماء ليحيا مع الرب. والحال أن المسكين يجيب وهو يبكي ويتأوه من الألم كما لو كان يهلك في اللهب بأنه يريد ذلك، عندئذٍ عمده القس ثم سقط

الهندي ميتاً على الأرض بعد ذلك مباشرة؟!»<sup>(10)</sup>.

ويذكر المفكر الفرنسي والمسلم روجيه جارودي فظاعة تاريخية أخرى لا تقل عن هذه إن لم تفقها وهي أيضاً من مفاخر الحضارة الغربية بتفريغ أفريقيا من سكانها لاختزالهم إلى العبودية في مدى قرنين من الزمان، حيث كانت تزرب هذه (الحيوانات الآدمية) عبر الأشهر وآلاف الأميال لتتنقل إلى خدمة الرجل الأبيض في أمريكا بحيث مات معظمهم في الطريق، ينقل المفكر الفرنسي تقديرات تصل إلى حدود مائة مليون نسمة. من طوابير الموتى التعساء المعذبين، الذين ملأت جثثهم بحار المحيطات والموانئ وكل مفرق طريق، انتظم هذه الرحلة الشيطانية، التي أشرف عليها أبالسة الاستعمار.

### قصة الحسناء الهندية

تحت تأثير هذه الصدمة الروحية التاريخية المروعة لم ير الكاتب البلغاري أستاذ السوربون (تودوروف) في مساهمة رد اعتبارٍ وتكفيرٍ عن الذنب، أفضل من إهداء كتابه فتح أمريكا إلى المرأة الهندية التي ألقيت إلى الكلاب تقطع لحمها الغض الناعم؛ فخلال الحرب أسر القائد ألونسو لوبيث دي آبيلا هندية شابة حسنة وفاتنة، وكانت قد وعدت زوجها الخائف من أن يقتل في الحرب بأنها لن تكون لأحد سواه. وهكذا، فإن أي محاولة للإقناع ما كان لها أن تنجح في ثنيها عن الرحيل عن الحياة بدلاً من أن تسمح لنفسها بأن يدنس جسدها رجل آخر. وهذا هو السبب في أنهم قد ألقوا بها إلى الكلاب<sup>(11)</sup>.

(10) المصدر السابق، ص 180.

(11) المصدر السابق - تودوروف، ص (151).



## حضارات مفقودة

### (الوجه الآخر لاكتشاف أمريكا) (3)

(كان تدمير حضارات أمريكا على يد الإسبان والبرتغاليين ابتداءً، ثم أولاد عمومتهم الأوروبيين لاحقاً حدثاً كونياً، وفاجعة من مستوى أسطوري خرافي، عندما تم دفع قرابة تسعين مليون من البشر إلى المقابر في مدى ثمانين عاماً، حدثاً يدمع العين ويعصر القلب ويستعصي على الفهم. اشترك في تفجيره التاريخي مجموعة من العناصر لعب فيها ضعف الجهاز المناعي الداخلي في حضارات الآزتيك والإنكا الدور الحاسم. وهذا لا يعني أن رد الفعل الحضاري سيقى من دون فعل عبر القرون، فقراءة سطور التاريخ مهمة في فهم لماذا انهارت إسبانيا على الرغم من زخم تدفق أنهار الذهب والفضة من العالم الجديد المنهوب. وهذا يطرح علينا بالحاح فهم آليتين: أولاً: لماذا حدث ما حدث؟ ما هي الآليات الخفية التي حكمت مجرى الأحداث؟ في محاولة للخلاص والتملص من قبضة التفكيك والانسحاق الذي يمكن للعالم الإسلامي أن يقع في وهدته ويدخل معصرة التاريخ. ثانياً: من أجل التخلص من الضغوط النفسية السلبية، والتقدم بطرح إنساني، فلا يتم معالجة القهر بقهر مضاد. ولا الانتقام للمرأة من المايا التي ألقيت للكلاب، بإلقاء امرأة إسبانية لكلاب المايا).

## قانون مكيافيللي في قراءة أنواع المجتمعات (النحل والذئاب)

يعقد المفكر والسياسي العريق (مكيافيللي) الذي أصبح علماً في تأسيس السياسة على الكذب والمراوغة والعنف، وأن الغاية تبرر الوسيلة؛ مقارنةً بين طبيعتين للدول وصل فيها إلى ما يشبه القانون: بين صعوبة احتلال بلد ما وسهولة الاحتفاظ به بعد ذلك، أو بالعكس. كان مثاله هذا من الدولة العثمانية والفرنسية، فاعتبر أن الدولة العثمانية صعب قهرها، سهل الاحتفاظ بالسيطرة عليها بعد قهرها، ففي الحين الذي يصعب الإطاحة برأس هائل الحجم، يتم الاحتفاظ بسهولة بجسد رخو، وجماهير خرساء اعتادت السكوت الطويل، لابئين فيه أحقاباً، في مجتمع كاريكاتور تضخم الرأس فيه فأصبح في حجم الكرة الأرضية، وأطراف ضامرة أصبحت مثل العيدان. وكائن من هذا النوع يمتنع عليه السير وتضعف أطرافه عن حمله، فليس أمامه للانتقال إلا طريقة الدحرجة، وإذا تعرض هذا الكائن الأسطوري إلى (مطب) أو منحدر تاريخي لم يكن أمامه إلا التدحرج حتى القاع، ليستقر في الهاوية السحيقة، محطم الأطراف، مهشم الرأس، مشوه المنظر. في حين أن طبيعة الدولة الفرنسية أشبه بتنين متعدد الرؤوس، سهل هزيمتها، صعب الاحتفاظ بها لاحقاً، فهي كائن فيه دماغ كبير وأدمغة صغيرة شتى. يمكن أن تهزم عسكرياً، ولكن الاحتفاظ بها يسبب الكثير من وجع الرأس، بفعل المقاومة المستمرة من الرؤوس الكثيرة للثنين.

لنتأمل القانون المكيافيللي أولاً: (ولعل الأمثلة على هذين النوعين من الحكومات في عصرنا حكومة الأتراك ومملكة فرنسا، فالسلطنة التركية يحكمها حاكم واحد، أما الآخرون فخدمه وموظفوه،

وتنقسم المملكة إلى سناجق يبعث إليها الحاكم بموظفين إداريين مختلفين، يعزلهم متى يشاء، ويبدلهم متى أراد. أما ملك فرنسا، فيحيط به عدد ضخم من النبلاء الأقدمين، الذين يعترف بهم أبناء رعيتهم ويحبونهم، ولهم امتيازاتهم الخاصة التي ليس في وسع الملك حرمانهم منها إلا إذا عرض نفسه للأخطار. وإذا درسنا أوضاع هاتين الدولتين، تبين لنا أنه من الصعوبة بمكان عظيم احتلال مملكة الأتراك. ولكن إذا تمكنت دولة من احتلالها، فمن السهل الاحتفاظ بها، وقد يكون من السهل من نواح عديدة احتلال مملكة فرنسا ولكن الاحتفاظ بها أمر شاق وعسير<sup>(1)</sup>.

كان الخطأ القاتل في التركيب (الهيراركي) في كل من مملكتي (الآزتيك) و(الإنكا) اللتين فاجأهما الإسبان هو من هذه النوعية، من مرض الدولة التركية، بشكل مضخم إلى درجة تحول الدولة إلى خلية نحل إنسانية، خلية ممتازة كما وصفها المؤرخ والفيلسوف الألماني (أوسفالد شبنجلر) ولكنها تحمل في ثناياها الخطر المميت في دمار الخلية إذا تم القضاء على (ملكة) هذه الخلية، في حين كان المجتمع الإسباني يرسل مجموعات من الذئاب الإنسانية المدربة التي تعمل بتنسيق جهنمي في ما بين بعضها.

### وصف شبنجلر الخلاب لحضارة الأزتيك

عندما يصف الفيلسوف الألماني (شبنجلر) عظمة حضارة الأزتيك

(1) كتاب الأمير - نيقولو مكيافلي - تعريب خيرى حماد تعقيب فاروق سعد - الطبعة 11 - نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت ومن الجدير بالذكر أن الكتاب المذكور تم التعليق عليه بقلم الزعيم الفاشي موسوليني.

ومدى تقدمها، يعتبرها من مستوى الدول الأوروبية إن لم تكن تفوقها تطوراً فيقول: «فكل هذه الدول (دول الآزتيك) بما فيها من قوة عالمية وأكثر من اتحاد، وبما لها من حجم وموارد أضخم بكثير من موارد الدول الإغريقية والرومانية في زمن هانيبعل، وأوسع من أحجامها، وبما لها من سياسة واعية مدركة ونظام مالي أعد بعناية وفهم، وتشريع بلغ درجة رفيعة من التطور، وأنظمة إدارية وتقاليد اقتصادية لم يحلم بمثلها حتى وزراء شارل الخامس، وثرء عريض في الآداب واللغات، ومدن عظمي ذات مجتمعات متأدبة ولامعة ذهنياً، مجتمعات لا يستطيع الغرب أن يقدم مجتمعاً واحداً يضارع هاتيك».

وعندما يحاول شبنجلر البحث عن حيثيات أو مبررات هذا التدمير الإجماعي لحضارة نفيسة من هذا الحجم وبهذه المواصفات المتألقة يقرر: أما أشد مظاهر هذه المأساة إبلاماً وترويعاً للنفس كون هذا التدمير الساحق الماحق يتنافى نزوله وأبسط ضرورات الحضارة الغربية وقد جاء وليد نزوات خاصة فاضت بها نفوس أولئك المغامرين، ولم يترام يومذاك إلى مسامع ألمانيا وفرنسا أو إنجلترا أي نبأ عما يدور في المكسيك ويحدث، لينتهي بخلاصة فلسفية عن علاقات الحضارات وتصادمها وأن مصير كل حضارة هو مجرى وقدر خاص بها: «وهذا المثال لدليل قاطع ما بعده من دليل على أن تاريخ الإنسانية لا يمتلك أي معنى كان، وعلى أن المغزى العميق إنما يكمن ويشوي في مجرى حياة كل حضارة على حدة. فالعلاقات المشتركة بين الحضارات هي من بنات الصدفة ودون أهمية. ولقد بلغت الصدفة في هذه الحال درجة من القسوة والتفاهة والشذوذ والغباء، بحيث لا يجوز لنا معها أبداً أن نبدي أي نوع من التسامح. فعدد قليل من

المدافع والبنادق بدأ هذه المأساة وأنهاها»<sup>(2)</sup>.

### الخيال الإسبانية لا تموت ودوي المدافع هو قصف الرعد!

كان التكتيك الذي استخدمه الإسبان في تدمير كل من حضارتي الآزتيك والإنكا متشابه، فبحفنة من الرجال والمدافع والبنادق والخيول أمكن اجتياح ممالك وحضارات عظيمة، فعندما أدرك الإسبان نقطة الضعف القاتلة في هذه الحضارات؛ دخلوا منها إلى ذبحها بالكامل بدون أي رحمة، فالقادمون الجدد هم آلهة طالما كان الرعد معهم (دوي المدافع) والخيول كائنات خرافية لا تموت، فلم يكن يعرف أهل الأمريكيتين سوى حيوان اللاما (كان الإسبان يدفنون الخيل عندما تموت سرًا)، وكان اعتقال الملك كافيًا لكسر كل مقاومة، فانتهاز الفرصة كل من كورتيس في الآزتيك وبيثارو في البيرو مكان حضارة الإنكا، بشكل متكرر حاذق. وفي ضربة واحدة انقض (فرانيسكو بيثارو) على مكان اجتماع ملك الإنكا فاعتقله، مع دوي المدافع التي لم يسمعوا بها ولم يعرفوها من قبل؛ فانخلعت قلوب الناس من هذه الأسلحة وولوا الأدبار<sup>(3)</sup>.

### جدلية الخوف والجهل والهرب والكراهية

الهرب حركة تتزامن مع الخوف، والخوف شعور متولد من وعي ناقص، أو تصور خاطئ، وعندما كانت جداتنا تحدثنا عن الأشباح

(2) أفول الغرب - شنجلر - الجزء الثاني، ص 185.

(3) تراجع القصة الكاملة في كتاب حضارات مفقودة - محمد العزب موسى -

الدار المصرية اللبنانية - ص 127.

الموجودة في الزوايا المظلمة لم تكن تمثل الحقيقة بحال، فخوف الإنسان يتولد من تصور إمكان الأذى من مصدر ما، ولذا فالعلم تحرر وقوة، وهناك قصة معبرة عن هذه الحقيقة عندما حاول الفيلسوف أن يشرح للأمير في تطبيق ميداني هذه الحقيقة.

### قصة الأمير والفيلسوف وقدر النحاس

كما جاء في قصة كليلة ودمنة عندما كان الملك دبشليم يسأل الفيلسوف بيدبا دوماً على هذا النحو: قد فهمت هذا المثل فاضرب لي مثل الذي يجهل الشيء فيخاف منه فيهرب منه كارهاً له: اتفق الفيلسوف مع الأمير ذات ليلة، صفا فيها الجو، وطاب المجلس، فجلس القوم يأكلون ويتندرون ويسمرون، وفجأة انبعثت أصوات مجلجلة من الفناء فارتعب القوم فهرعوا يتدافعون يطأ بعضهم بعضاً. اثنان فقط من الحضور لم يبدو عليهم الخوف: الأمير والفيلسوف، لأن كليهما كان يعرف سلفاً متى ستسقط القدر النحاسية من السطح على الأرض.

### فدية ملك الإنكا غرفة من الذهب الخالص وغرفتان من الفضة

إن قصة مدافع كورتيس وبيثارو والخييل العربية التي جاءت معهم (بدون فارسها العربي بكل أسف) تروي لنا هذه النكتة التاريخية بشكل مضخم، وعندما رأى ملك الإنكا (آتا هوالب) (Atahualpa) المعتقل النهم الإسباني إلى الذهب لم يعرف تفسير ذلك، وأرجع بعض من الهنود تفسير ذلك إلى أن الإسبان يأكلون الذهب.

يقول (تودوروف): «ويظل سلوك الإسبان غير مفهوم بالنسبة إليهم: لماذا يريدون كل هذا الذهب؟ لا بد وأن هذه الآلهة تأكله، فهذا

هو السبب الممكن الوحيد لطلبها الكثير منه، ويبدو أن الإسبان فسروا حاجتهم إلى الذهب أنهم يستخدمونه للشفاء من المرض . . . وهو شيء يصعب قبوله من جانب الهنود الذين يُشبهون الذهب بالبراز»<sup>(4)</sup> فعرض ملك الإنكا فدية مغرية بملء غرفة كاملة من هذا المعدن ذو لون البراز، وغرفتان من الفضة (أكثر من 28 مليون دولار)<sup>(5)</sup> فتعهد بيثارو بشرفه، وأقسم برأس الملكة إيزابيلا أنه سيطلق سراحه، فلما امتلأت الغرف بالذهب الخالص والمعدن النفيس، قام بخنقه وحرقه بالنار بعد إكرامه بالتعميد<sup>(6)</sup>.

### طاعون الحضارة الغربية حسب رأي (تشومسكي)

يكتب (نعوم تشومسكي) (Noam Chomsky) عالم الألسنيات الأمريكي في كتابه ردع الديمقراطية "Deterring Democracy"<sup>(7)</sup> عن كارثة استئصال حضارات العالم الأمريكي، بما فيها الهنود الحمر الذين تم اختزالهم من عشرة ملايين إلى مائتي ألف، منهم الذين رأيت بقاياهم بنفسني من الفارين إلى كندا، ليعيشوا في حواف مدن الرجل

(4) فتح أمريكا - مسألة الآخر - تزفتيان تودوروف - ترجمة بشير السباعي - سينا للنشر - ص 104.

(5) في سنة 1532 م افتتح فرانسيسكو بيثارو مملكة الإنكا وكان تعداد سكانها ستة ملايين، في الوقت الذي لم يتجاوز عدد سكان إسبانيا أربعة ملايين، وتألفت حملة بيثارو من 177 رجلاً و62 حصاناً وعدد من المدافع والبنادق - راجع كتاب الخالدون مائة أعظمهم محمد (ﷺ) تأليف مايكل هارت - ترجمة أنيس منصور - الناشر المكتب المصري الحديث - ص 262 - 263.

(6) مجلة الشبيجل الألمانية "Der Spiegel"، العدد 3 عام 1992 ص 113.

(7) تأليف نعوم تشومسكي - ترجمة فاضل جتكر - دار كنعان - دمشق - عام 1992 م - ص 357 - 358.

الأبيض كما في مدينة مونتريال في مقاطعة كيبيك في كندا<sup>(8)</sup>. وهذا الاستئصال المبرمج قامت هوليوود - في عملية رد اعتبار - فشرحت طرفاً من أبعاد المأساة فيه في فيلم (يرقص مع الذئاب) *"Dancing with Wolves"* الذي قُتل فيه الإنسان جنباً إلى جنب مع الحيوان، على يد السادة الجدد الذين صعّدوا للقوة العالمية المهيمنة منذ اكتشاف أمريكا وبدء تطهيرها على أفضع نوع، وألّعن طريقة ممكنة بثيسة، فبعد أن تعرض الكاتب للإبادة الجماعية التي مارسها الإسبان في القارة الأمريكية استنزل لعنته على بقية الأوروبيين على الشكل الآتي: وبعد مائة وخمسين سنة كان أخلاف أولئك قد طهروا أمريكا الشمالية من هذه الآفة الأصلية (السكان الأصليين) بعد أن نجحوا في اختزال عدد المجانين من عشرة ملايين إلى مائتي ألف حسب أحدث التقديرات، وحولوا أنظارهم إلى جهات أخرى بغية تمدين الوحوش البرية في الفلبين فالمقاتلون الهنود الذين كلفهم رئيس الجمهورية ماك كينلي بمهمة (تعميد) هذه المخلوقات البائسة خلصوا الجزر المحررة من مئات الألوف من هذه المخلوقات وعجلوا بعملية صعودها إلى السماء، يعلق بعدها تشومسكي على النحو الآتي: ذلك هو المسار الذي أخذه التاريخ بخطوطه العامة لدى قيام طاعون الحضارة الأوروبية بتدمير الجزء الأكبر من العالم.

(8) تضايقت امرأة كندية بيضاء من ابنتي مريم التي تدرس في كندا فشمت من رائحة منظرها أنها تنتسب إلى العالم الإسلامي فصرخت فيها: عودي إلى بلدك من حيث جئت فأجابتها ابنتي بدون تردد (عودي أنت إلى بلدك واتركي البلد لسكانها الأصليين) (Go to your land and keep this land for its natives).



ولعنة تشومسكي على ما حدث لم تكن الوحيدة، فقد وقف كاتب السوربون (تزفتيان تودوروف) يحلل الحدث التاريخي بعد أن ينقل ما ذكرناه عن لعنة المبشر الإسباني (لاس كاساس) واستمطاره اللعنة على كل أهل إسبانيا لما حدث .

### سريان اللعنة إلى كل أوروبا

يقول تودوروف: «وهكذا فإن هذه الكلمات التي هي في منتصف الطريق بين النبوة واللعنة، تؤكد المسؤولية الجماعية للإسبان، وليس للفاتحين وحدهم؛ على مدار الأزمنة القادمة، وليس في الحاضر وحده. وهي تعلن أن الجريمة سوف تلقى العقاب، وأن الذنب سوف يجد تكفيراً عنه. ونحن اليوم في وضع مناسب لتقدير ما إذا كان لاس كاساس قد أحسن التوقع أم لا، وبمقدورنا إدخال تصحيح بسيط على مجال نبوءته والاستعاضة عن إسبانيا بـ (أوروبا الغربية) فعلى الرغم من أن إسبانيا تلعب الدور الأول في حركة استعمار وتدمير الآخرين، فإنها ليست الوحيدة؛ إذ يلحق بها عن قرب كل من البرتغاليين والفرنسيين والإنجليز والهولنديين، وسوف ينضم إليهم بعد ذلك كل من البلجيكيين والإيطاليين والألمان. وإذا كان الإسبان يفعلون في مجال التدمير أكثر مما ستفعل الأمم الأوروبية الأخرى، فإن ذلك لا يرجع إلى أن هذه الأخيرة لم تحاول اللحاق بهم والتفوق عليهم في هذا المجال فلنقرأ إذاً (إن الله سوف يصب غضبه على أوروبا)»<sup>(9)</sup>. كانت الصورة الفاقعة في أنهار الدم في الحروب العالمية التي دفعت ثمنها كل شعوب أوروبا حتى التي لم تشترك في فتح أمريكا.

(9) تزفتيان تودوروف - فتح أمريكا - مسألة الآخر، ص 257.

## آليات الانتقام التاريخية في سقوط إسبانيا

إن المؤرخ الأمريكي (ويل ديورانت) وقد راعه الدمار الذي خيم على حضارات أمريكا، قام بتقصي دراسة الأثر التاريخي، من أثر التسمم بالذهب الذي أفسد الحياة الإسبانية، وحولها بدلاً من الدولة رقم واحد في القارة الأوروبية، إلى قائمة دول الذبول المهمشة، كما رأيتُ ذلك عندما كنت أتنقل بين ألمانيا وإسبانيا، من منظر عجيب لجموع بشرية هائلة، تستفتح يومها بتزجية الوقت بالثرثرة، ولعب القمار، ومصارعة الثيران، وبيع اليانصيب، وشرب القهوة، ومد الرجلين، مثل تمدد السلاحف تحت أشعة الشمس.

يقول ديورانت في شهادة تاريخية دامغة: «ذلك أن شباب إسبانيا وعنفوانه تحرر من سجن شبه الجزيرة ليكتشف الأمريكيين ويستغلها، والذهب الذي أرسله إليها أفسد الحياة الإسبانية، وشجع التكاسل، ورفع الأسعار، أو وقع غنيمة للسفن الهولندية أو الجنوية، التي تحمل التجارة الإسبانية. واحتزنت الحكومة المعادن النفيسة، وغشت العملة، وطردت المغاربة المنتجين، واستكثرت من الوظائف وباعتها، وفرضت الضرائب على كل شيء إلى حد اللامبالاة الاقتصادية، وبعثرت الثروة في الحملات الحربية ومظاهر البذخ في البلاط، بينما الصناعة تذبذب، والبطالة تنتشر، والتجارة تزدوي، والسكان يتقلصون، والمدن تخرب، وفقدت الحكومة ذات الطابع الأرستقراطي الضيق كل كرامة، فوضعت صناديق التبرع في الشوارع، والتمست المال من بيت إلى بيت، لتمول عجزها في الداخل وهزائمها في الخارج. أما الجيوش الإسبانية المرابطة في صقلية ونابلي وميلان، الشاقة طريقها في غابات العالم الجديد وبراريه، المضنية نفسها في حرب الثلاثين

عاماً، الخائضة حرباً خاسرة لقهر عناد ثوار الأراضي المنخفضة وإصرارهم الذي لا يصدق، هذه الجيوش استنزفت الموارد البشرية والمادية لدولة صغيرة جبلية نصف صحراوية، تحبسها حدودها في بحر يسيطر عليه منافسوها التجاريون وأعداؤها البحريون، ولم يبق غير الأديرة والكنائس متشبثة بأملاكها الشاسعة اللاصقة بها، المعفاة من الضرائب، مستكثرة من الرهبان في حياة عاطلة غالية الثمن، وبينما كان الدين يسترضي الفقر بصكوك على الجنة، ويخنق الفكر، ويدعو إسبانيا للعيش على ماضيها، أجزلت فرنسا وإنجلترا مكافأة الصناعة، واستولتا على التجارة، ودخلتا رحاب المستقبل. إن التلاؤم مع البيئة المتغيرة هو لب الحياة وهو أيضاً ثمنها<sup>(10)</sup>.

### الرد الحضاري حسب توينبي (استقراء التاريخ)

إذا كانت إسبانيا قد سقطت وتراجعت من وطأة العقوبة التاريخية فهذه قائمة بنصف الحساب التاريخي، فما زالت جثة القتيل في الأمريكيتين تنتظر تصفية نصف الحساب المتبقي، تقوم بالرد بصورة حضارية مختلفة. إن صدام الحضارات لا يحزر أحد مجراه عبر الزمن، ف (كزر كسيس) الفارسي عندما ارتكب حماقة عبور مضيق الهلسبونت (الدرديل) لمهاجمة اليونان، لم يكن يستطع ولا في المنام أن يرى النهضة الفلسفية في أثينا كرد فعل، ليتبعها بعد ذلك جيش الإسكندر بتعداد 47 ألف مقاتل يحطم جيش دارا المليونى، كما يفجر (الشاكوش) الثقيل جرة الفخار اليابسة في معركة أربيل (333 قبل

(10) قصة الحضارة - ويل ديورانت، الجزء 29، ص 169.

الميلاد)، وعندما كان (تيطس) القائد الروماني يدمر هيكل المعبد في القدس عام سبعين للميلاد، ويهرب اليهود من حراب الرومان في الشعاب والوديان يبكون ومنتحبون. لم تكن تتصور روما انبعاث الإسلام بعد ستة قرون يقاضيها الحساب التاريخي، ويسترد كل حقل الحضارة السورية، بسلسلة من الحروب الخاطفة الصاعقة، وينسحب هرقل إلى غير رجعة. وعندما دفن الإسبان حضارة الآزتيك والإنكا، خيل إليهم أن المقابر الحضارية مثلها مثل مقابر البشر، فلم يعد ميت من عالم القبور، ولكن أيام التاريخ حبلى بالمفاجآت.

إن المؤرخ البريطاني توينبي يروي لنا طرفاً من الردود الحضارية غير المتوقعة في قصة انهيار الحضارات وانبعائها.

«إن استقراء التاريخ، يتيح لنا ختامين بديلين لمحاولات حضارة من الحضارات ابتلاع حضارة أخرى عنوة وهضمها، ويبيد الاستقراء أنه قد تنقضي مئات السنين بل آلافها، قبل أن تتحقق نتيجة عملية الابتلاع في خاتمة المطاف. ولعل هذا يصدق مؤرخي القرن العشرين عن المغالاة في تقدير نتائج محاولات الحضارة الغربية في الوقت الحاضر، لابتلاع الحضارات المعاصرة لها. إذ يجدر بهم أن يأخذوا في الحسبان، قصر الوقت الذي انقضى منذ أقدم هذه المحاولات، وضآلة ما تبدي من القصة للعيان. ففي حالة الغزو الإسباني لعالم أمريكا الوسطى قد يفترض بحق أن حلول الجمهورية المكسيكية التي رنت إلى الانخراط في عضوية جماعة الأمم الغربية وفازت بها، محل الدخيل المائل في شخص الحاكم الإسباني الملكي على (إسبانيا الجديدة) من شأنه تحقيق اندماج مجتمع أميركا الوسطى في كيان المجتمع الغربي الاجتماعي، وهذا يجافي الواقع، إذ قد تلت ثورة

1821 المكسيكية<sup>(11)</sup> في 24 شباط/ فبراير، ثورة 1910 م<sup>(12)</sup> في 18 تشرين الثاني/ نوفمبر؛ التي انتصب أثرها فجأة المجتمع الوطني الهاجع، الذي ظن أنه قد ووري في التراب. فكان أن رؤي يرفع هامته ويمزق الغشاء الثقافي، الذي رسبته الأيدي الكاستلية على القبر، الذي أودع فيه الغزاة الإسبان الجسم الذي ظنوا أنهم ذبحوه، ويشير هذا النذير سؤالاً عما إذا كانت فتوحات المسيحية الغربية في العالم الإنديانى وغيره قد تبرهن بالمثل عاجلاً أم آجلاً على سطحيتهما ووقتيتهما<sup>(13)</sup>.

### أين الإشكالية إذن؟

إن درس تدمير حضارات قارات أمريكا وغيرها من الأهمية والحيوية لنا، في ظل ظروف غير معقولة تسود العالم العربي، من

(11) اتفق الجنرال أوغستين دي أوتريدي (Augustin De Iturbide) في 24 شباط/ فبراير من عام 1821 م مع المقاتلين من أجل استقلال المكسيك عن إسبانيا الخطة التي عرفت بمرسوم (إجوالا) (Iguala)، فتم بموجبها صعود أمير من أصل إسباني على العرش وإعلان استقلال المكسيك عام 1824 م، ولكن تم استبعاد عناصر الثورة الاجتماعية التي طالب بها الداعين للاستقلال (Chronik Des 19 Jahrhunderts - Page 179)

(12) في 18 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1910 م، قامت ثورة بالتحالف بين زعيم المعارضة السياسي فرانسيسكو ماديرو (Francisco Madero) وزعيم الفلاحين إميليانو زاباتا (Emiliano Zapata) تمت فيها الإطاحة بالرئيس بروفيرو دياث (Porfirio Diaz) الذي التصق بكرسي الحكم أكثر من ثلاثين عاماً؛ بسبب سوء الأحوال الاجتماعية فواحد بالمائة من السكان تملك 96% من الأرض (Page 128) (Chronik Des 20 Jahrhunderts)

(13) مختصر دراسة التاريخ - جون أرنولد تونبي - ترجمة فؤاد محمد شبل - لجنة التأليف والترجمة والنشر، الجزء الثالث، ص 35.

العجز الداخلي المريع عن حل المشاكل والاصطدام بها مثل العميان، بحيث تجعل مشروع نهضته مصيراً مظللاً بالشكوك.

لقد أحسنت الكاتبة (فريال غزول) حينما أرادت الاستفادة من درس التاريخ، في قصة كولومبس وكيفية اختراق - ما سمي - العالم الجديد وفرض الهيمنة عليه انتهاءً بإزالته من الوجود، حينما عرضت فكرة تنظيم القوة الداخلي، من أجل بناء قوة دفاعية، تمنع من الاختراق والانسحاق، أكثر مما هي استيراد مفردات قوة خارجية، فالمشكلة داخلية بحتة، وانهيار حضارة الأزتيك كان بفعل قصور الطاقة الإبداعية، في مواجهة الخطر الجديد الذي لم تعتد عليه. قالت: «الإشكالية إذن ليست في التقدم أو التخلف بقدر ما هي مسألة (نظم) طاقاتها واستنفار استعدادنا وإبراز قوتنا الكامنة. المسألة هي كيف ننظم وننسّق كفاءتنا في مواجهة مخطط القاهرةين والمخترقين وهنا يكمن التحدي... ليست هي مسألة قوي وضعيف بل مسألة تنسيق... القوة إذن لا تكمن في الكم والنوع، بل في أسلوب الجمع والنظم والصياغة، الذي يغير قوة طرف في صراعه مع آخر. لا بد إذن أن نتعرف إلى مفردات قوتنا ونربطها في جملة مفيدة، كما لم يفعل أبناء الحضارة الأزتيكية الذين فشلوا في إبداع مواجهة جماعية. من هنا يصبح الصراع لا من أجل امتلاك عنصر ما، بل في القدرة على إبداع حركة وإيقاع، على تنسيق وتطوير ما نملك، بحيث يصبح فعالاً؛ تماماً كما في اللغة، حيث الكلمات مطروحة على قارعة الطريق وفي ثنايا القواميس فلا يحتاج الشاعر لأن ينحت كلمة جديدة ليبدع قصيدة، وإنما يحتاج إلى العثور على

نسق شعري يعيد للكلمات الموجودة حيويتها وفعلها في ضمير القارئ ووجدانه»<sup>(14)</sup>.

### الطرح الإنساني وتجاوز القهر

وينخرط تودوروف انخراطاً مباشراً في وضع ملامح التجاوز للقهر في خاتمة كتابه، فالقهر كما يقول لن يتم محوه بقهر آخر، أي من خلال انتقام حضاري وتعادل الانتهاك بانتهاك مقابل، فالمرأة من هنود المايا التي ألقيت للكلاب لأنها رفضت أن تستجيب للغازي وتطوعه، لن تسترجع حقها بتقديم امرأة إسبانية فريسة لكلاب المايا، كما يؤكد تودوروف أن قهر المرأة لم يكن أحادياً، فقد كانت ضحية استلاب عشائري واستلاب كولونيالي، فقد استملك زوجها إرادتها حتى موته، كما أن الغازي لم يترك لها إلا خيار مطاوعته أو الموت<sup>(15)</sup>.

### مشكلة الآخر: إلغاء أم إيجاد؟!

في عملية اللقاء المشؤوم بين الحضارة الغربية وحضارات أمريكا تم الخيار مع الآخر في صورة إبادة الشعوب، وتدمير الحضارات، وتفريغ القارات من سكانها لماذا؟ إن الخيار الفلسفي في التعامل مع الآخر يبدأ في داخل كل منا، بعد كشوفات علم النفس الحديثة عن عالم اللاوعي الذي يهمهم ويدمدم داخل كل واحد منا «إن الشخص ليس واحداً، إنني آخر أو

(14) فتح أمريكا، ص 8 بالرقم الروماني.

(15) تودوروف، ص 260.

غرفة أصداء لا أكثر، فلم نعد نؤمن بالبشر الحيوانات في الغابات، لكننا اكتشفنا الحيوان في الإنسان، ذلك العنصر الغامض في الروح الذي لا يبدو أنه يعترف بأي سلطة بشرية، لكنه على الرغم من براءة الفرد الذي يسكنه يحلم أحلاماً مرعبة، ويدمدمم بالأفكار الأكثر استحالة على البوح بها، ويمكن اعتبار اكتشاف العقل الباطن ذروة هذا الاكتشاف للآخر في الذات»<sup>(16)</sup>.

إن مشكلة الآخر يعيها تماماً الذي غادر الوطن بدون أن يصبح له وطن جديد، فعندما يترك الإنسان الوطن في عملية اقتلاع رهيبية من الجذور ويتحول إلى منفي، تقوم آليات الإبداع الإنسانية بالاستفادة من هذه الظروف في التعامل مع الآخر من عدمه «ذلك الكائن الذي فقد وطنه دون أن يكسب بذلك وطناً آخر، الكائن الذي يحيا في خارجية مزدوجة والمنفى مثمر إذا كان المرء ينتمي إلى ثقافتين في آن واحد دون أن يتوحد مع أيهما؛ إلا أنه إذا كان المجتمع كله يتكون من منفيين فإن حوار الثقافات يتوقف»<sup>(17)</sup>. ينقل إدوارد سعيد المفكر الفلسطيني عن المنفي الألماني في تركيا (إيريك أفرباخ) هذه الفكرة المشعة والثقيلة «إن الإنسان الذي يجد وطنه حلواً ليس غير مبتدئ رخوا؛ وذلك الذي تعتبر كل أرض بالنسبة له كأرضه هو قوي بالفعل؛ لكن الكامل وحده هو ذلك الذي يكون العالم كله بالنسبة له بلداً غريباً»<sup>(18)</sup>.

(16) تودوروف، ص 260.

(17) و (18) اكتشاف أمريكا - مسألة الآخر - تودوروف - ص 261.



## ماجلان يحقق حلم كولومبس (1)

رست سفن الدون كريستوبال كولون الذي اشتهر بـ (كريستوف كولومبس) في 12 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1492 م على الأرض الجديدة، ولكن اسم أمريكا جاء من اسم بحار إيطالي آخر (هو أمريكو فيسبوتشي) ومات كولومبس وهو مطمئن البال إلى أنه وصل إلى الهند، وأخذ أهل أمريكا اسم الهنود، واعتقد أنه لف الكرة الأرضية من الغرب، ولكن الذي حقق الحلم فعلاً ولأول مرة في تاريخ الجنس البشري كان (فرديناند ماجلان)<sup>(1)</sup> (Ferdinand Magellan) الذي قام برحلة استغرقت ثلاث سنوات مليئة بالإثارة والكشف الجغرافي والاختراق الحضاري والمشاركة في قلب الميزان الكوني لمصلحة الغرب. بدأت الرحلة من إشبيلية في أيلول/ سبتمبر عام 1519 م وانتهت عام 1522 م، ولم يرجع فيها ماجلان ليرى زوجته وولده، بل قتل في أرض نائية، في حرب طائشة لا داعي لها، مع سكان الجزر المسالمين. ولم يرجع من السفن الخمسة التي أفلعت سوى (فكتوريا) التي تطابق اسمها مع نتيجتها بيمن لافت للنظر،

(1) تراجع تفاصيل الرحلة بالكامل في كتاب المكتشفون العظام باللغة الألمانية "Die Grossen Entdecker"، ص 58 - رحلة ماجلان (1480- 1521 م).

علامة على الظفر والنصر، ولم يرجع من 250 بحاراً سوى 18 في حالة يرثى لها من الضعف والمرض والجوع على حافة الهلاك، وكان أهم شخص في الرحلة هو أتفههم في البداية وأدعاهم للبطالة، فالإيطالي (أتونيو بيجافيتا) كان يدون أخبار الرحلة أولاً بأول بشكل دقيق مثير مليء بالتفصيلات يوماً بيوم، وكان ما يسحره الطبيعة والحيوانات أكثر من نزاعات الربابنة الإسبان مع ماجلان حول الزعامة، هذا الرجل لحسن الحظ هو الذي خلّد لنا أخبار الرحلة وعاش ليرويها، وكانت أعظم مفاجأة في التوقيت، فمع الوصول إلى إسبانيا من جديد في دورة كاملة حول الكرة الأرضية تم انتزاع يوم من الزمن المتدفق الساري؛ فسجلت اليوميات وصولاً مبكراً بـ 24 ساعة عن زمن إسبانيا المحلي، وعرف أن الأرض أكبر أربع مرات مما كان متخيلاً، وتم التخلص من مسلمات عقلية كبيرة، فكما استطاع كوبرنيكوس قلب التصور الكوني والتخلص من نظرية بطليموس في علاقة الأرض بالشمس وحركة الأرض، فإن ماجلان استطاع هدم نظرية بطليموس من جديد عن بحر الظلمات واتصال أفريقيا بالقطب الجنوبي، وأعظم شيء فعله الغرب هو أنه سار في الأرض فنظر، فبقدر ما أكد القرآن السير في الأرض والنظر واعتبار (السياحة) ضرب من العبادة ﴿الْعَبِيدُونَ الْمُتَعَبُونَ السَّائِرُونَ﴾ ﴿تَبَيَّنَتْ عِلْدَاتِ سَيِّحَتِ﴾<sup>(2)</sup>

(2) جاءت في القرآن في كل من سورتي التوبة والتحریم (الآية 112 و 5 على التوالي) بوصف (سباعي) لكل من المؤمنين والمؤمنات برزت فيها صفة السياحة للفریقین، وذهب معظم المفسرين القدماء إلى حل إشكالية سياحة المرأة بقلبها إلى معنى الصيام، ولكن المفسر القاسمي ذهب إلى عدم صرف هذا المعنى إلا بوجود قرينة صارفة عن المعنى ولا وجود لها. تأمل الآن =

واعتمد البناء العلمي في التفكير، والرجوع إلى الواقع والتاريخ والطبيعة كمصادر للمعرفة، بقدر ما انكفأ العالم الإسلامي على نفسه، وترك البحث والسير في الأرض، وخاف من التفكير، وتمت مصادرة العقل واغتياله منذ القرون الأولى لتشكّل العالم الإسلامي، واعتمد الخط الأحادي في التفكير، فوقع في التعصب والانغلاق وضيق الأفق ونام، فلم يستيقظ إلا على أحفاد ماجلان وريتشارد قلب الأسد يقرعون بابه، هذه المرة ليس في صورة صليبيين متخلفين، بل بإدارة جماعية وعقل جديد، وهكذا فقد ولد العالم ولادة جديدة، لم يشترك المسلمون في صناعته، وتوقف الزمن في العالم الإسلامي «وإذا تبدلت الأحوال جملةً فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه نشأة مستأنفة وعالم محدث»<sup>(3)</sup>.

### انقلاب العالم الثلاثي وما تلاها من اختراقات معرفية

مع مطلع القرن السادس عشر للميلاد حصلت ثلاث ثورات غيرت مجرى التاريخ في فهم الكون والإنسان والأرض، فأما الأولى فكانت في (جغرافية الأرض) وأحدثها (فيرناندو ماجلان)، حيث كبرت الأرض دفعة واحدة أربع مرات، وكانت الثانية في (جسم الإنسان) الذي كان يعتبر تشريحه حجراً محجوراً، فأقدم على اختراق

= الآيتين مع إجمالي الصفات للفرقيين وهو أمر لافِت للنظر يدعو للتأمل ﴿التَّيْبُونُ الْمَكِيدُونَ الْمُحِيدُونَ السَّيْحُونَ الرَّكْعُونَ السُّجِدُونَ الْأَمِيرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالشَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَنُفُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُٗ أَوْجَابًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ سَيِّدَاتٍ سَيِّدَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

هذا التابو الذي كان قدسيةً في عين الأوروبيين المشرح الإيطالي (فيساليوس) والذي لولاه ما تقدم علم الطب، وكانت الثورة الثالثة (كونية) عندما ظهر خطأ (بطليموس) للمرة الثانية في ترتيب الكون بعد خطأه في وصف الأطلنطي بأنه بحر الظلمات وأن السفن التي تصل خط الاستواء تدخل قِدرًا كونياً يغلي لا يبقي ولا يذر. فبرهن (كوبرنيكوس) أن الأرض لا تعدو كوكباً تافهاً يدور حول نجم عملاق في مجموعات شمسية لانهائية، وأكمل (جيوردانو برونو) الثورة العقلية بتدشين مفهوم حرية الفكر والكون اللانهائي الذي تنتسب إليه. ولعل الثورة البيولوجية في فهم الإنسان التي قادها (فيساليوس) أفضل من تممها هو (دارون) الذي فتح الطريق في علم الأثنروبولوجيا (علم الإناسة) فكما افتتح الطريق فيساليوس إلى جسم الإنسان بالخاصة؛ فإن دارون فتح الطريق لمعرفة سر الحياة وأصل الإنسان بشكل عام، وهذا بدوره شق الطريق إلى مجموعات جديدة من الفضاءات المعرفية، فلمزيد من معرفة الإنسان لا بد من فهم (كيف نطق) فنشأ علم (الألسنيات) ولمعرفة كيف تحرك في الأرض نشأ علم الأثنروبولوجيا (علم الإناسة) وعلم (الحفريات) وعلم (الجينات) ومن مزج العلمين الأخيرين نشأ اليوم علم جديد هو علم (حفريات الجينات)، وهكذا فإن كل علم يشق الطريق إلى ثورة علمية جديدة ويكتشف فضاءً معرفياً جديداً، فالإنسان اليوم يُدرس من خلال بقايا العظام التي تركها جسده، والكروموسومات الباقية في خلاياه، من بقايا جسمه البالي حتى لو كانت عظاماً وهي رميم، وكذلك من تتبع علم اللغة وكيف تم اشتقاقها من بعض. وما يهمنا من هذه الثورات العلمية بصماتها وأثرها على الفكر والفلسفة بشكل عام، فالفيزياء

أدخلت مفهوم (القانون) في بناء الكون، التي سماها القرآن (السنة) والاحتمية على يد لابلاس ونيوتن، ولكن فيزياء (ميكانيكا الكم) الحديثة التي طورها (هايزنبرغ) الألماني و(بور) الدانماركي و(بول ديراك) البريطاني في عام 1928 م لم تلغ فكرة القانون، وإنما أنزلته وأعطته صورةً جديدة، مهتزةً بعض الشيء من خلال إضافات الاحتمية (مبدأ اللايقين) وقانون (الاحتمالات). كذلك فإن الدارونية تركت بصماتها على الفكر الإنساني من خلال (علم الاجتماع - السسيولوجيا) على الشكل الذي طوره المفكر البريطاني (سبنسر) وأما أحداث التاريخ فقادت إلى فهم ظاهرة الحضارة، كما أن فهم الكون قاد إلى دفع المبدأ الإنساني (البرمجة المسبقة في الكون لوجود الإنسان) إلى الظهور. فهناك حلقة جدلية في تطور العلوم وآثارها الفلسفية البعيدة من هذه العلوم التي تم تطويرها كأثر لرحلة ماجلان علم (الأعراق) الإثنوغرافيا، الذي كان للمسلمين الدور المتقدم في وضع جذوره على ما ذكر المؤرخ الأمريكي ديورانت عن قصة (ليو الأفريقي) الذي قضى عمره في وضع أسس هذا العلم، ولم يكن في الحقيقة إلا (الوزان) العالم الغرناطي الذي وقع في قبضة القراصنة في حملات تفرغ إسبانيا من المسلمين وإبادتهم.

### قصة المسلم ليو الأفريقي - نشوء الإثنوغرافيا (علم الأعراق)

جاء في كتاب قصة الحضارة لويل ديورانت أن المسلم الغرناطي (الحسن بن محمد الوزان) هو الذي وضع البدايات الأولى لهذا العلم في عمل موسوعي يعتبر الأول من نوعه، أخذ جهداً متواصلًا امتد ثلاثين عاماً، يقول ديورانت: «كان الحسن بن محمد الوزان مسلماً من

غرناطة وقد تنقل في أرجاء أفريقيا ووصل جنوباً إلى السودان يحدوه ولع شديد بالأسفار كولع ابن بطوطة. وقد أسره القراصنة المسيحيون وبعثوا به إلى روما هدية للبابا ليو العاشر الذي أعتقه ورَّب له معاشاً، بعد أن أعجب بما حصَّله من علم وثقافة. واستجاب لهذا العطف باعتناقه المسيحية واتخاذ ليو اسماً له. ثم أنفق الثلاثين سنة التالية في تأليف كتابه هذا بالعربية أولاً ثم بالإيطالية. وقبل الفراغ من طبع الكتاب عاد إلى تونس، وهناك مات عام 1552 م على دين آبائه، فيما يبدو<sup>(4)</sup>.

### حمى الكشف الجغرافي وروح المغامرة

ومضى الكشف الجغرافي المثير قدماً فارتاد (سبستيان كابوت) تحت الراية الإسبانية الأرجنتين وأورغواي وباراجواي، واخترق (دي سوتو) فلوريدا وولايات الخليج حتى بلغ أوكلاهوما، واكتشف (بيدرو دي البارادو) إمبراطورية المكسيك، واخترق (فرانسيسكو دي كورونادو) أريزونا حتى بلغ كانساس، وبدأت مناجم بوتوزوي في بوليفيا تبعث بفضتها إلى إسبانيا، وكانت خريطة العالم ترسم سنة بعد سنة بالذهب والفضة والدم معاً في رحلة عبودية لا ترحم. ويبقى السؤال عن تخلف الفرنسيين والإنجليز عن اكتشاف القارة الكبرى التي تركها لهم الإسبان، الذي يرجع إلى فقرها النسبي بمعادن الذهب والفضة آنذاك، بالإضافة إلى وعورة غاباتها.

(4) ويل ديورانت - قصة الحضارة - ترجمة فؤاد اندراوس - لجنة التأليف والترجمة والنشر - الجزء 27 - ص 141.

## مشروع ماجلان

كل المشاريع تحتاج إلى الحماس، ويجب أن تكون مغموسة في الخطأ وفساد التصور في طرف منها، وهذا الذي حصل مع صاحبنا (ماجلان) الذي ظن بوجود (ثقب بحرية) بين المحيطين (الأطلنطي والهادي) بموجب خريطة تبين خطأها لاحقاً، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وليمكن للبرتغاليين في الأرض، ليعلوا علواً كبيراً، ثم ليحل بهم داء الأمم فهووا إلى حافة الفقر والتسول ويُتبروا تنبيراً سنة الله في خلقه.

كان تصور ماجلان الذي يعرف الشرق الأقصى وكنوزه بموجب اشتراك سابق في حملات الاستعمار هناك واحتلال مدينة (كاليكوت الهندية) واجتياح مضيق مالقة ووضع اليد البرتغالية على ميناء مالقا وكل تجارة الشرق الأقصى عام 1511 م، بموجب جيش ليس برياً مثل جيش الإسكندر الكبير، بل عمارة بحرية رهيبة، تعب ولي العهد هنري الملاح لمدة خمسين عاماً في الإعداد لها، مكونة من عشرين سفينة من نموذج سفن المحيط، مزودة في ذلك الوقت بأحدث أسلحة العصر من الطاقة النارية والمدافع والخراطط، يعلو ظهر كل سفينة خمسمائة جندي (كوماندوس) ما يشبه قوة التدخل السريع الأمريكي، مما مكن البرتغال من وضع يدها على معظم الممرات البحرية الهامة، وقارات بأكملها وشعوباً لا حصر لها. وانتقلت عدوى المغامرات والاكتشافات إلى كل مفاصل أوروبا.

كان أول شيء فعله (ماجلان) بعد أن رفض مشروعه ملك البرتغال أن توصل إلى إقناع العاهل الإسباني الفتي محب المغامرات بجدوى مشروعه في وضع اليد على جزر التوابل والبحار والتخلص من

حصار العالم الإسلامي لها، فليس هناك من قارورة عطر إلا ومصدرها عربي مثل باريس اليوم، وليس من علاج إلا ومكانه أرض العرب أو الهند، فقام بأخذ عقد وتعهد من ملك إسبانيا كارل الأول.

### التعهد والعقد الملكي

استطاع ماجلان أن يحصل على عقد خيالي من الملك الإسباني كارل الأول (شارلكان) الذي كان صغير السن، تستهويه المغامرات، فكتب لماجلان وصديقه فاليري الذي كان يعتبر الرأس النظري لمشروع ماجلان والذي تخلى عن المشروع في اللحظة الأخيرة: «إنه لا يحق لأحد أن يلحق بكما ضرراً وأنتما في تلك البحار تحملان عبء هذه الرحلة. هذه إرادتي وإنني أعد بألا يسمح لأحد في السنين العشر القادمة بارتداد الطريق ذاتها لاكتشاف الأماكن التي تبحثان عنها، وإذا أراد أحد الإقدام على هذا العمل وطلب منا الإذن بذلك فإننا سنطلعكما على رغبته قبل منحه الإذن المطلوب، لكي تتمكننا إن شئنا من القيام بالرحلة ذاتها»<sup>(5)</sup>. وتعطي البنود التالية ماجلان حق الاستيلاء على جزء من عشرين من دخل البلاد التي يكتشفانها، وجزيرتين إذا زاد عدد الجزر المكتشفة عن ستة جزر وتسبع على ماجلان لقب حاكم في جميع الأراضي التي يكتشفها.

### التحضير للرحلة

قام ماجلان بتحضير كل شيء تحت إشرافه، لأنه سيمضي إلى

(5) كتاب ماجلان قاهر البحار - تأليف ستيفان زيفايچ - ترجمة حبيب جاماتي -



رحلة يقاسي فيها كل أنواع الحرمان، يعيش تحت كل الظروف والفصول، وأي نقص في شيء مهما بلغ تافهاً سيعرض الرحلة لأزمة حادة، قد ينتهي بها بالإخفاق، فقام بتحضير كل شيء بدءاً من عدة الصيانة وورشات النجارة وانتهاء بعدة الجراحة وسلاسل تقييد العصاة، وتنقل لنا المذكرات استعراضاً عجيباً للأشياء التي شحنها في بطون السفن، بما فيها آلاف الأجراس ومئات المرايا التي تسحر أهالي الجزر البدائيين.

### المرايا والأجراس لأهل الجزر البدائيين

بجانب أكياس الدقيق واللوبيا والعدس والأرز والحبوب الأخرى، 5700 ليبرة من اللحم المملح و200 برميل من السردين و450 رزمة من الثوم والبصل و1512 ليبرة من العسل و3200 ليبرة من الزبيب واللوز، وفي النهاية سبع بقرات سمان و20000 من الأجراس وتسعمائة من المرايا الصغيرة، وعدد كبير من المناديل الملونة والقلائس الحمراء والأساور النحاسية والأمشاط والحلى الزائفة، وقطع الزجاج وثياب تركية لزعماء القبائل في الحفلات الرسمية، فليس هناك من شيء يستهوي أهل الجزر البدائيين مثلها. والخلاصة لم يبق شيء لم يأخذه ماجلان معه في هذه الرحلة، التي لا يعرف أين تنتهي وكم تدوم وهل سيرجع منها سالمًا؟

### كائن فوق البشر لا يمكن قهره؟!

ولكن الذي في السفن لم يكن ما تشتهيهِ النفس وتطيب له البطون فقط، بل أطلت فوهات المدافع من كل جانب من فتحات السفن الجانبية، وكأنها أسنان القرش الأزرق من كل أنواع الأسلحة الفتاكة،

فالاستعمار الغربي كان يمشي في العادة على ثلاث مراحل؛ (السفن الأولى التي انطلقت من لشبونة وهبطت نهر تيجو وانطلقت نحو المجهول، قد استخدمت لاكتشاف أراضي جديدة. والسفن التي تلتها في الدفعة الثانية كان هدفها التجارة مع البلدان المكتشفة. أما العمارة الثالثة فقد جهزت للقيام بأعمال حربية. ففي يوم 25 آذار/ مارس 1505 م بدأ عهد الاستعمار الذي كان يوطد دعائمه دائماً على ثلاث مراحل، اتبعت خلال عدة أجيال. ففي بادئ الأمر ينشأ مركز للتجارة، ثم تشاد بجانبه قلعة بحجة حمايته. وبعد أن يتبادل المستعمرون التجارة مع حكام الأقطار الجديدة ينقلون الجيوش من بلادهم لانتزاع تلك الأقطار من أصحابها والاستثمار بمنتجاتها). ولعل هذا هو السر في قفل اليابان أراضيها لأي قدم أجنبية، فحافظت بذلك على استقلالها، وفي قصتنا الحالية مع رحلة ماجلان، فلقد امتلأت السفن الخمسة بآلات الحرب والقتال، فاصطحب معه ثمان وخمسين مدفعاً وسبع قاذفات طويلة وثلاث قاذفات قصيرة تبرز فواتها خلال نوافذ السفن وقنابل مصنوعة من الحديد والحجارة تتراكم في قاعها فضلاً عن أطنان عديدة من الرصاص وألف رمح ومائتي حربة ومائتي ترس، وكان نصف رجال الحملة مزودين بالدروع والخوذ، يضاف إلى هذا عدتين مدرعتين كاملتين للقائد العام، تغطيانه بالحديد من رأسه إلى قدميه، وتظهره أمام سكان الجزر في مظهر كائن فوق البشر لا يمكن قهره.

### نوعية رجال الحملة

نفض البحارة المجربون يدهم من هذه الحملة التي لا يعرف

مصيرها، ودخل المغامرة أناس غير ذي بال تم جمعهم من حثالة المجتمع، فقد اقتضى انتزاعهم من أزقة الموانئ وحاناتها أسابيع طويلة، وقد لجأوا إليها بأطمار بالية قدرة متململين، يلهجون برطانات عجبية لا يتصورها عقل، فقد وجد العدد الكافي من المرتزقة من كل جنس ولون، فكان بينهم البرتغالي والإسباني والزنجي والألماني والفرنسي والإنجليزي والقبرصي وغيرهم، يرطنون بدزينة من اللغات المتباينة، ومثلها من اللهجات المختلفة. ولم تكن المشكلة فيهم بقدر الربابنة الإسبان الأربعة الذين يقودون بقية السفن الأربعة (سان أنطونيو حمولة 120 طن) و(فكتوريا حمولة 85 طن) و(كونسيون حمولة 90 طن) و(سانتياغو حمولة 75 طن) الذين كانوا يتأملون ماجلان بنظرات مليئة بالحسد والريبة والعداء، فهم كانوا ضمانا الملك الإسباني لرحلة يقودها برتغالي متمرد على الملك عمانويل الأول، خاصة خوان دي كارتاجينا ولويس دي مندوسا.

إن ماجلان يتذكر تماماً الكلمات التي تفوه بها القنصل البرتغالي - في حركة لإيقاف المشروع كي تقوم به البرتغال من الشرق للوصول والاستيلاء على جزر البهار في جزر تيمور: «عندما تعثر على الممر الذي يصل بين البحرين سوف يتم التخلص منك كي لا تنال شرف هذا الاكتشاف ويبقى فخره للإسبان فقط، فتصبح طعاماً لسماك المحيط»<sup>(6)</sup>، مع هذا استطاع ماجلان ضم ثلاثين من البحارة البرتغال

(6) تراجع في هذا القصة الشيقة التي كتبها الروائي النمساوي الشهير ستيفان زيفايچ - ترجمة حبيب جاماتي - مختارات الإذاعة والتلفزيون - ص 68 - والجدير بالذكر أن الكاتب المذكور هرب من الاضطهاد النازي إلى البرازيل ومات هناك متحرراً.

إلى كامل الطاقم البالغ عدده 250 رجلاً، منهم المتقنون لغات المناطق التي سيرتادونها بما فيها جزر البهار تيمور، وكان بين البحارة 12 رجلاً يثق بهم ماجلان تمام الثقة. ولكن أهم رجل على الإطلاق في الرحلة كان (أنتونيو بيجافيتا) وهو من جمعية فرسان رودس الذي جاء ليس للربح بل حباً في السفر والاطلاع والسياحة، وكان ليوميات هذا الرجل في الرحلة الذي لم يكن بحاراً وليس عنده سوى التدوين اليومي للأحداث والطبيعة والحيوانات أن خلد هذه الرحلة بأدق التفصيلات. إذ ما قيمة العمل الذي لا يتحدث عنه الرواة ولا يسجله التاريخ؟ هذا الشاب الإيطالي الهادئ المتواضع الذي كان يبدو أقل رجال الحملة فائدة، هو الذي نقل إلى الأحقاب العمل العظيم الذي قام به ماجلان. لقد بلغ الدقة في التفاصيل التي كتبها (بيجافيتا) أن سجل لنا بعض الألفاظ التي رطن بها سكان بيتاجونيا (من الإسبانية ذوو الأقدام الكبيرة، وأصحاب هذه الأجسام العملاقة اجتمعوا بها في جنوب شيلي والأرجنتين الحالية) الذين كان يخاطبهم بالإشارة، وإليه يرجع الفضل في تطوير القواميس الأولى للغات أمريكا القديمة. ومن مفاخر بيجافيتا أن شكسبير نفسه الشاعر البريطاني المشهور دهش من وصف بيجافيتا لعاصفة البحر، فاستخدم وصفه في مسرحيته المشهورة (العاصفة).

### شخصية ماجلان (فرنان دي ماجلان)

قصير هادئ ذو لحية حمراء يجرد ساقه اليسرى، فهي نصف مشلولة من آثار طعنة حربة في ركبته في معركة دخل بها لاحتلال المغرب، ونظراً إلى أنه سيسافر إلى المجهول ولا يعرف هل سيعود أم

لا، وهذا الذي حصل، فهو لم يكمل الرحلة ومات قتيلاً في مكان نائي عن الوطن، فقد كتب وصيته للموت قبل رحيله بيومين، بين التوزيع على الفقراء والكنائس، وورث لقبه، ومصير عائلته، ومكان دفنه، ولكن بقيت الوصية حبراً على ورق فلا جثته دفنت حيث أراد، فبقي في العراء وهو مذموم، ولا المال بقي منه ما يوزع، ولا الفقراء لاقوا العزاء، وأما الذي مكث بعده فعلاً فهو عمله الذي ورثته الإنسانية قاطبة، وأما المتاعب التي صادفت هذا الرجل العنيد العبوس الصامت فابتدأت منذ خطوات الرحلة الأولى.

### متاعب الرحلة

منذ اللحظة الأولى التي انطلق فيها ماجلان بدأت المتاعب في صور شتى تحتاج لأعصاب فولاذية، فمع الوصول بعد ستة أيام من الانطلاق إلى جزر الكناري في الأطلنطي، وهي جزر إسبانية، أرسل له حموه رسالة سرية أن هناك مؤامرة يديرها (خوان دي كارتاجينا) لخلعه والتخلص منه في الرحلة، وتابع ماجلان رحلته في هذه الظروف النفسية البئيسة، وكانت هذه آخر رسالة تلقاها من الوطن. وكانت العقبة الثانية في إبقاء السفن الخمسة قريبة من بعضها، ونحن نعرف هذه الظاهرة في شوارع المدينة فيما لو أرادت مجموعة من السيارات أن تمشي خلف بعضها باتجاه عنوان لا تعرفه سوى السيارة الأولى فقط، ولكن هذه السفن لا تعرف الطريق ولا تعرف الهدف وليست في مدينة عامرة بالحياة، بل هي في خضم المحيط اللانهائي، وضياعاً من هذا النوع معناه الهلاك المحتم للسفينة. لذا اتبع ماجلان نظام قيادي ظريف، في أن تمشي سفينة القيادة (ترينيداد) في الأمام

يرفرف عليها العلم، وكانت المشكلة في الليل، وتم حلها بفكرة إضاءة المصابيح بين واحد وأربعة مصابيح في مؤخرة سفينة القيادة، إشارة إلى ببطء السير أو الريح أو المطر وضم بعض القلوع الصغيرة أو كلها، أما إذا أُطلقت المدافع أو أشعلت النيران فهذا معناه الحذر الشديد، وكان على كل سفينة أن تجيب بالمثل، علامة على فهم الإشارة، وكانت العقبة في بداية التمرد عندما سار ماجلان في غير الخط الذي تم الاتفاق عليه باتجاه البرازيل متجهاً جنوباً حذاء ساحل سيراليون قبل أن يعطف غرباً، طلباً للريح وابتعاداً عن مطاردات ملك البرتغال خصمه السابق الذي هرب منه إلى التاج الإسباني لتنفيذ مشاريعه، ولكن الضابط الملكي الإسباني (دي كارتاجينا) بدأ يتململ من قيادة ماجلان وأظهر بوادر العصيان، فما كان من ماجلان إلا أن اعتقله بضربة خاطفة مذهلة بعد أن استدرجه إلى سفينة القيادة، وتابع سيره ليصل إلى البرازيل، التي كانت قد تحولت إلى مستعمرة برتغالية منذ أن اكتشفها (الفاريز كابرال) عام 1500 م، ليحولها إلى مستعمرة لاحقاً في عام 1509 م.

### كرونولوجيا الرحلة (تتابع أحداث الرحلة الزمني)

كانت مغادرة إشبيلية في 10 أغسطس/ آب عام 1519 م بخمس سفن و250 رجلاً أما يوم الانطلاق فكان الثلاثاء 20 أيلول/ سبتمبر سنة 1519 من ميناء سان لوكار، وبذلك تمت مغادرة الأرض الإسبانية، وفي 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 1519 م، كان الوصول إلى ساحل البرازيل وفي 13 كانون الأول/ ديسمبر دخلت السفن الخمسة

خليج ريو دي جانيرو بعد سفر استغرق 11 أسبوعاً<sup>(7)</sup> وفيها وصف بيجافيتا ثمار الأناناس وقصب السكر والبطاطا<sup>(8)</sup>، وكذلك رخص الأسعار هناك فمرأة صغيرة بعشر ببغاوات وجرس صغير مقابل سلة مليئة بالبطاطا، وكذلك بيع الفتيات بمقابل سكين يحصل على ثلاث فتيات ملك يمين مدى الحياة!

وفي 10 كانون الثاني/يناير 1520 م وصل ماجلان إلى رأس (سانتا ماريا) الذي هو اليوم مكان مدينة (منتفيديو) عاصمة (الأورغواي) الذي أطلقه عليه ماجلان وكان يبحث بحرقه عن الممر المزعوم الذي رآه في خريطة الجغرافي الألماني (مرتان بيهام) فسر أشد السرور، وظن الجميع أن فتحة المحيط الهادي أصبحت قاب قوسين أو أدنى، ولكن الخليج لم يكن بكل أسف سوى المصب العظيم لنهر (ريو دي لابلاتا) الذي يضم في حقيقته مصب نهرين وترقد بجانبه عاصمتين، نهر (أورغواي) ونهر (بارانا)، مونتيديو عاصمة الأورغواي وبوينس آيرس (الهواء العليل) عاصمة الأرجنتين

(7) سميت المدينة خطأً بأن هناك نهراً خلفها فكلمة (ريو) تعني نهراً باللغة الإسبانية و(جانيرو) نسبة إلى القديس (يناير) وكثير من الأمكنة والمدن أخذ من الإسبان المعنى الديني، لدولة خرجت من حروب صليبية مرهقة دامت حروب الاسترداد فيها ثمانية قرون ضد العرب في شبه الجزيرة الإيبيرية مما جعل تكوينهم الروحي في غاية الصلابة والتعصب والانغلاق، وانتقلت عاصمة البرازيل عام 1961 م من ريو دي جانيرو إلى برازيليا.

(8) كان اسمها الباتات وبعد نقلها إلى أوروبا أصبح اسمها البطاطس كما يسمى يومئذ أي تفاح الأرض، ومن هنا أخذ اسم البندورة في بلاد الشام، وهكذا فنحن ننتمتع اليوم بأكل البندورة (الطماطم) والبطاطا إلى سكان أمريكا الذين تمت إبادتهم على يد الإسبان والبرتغاليين.

ويبلغ عرض المصب 320 كم - بعد صدمة الخيبة من الوصول إلى الممر السري الذي اعتقد بمعرفته من خريطة الجغرافي الألماني (ميرتان بيهام) دخل في حالة كآبة وإحباط نفسيين فظيعين، فبدأ يبحث كالمجنون عن الممر الفعلي إن كان موجوداً، هذه المرة بالمزيد من الاقتراب من الصقع الجنوبي، فخط العرض بدأ يتجاوز الأربعين، والبرد والثلج يجمد كل شيء، والبحارة يتململون، والريابنة الإسبان يضحكون على ماجلان ويتندرون، وإذا مروا به يتغامزون، ولكن عزيمة ماجلان لم توهن فتابع الرحلة في ظروف جوية مرعبة ووضع نفسي محبط وتآمر إسباني (باعتباره برتغالياً) محقق به، فاستؤنفت الرحلة تحت أشعة شمس كثيفة وازدادت الوحشة فظاعة وجعلت الأيام تقصر والليالي تطول، والسفن الآن لا تسير في جو رقيق، بل زوابع عنيفة تعبت بالقلوع والثلج والبرد يتساقطان عليها بشدة، وقد استغرق اجتياز المسافة القصيرة التي تفصل بين ريو دي لابلاتا ومرفاً سان جوليان شهرين كاملين، فالسفن تكافح الزوابع كل يوم، والرياح تهز الصواري والقلوع بعنف والممر المنشود لا يظهر له أثر<sup>(9)</sup>. وأرجو من القارئ أن يحضر أثناء قراءة هذه المقالة خريطة العالم سواء الورقية المسطحة أو الكرة الأرضية (الطابة) ويتأمل خطوات الرحلة ويشرح هذه المغامرة الإنسانية الكبرى في التاريخ الإنساني لأولاده، فهي بحق متعة نحن نتسلى بها ونتعظ، ولكن أصحابها دفعوا حياتهم ثمناً لهذا الاكتشاف فمن أصل البحارة لم يرجع إلا أقل من عشرهم لأن هذه الاكتشافات هي التي غيرت العالم وقلبت ميزان القوى في الكون

(9) ماجلان - زيفايج - حبيب جاماتي، ص 105.



لمصلحة الغرب ضد المسلمين، وقبل أن نمضي في استعراض هذه الرحلة الشيقة العجائبية إلى نهايتها، ننقل تعليقاً هاماً للمؤرخ الأمريكي عن آثار الرحلة، كما نفاجئٍ بالنهاية الدرامية للغزاة المكتشفين الإسبان الذين أذاقوا كأس المرار مترعاً لشعوب الأرض الجديدة، فذاقوا من الكأس نفسها، وتلك الأيام نداولها بين الناس .

### عاقبة الغزاة الإسبان

فأما كولومبو الذي اكتشف أمريكا بدون أن يعرف بصدفة تاريخية عجائبية فكان مصيره أن أرسل إلى إشبيلية مصفداً بالأغلال، وأما (هيرناندو كورتيس) مدمر حضارة الأزتيك فقد بقي مغضوباً عليه من البلاط الإسباني مدى الحياة، في حين أن (فرانسيسكو بيزارو) الذي اغتال ملك الإنكا بالخنق ختم حياته مقتولاً، وأما (نينيو دي بلباو) الذي كان أول من حدق إلى صفحة المحيط الهادي كمكتشف أول له من البر فكلفته هذه الإطالة أن طار عنقه واحتز رأسه، وكانت نهاية ماجلان قتلاً، ولكن بيد أهل الجزر البعيدة، فعلى هذه الصور كانت النهاية البئيسة لهؤلاء المغامرين المكتشفين الذين غيروا صورة العالم ومصير أوروبا بضربة سحرية .

### آثار الرحلة

حسب ديورانت يعتبر أن ثورة ماجلان غيرت موازين العالم على الصورة الآتية: «فتحت أعظم ثورة تجارية في التاريخ (قبل أن تبلغ الطائرة مرحلة النضج) المحيط الأطلنطي وغيره من المحيطات للتجارة الأوروبية، وخلفت البحر المتوسط في حالة ركود تجاري، تبعه بعد قليل ركود ثقافي، وانتقلت النهضة من إيطاليا إلى دول الأطلنطي،

وراحت أوروبا التي كانت تملك سفناً ومدافع أفضل وسكاناً أصلب وأشد رغبة في التملك والمغامرة، راحت تفتح - وأحياناً تستعمر - البلد تلو البلد من الأقطار المكتشفة، وأكره السكان الوطنيون على العمل المتصل الشاق الذي لم يتعودوه لإنتاج السلع لأوروبا، وأصبح الرق نظاماً راسخاً، وغدت أصغر القارات تقريباً أعظمها ثراءً، وبدأت حركة صبغ الكرة الأرضية بالطابع الأوروبي<sup>(10)</sup>.

## رحلة ماجلان في منظورها التاريخي (2) الآثار الجانبية البعيدة للرحلة

### أعجب قرار تاريخي

مع اشتداد غليان حمى الاكتشافات في نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر للميلاد، وتصاعد رائحة البهار والقرنفل من الشرق الأقصى، وازدياد لمعان الذهب في العالم الجديد، تصاعد التوتر بين إسبانيا والبرتغال؛ وهدد باشتعال الحرب بين الدولتين، فما كان من البابا إلى أن هدأ الجو بحل في غاية البساطة، فجاء إلى خارطة العالم فقسّمها بين الدولتين بجرة قلم، وشطر الكرة الأرضية إلى حصتين بالتساوي، فكل ما كان شرق الجزر الخضراء في المحيط الأطلسي من حصة البرتغال، وكل ما كان إلى الغرب من ذلك كان من نصيب إسبانيا غير منقوص، وكانت بذلك قسمة غير ضيزى، ورضيت كل دولة بنصيبها من الكرم البابوي، في حفلة توزيع القارات والشعوب والثروات. كان هذا القرار البابوي في الرابع من أيار/ مايو من عام 1493 م. وكانت رحلة ماجلان ضمن هذا الإطار الكوني من التنافس الإسباني البرتغالي، فماجلان اندفع تشده رائحة البهارات وبريق الذهب في أقصى الشرق، وظن أن الالتفاف إلى الجزر الأندونيسية من جهة الغرب سيكون أسرع، ولكنه نجح وخاب في

الوقت نفسه: نجح في الوصول إلى جزر تيمور وإيريان وملوك<sup>(1)</sup> في أرخبيل الملايو، حيث تنتج الأرض ما لذ وطاب من مقبلات الطعام، من القرنفل والبهار والزنجبيل، في أكثر من موسم سنوي، وأثبت أن الأرض كروية، فمن أي نقطة ينطلق الإنسان ويغذ السير في الاتجاه نفسه سيرجع من حيث بدأ، ولكنه فشل في مشروعه، فالطريق إلى الشرق الأقصى غير عملي، ومرهق اقتصادياً، وطويل موحش في محيط عظيم يكاد يكون لانهاياً.

### آثار جانبية لا تصدق من مشاريع فاشلة لكولومبس وماجلان

وهكذا فشل نظرياً وعملياً كل من كولومبس وماجلان في مشروعيهما: فلا وصل كولومبس إلى الهند، ولا أثبت ماجلان جدوى الالتفاف الغربي للوصول إلى جزر الشرق الأقصى، وسقطت جزر البهارات في النهاية في يد البرتغاليين وليس في يد الإسبان، كما خطط وتعب لذلك ماجلان ضد دولته التي خرج منها غاضباً وهو مليم. ولكن الآثار الجانبية من الرحلتين كانت أعظم بما لا يقارن، ولا يقف جنبه التصور؛ ففي هذه الحركة التاريخية من روح المغامرة والاكتشاف والحركة والسير في الأرض، أهدى كولومبس أوروبا أراضي أكثر من مساحة القمر مرتين، وضم ماجلان الفلبين<sup>(2)</sup> الحالية

(1) جزر ملوك هي اليوم جزء من مجموعة جزر أندونيسيا تقع بين جزر سيليبس، وهي اليوم سيداواسي وجزيرة غيانا الجديدة أي إيريان.

(2) مجموعة من الجزر في بحر الصين استعمرتها إسبانيا منذ عام 1527م، وثار سكانها بعد قرابة أربعة قرون (369 سنة) في عام 1896م، واستنجدوا بالولايات المتحدة الأمريكية في ذلك، ونشبت الحرب الإسبانية الأمريكية =

إلى التاج الإسباني والكنيسة الكاثوليكية منتزعا إياها من السيطرة الإسلامية، وإن كان قد دفع حياته ثمناً لهذه المغامرة الجريئة. هذه القصة تروي لنا بركة الحركة والسير في الأرض للنظر، فكل تغير العالم الحالي كان من أثر جانبي لم يخطط له لا كولومبس ولا ماجلان، فكولومبس قام من خلال تزوير وضلال في الحسابات بمغامرة، ظن فيها أنه وصل إلى الهند، ولكنه اكتشف ما هو أهم من الهند وكاتاي وسيبانجو بكثير؛ فغير خارطة العالم، وقلب ميزان التاريخ، وقرر مصير العالم جميعاً، في ضربة حظ ومصادفة عجائبية، لم يفطن لها هو نفسه حتى موته. أما ماجلان فقد لف الكرة الأرضية كأول عمل رياضي من نوعه، فأثبت كروية الأرض عملياً، ووصل إلى جزر (ملوك) التي حلم بها، ولكنه شعر تماماً بعدم جدوى هذه (اللفة) المجنونة، كي يصل إلى الشرق عن طريق المسار الغربي، كمن يشير إلى أذنه اليمنى باليد اليسرى، وأن الأفضل عملياً، والأوفر اقتصادياً، والأقصر زمناً، هو الطريق المعروف عن طريق الشرق للوصول إلى الشرق. هذا الكلام يصح قبل شق قناة السويس. فشق القناة قلب الميزان الجغرافي مرة أخرى كما فعل اختصار رحلة الغرب إلى الشرق بمقدار الثلث، ففعلت قناة السويس الشيء نفسه؛ فاختصرته إلى السدس، واختصرت قناة باناما رحلة ماجلان المجنونة بعشرات الكيلومترات، وكادت أن تُفتح قريباً من افتتاح قناة السويس لولا البعوض اللعين، الذي شكل عقبة جدية في مشروع افتتاحها،

---

= التي انتهت بتنازل إسبانيا عن جزر الفليبين لمصلحة أمريكا، التي استقلت نهائياً عام 1946 م.

عن طريق مرض التهاب الكبد الفيروسي بين العمّال<sup>(3)</sup>.

### جدلية الرئيسي والجانبى

هكذا هي طبيعة المتناقضات في مسار التاريخ، فعن طريق التسارع والإلحاح الإنساني في اتجاه، تتولد أمور جانبية غير ذات أهمية، لكن العجيب أن الشيء الجانبى يتحول مع الوقت إلى رئيسى، فى الحين الذى ينكمش ويتضاءل الرئيسى لتأكله ملفات النسيان مع الوقت. وهذا يتبع قانون (الخيرية والديمومة) الذى أشار إليه المبدأ القرآنى؛ أن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يكث فى الأرض، فمن زخم المغامرات خرجت الاكتشافات بأراضٍ جديدة غير مفكر بها، ومن أسلحة الحروب خرجت أدوات السلم، ومن الإنترنت تولد اليوم الديموقراطية، ومن رحم الحرب يولد السلم اليوم، بعد تطوير السلاح النووي، الذى صعد القوة إلى مداها الأقصى؛ فألغت القوة القوة فى معادلة متناقضة، كما توقعها الكيمياوى السويدي (ألفرد نوبل) صاحب جائزة نوبل الذى اكتشف الديناميت وطوره.

### مبدأ السير فى الأرض

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ يسحر الإنسان تحت إشعاع معاني هذه الآية التى طبق جزءاً منها ماجلان وكولومبس ودارون وكابوت وكوبرنيكوس وجاليلو وفيساليوس<sup>(4)</sup> فقلبوا تصور

(3) يراجع فى هذا كتاب قاهرو الحمى الصفراء - حيث رويت القصة بالكامل عن أثر البعوض الخطير فى مشروع افتتاح قناة بناما.

(4) اتجه إلى الشمال مع حمى الاكتشافات فى الوقت الذى يمم كولومبس شطر =

العالم في الكون والجغرافيا والتشريح الإنساني والأثروبولوجيا (علم الإناسة) فكما قلب كوبرنيكوس وجهه في السماء، فقلب مفاهيم علاقات الشمس والأرض وحركة الأرض، كذلك كانت رحلة ماجلان وكولومبس خيراً وبركة على الفقراء الأوروبيين الجهلة القذرين، الذين استمروا لألف عام يطاردون الساحرات والقطط، ويحرقون العلماء والمفكرين والكتب في الساحات العامة<sup>(5)</sup>، ولا يعرفون الاستحمام والحمامات، ويعالجون السعال الديكي بلبن الحمير، ويبيعون تذاكر لدخول الجنة، ويتعجب البابا من سخف عقول الناس في كروية

---

= المغرب وفاسكو دا غاما شطر المشرق، فإن كابوت ولى وجهه شطر الشمال فاكشف أرض لابرادور.

(5) ورد في كتاب قصة الحضارة إحصاء عن عدد الذين كانوا يحرقون في الساحات العامة، فبلغ في إسبانيا معدل أربعة أشخاص في السنة الواحدة، إلى درجة أن الأسقف العام لكل إسبانيا وطليلة سابقاً تم اعتقاله لمدة 17 سنة، بسبب دعوى تعاطفه مع البروتستانت، وأحرقت شخصية هامة ورحمت زوجته بالسجن فقط، فلما ملت من الحياة بعد عشرة سنوات أعلنت عن عقيدتها البروتستانتية فأكرمت بالحرق، وكان من مناظر الإعدام الجماعية في إسبانيا المتعصبة أن الذين يرجعون عن الهرطقة يكافئون بقطع رؤوسهم، ومن يستمر متمسكاً في عقيدته يحرق حياً كائناً من كان، ذكراً أو أنثى، شيخاً أم شاباً، وهو الذي عرضه أيضاً فلم كولومبس الذي أنتجته هوليد من جديد، وشرب المسلمون الكأس مترعاً من الكأس الإسباني، وعلى الرغم من مسح كل مظهر للإسلام في أرض الجزيرة، فإن الإسبان مغلقى العقول لم يستطيعوا تحمل وجود أحفاد المسلمين بينهم، حتى لو دخلوا الكنائس وحملوا الأسماء المسيحية في حملة تطهير عرقي ديني مجرمة، فصدر قرار الملك فيليب الثالث عام 1609 الذي رحل جميع بقايا المسلمين من أرض الجزيرة، في حدود 400 ألف إنسان، من أصل تعداد سكاني لإسبانيا في ذلك الوقت يصل إلى مليونين، ما يشبه ترحيل عشرة ملايين نسمة في الوقت الحالي.

الأرض وحركتها؛ كيف لا تسقط الأشياء الموجودة في أسفل الكرة، وكيف تسقط الأشياء المرمية إلى السماء إلى موضعها نفسه؛ فلا تطيح إلى موضع آخر مع حركة الأرض ودورانها الرشيق المزعوم. الذي حصل أن العقل الغربي استفاد من العالم الإسلامي فاستخدم عقله، في الوقت الذي طلق العالم الإسلامي عقله ثلاثاً لا رجعة فيها.

من الغريب والمحزن في الوقت عينه أن العالم الإسلامي يمشي وكأن ظهره للقرآن، في تصميم وعناد غير مفهوم ولا مبرر؛ أن لا يستفيد منه بشيء ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، فبقدر ترسيخ مفهوم السنة (القانون) في القرآن، خاصة في المجال الاجتماعي النفسي، بقدر اعتماد الفكر الإسلامي الخرافة واللاقانون، وبقدر إلحاح القرآن على السير في الأرض والنظر بقدر إصرار العقل الإسلامي على عدم الاستفادة من دروس التاريخ والواقع، في حركة تحويل عنصرية للإسلام، وفي معادلة خاطئة جداً للخلط بين المبدأ والشخص، واعتبار أن المسلمين يشكلون شذوذاً عن البشر فلا يخضعون لسنة الله في خلقه، فعندما كان يلفت نظر السلاطين العثمانيين إلى الاستفادة من الدرس الأوروبي كان السلطان يجيب: سلطان المسلمين لا يزور بلاد الكفار إلا فاتحاً! في انتفاخ تاريخي أجوف يتطلب ترميمه أحقاباً من العمل المضني.

### فانظروا كيف بدأ الخلق!؟

ثلاث كلمات فيها مفتاح الحركة: قل سيروا في الأرض فانظروا (كيف بدأ الخلق)؟ فالأمر للسير في الأرض من أجل تأمل ظاهرة



الخلق، وطالما كان الوجود يقوم على حقيقة الخالق والمخلوق، فيندرج تحت لفظ المخلوق والخلق كل ما عدا الله سبحانه وتعالى، فكانت كلمة (الخلق) طيف عجيب من الممكنات للدراسة، فيمكن إدخال الكون كله تحت هذه الدراسة الشيقة، لمعرفة كيفية بدء خلقه، والقوانين التي تحكم ظاهرتة، وبنيتة التي تشكل كيانه، ومصيره الذي يتجه إليه. ينطبق هذا على عوالم لا حصر لها للدراسة؛ بدءاً من الذرة إلى المجرة في عالم المادة، من الخلية حتى أعقد التكوينات البيولوجية، في عالم النفس وديناميكيتها الخفية، في عالم المجتمع، وحركة البشر، ونهضة الأمم، واشتداد عود الدول، وانبثاق الحضارات، وموت المجتمعات؛ فكما كان للفرد أجل فإن للأمم آجال لا تهرب من قبضتها ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾<sup>(6)</sup>، فنلاحظ أن القرآن أشار إلى نوعين من الموت: الفردي والجماعي، فكما يهرم الفرد وتدب فيه الشيخوخة ويطوقه الفناء، كذلك يزحف الموت إلى المجتمعات فيلتهمها؛ فهذا مصير مشترك للفرد والمجتمع.

فكل ما عداه سبحانه وتعالى خاضع لهذه القاعدة من الدرس والتأمل ومعرفة كيفية بدء خلقه.

ماجلان قام بالسير في الأرض وكل من يسير في الأرض يكافئه الله على هذا الجهد، فهذا هو السر خلف ارتفاع الغرب وإمساكه بالقيادة الكونية اليوم، وانتكاس العالم الإسلامي على رأسه، في وضعٍ

(6) سورة يونس الآية رقم 49 ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفْتِحُونَ﴾ - ونلاحظ اختلاف هذه الآية عن موت الفرد وجاءت سكرة الموت بالحق.

لا يسر قلب المحب، ويفرح قلب الشامت.

### الخلفية التاريخية للرحلة

لا يمكن فهم انطلاق دول الحافة الغربية لأوروبا بدون فهم تاريخي جغرافي حضاري، فالأوروبيون كانوا يجهلون الليمون الحامض<sup>(7)</sup> ومنذ أن نقل الرومان التوابل الشرقية إلى أوروبا اعتمد الطعام الأوروبي على استقدام هذه المادة الطريفة التي تعطي الطعام نكهة، ولكن كلفتها كانت على قدر الضرائب المفروضة من أقصى الشرق حتى المستهلك في أوروبا، في رحلة طويلة مكلفة إلى أبعد الحدود. كان الأوروبيون يستوردون التوابل الشرقية والعطور العربية والعقاقير الهندية عبر الشرق الأوسط، فالالتفاف حول أفريقيا كان محاصراً بأفكار بطليموس الجغرافية التي رسمت تصوراً نهائياً للعالم، فكان لا بد من كسر الطوق الفكري، وهذا الذي حصل حينما تم تحطيم مسلمات بطليموس الكونية والجغرافية، فكل تقدم تقني سبق في العادة بتحطيم قيد فكري، والتخلص من ضغط مُسلِّمة عقلية آسرة.

استطاع كوبرنيكوس أن يوجد كوناً جديداً، ومضى ماجلان يرسم جغرافية جديدة للكون الذي نعيش فيه، وأبرز شيء في رحلة ماجلان هي معرفة العالم الكلي الذي ننتسب إليه، فمع التحام نظرية كوبرنيكوس ورحلة ماجلان انقلب تصور العالم تماماً، فبقدر ما أصبحت الكرة الأرضية مكتشفة محصورة معروفة صغيرة، بقدر ما

(7) كتاب ماجلان قاهر البحار - تأليف ستيفان زيفايج - ترجمة حبيب جاماتي -

عرفنا أن العالم الذي نتسبب إليه أكبر بكثير مما حبسنا فيه التصور الفلسفي اليوناني القديم .

بعد فك الطلسم العقلي هان كل أمر بعده، فهذه الأفكار الجديدة كانت الأساس الذي قام عليه ما بعده، وكان ينتظر الزناد الذي يقود الشرارة التاريخية، وهو ما حصل بانهييار بيزنطة النهائي في الحافة الشرقية لأوروبا، الذي سارع بانهييار الجناح الغربي للأندلس الإسلامي، الممثل في غرناطة، حيث انتهى آخر معقل (فرامل) أمام الانزياح الكامل للقوة الغربية المحاصرة من الشرق، وهنا لعب العنصر الجغرافي التقني الدور الحاسم في النقلة الجديدة، فمع أن الشروط العقلية في شبه الجزيرة الأيبيرية لم تشكل المناخ المثالي لحركة من النوع الذي قامت به إسبانيا والبرتغال، ولكن الموقع المطل على المحيط دفع هذه القوى في الجبهة الأمامية لتجرب حظها في مغامرة المحيط الكبرى . وهكذا اجتمعت عناصر الرحلة بمناخ عقلي جديد ممزوج برائحة البهارات ولمعان الذهب .

### بين معركة الأرمادا ومعركة أنقرة

كما كان القرن الحادي عشر زمن تألق الحضارة الإسلامية، فإن النجم المغولي لمع في القرن الثالث عشر للميلاد بشدة النيزك الحارق ليلبتله الظلام التاريخي بعد حين، لتصعد القوة العثمانية العالمية في القرن الخامس عشر. أما القرن السادس عشر، فكان المقعد فيه محتلاً من قبل القوة البرتغالية الإسبانية، وكاد العالم تحت المظلة الإسبانية المروعة من تعصب كاثوليكي محروس بدقة بالغة، بمحاكم تفتيش لا تعرف الرحمة تفتش عن عقائد الناس وتصرفاتهم، أن يتوقف به الزمن

ألف سنة أخرى ونولد نحن اليوم كما لو كنا في العصر المملوكي ، فالعالم الإسلامي يومها كان قد رسم مصيره ونضبت ينايع العقل عنده فودع التاريخ وتوقف عنده الزمن . والقوة الإسبانية المتخمة بفضة البيرو وذهب ودم المستعمرات ، كانت قد شبت طغياناً وتصلباً ، لولا معركة خطيرة رسمت تاريخ الفكر الإنساني وحركة التقدم في أوروبا هي معركة (الأرمادا - تموز/ يوليو 1588 م) التي استعد لها الإسبان طويلاً ، لبناء أسطول بحري لسحق بريطانيا البروتستانتية مدفوع الثمن من البابا، التي كانت تنمو يومها في محضن حركة الإصلاح الديني والبدائيات الأولى لنمو الروح البرلمانية في عهد الملكة إليزابيث . هذه المعركة رسمت قدر أوروبا بأن تتراجع إسبانيا لتنهض قوى جديدة أكثر تقدمية في القارة ، ولتشكل المناخ الأولي لاستنبات بذور الفكر التنويري ، لحسن حظ الجنس البشري .

إذا كانت معركة أنقرة في عام 1402 م أنقذت أوروبا من الشرق بحرب برية قادها تيمورلنك لتحطيم القوة العثمانية ، في حركة تاريخية عمياء لإنقاذ الجنين الأوروبي ، فإن معركة الأرمادا البحرية التي انتصرت فيها بريطانيا وسحقت القوة الإسبانية ، كانت المدخل لنمو أوروبا الحديثة التي نعرفها اليوم . لتتابع الآن كرونولوجيا الرحلة بعد أن رسمنا الخطوط الرئيسية لجوها .

### كرونولوجيا الرحلة

عندما غادر ماجلان ساحل البرازيل وسار على حافة الخط الشرقي لقارة أمريكا الجنوبية كان يعتمد خريطة مليئة بالأخطاء الجغرافية ، وأهم خطأ قاتل فيها أن الممر الموصوف فيها والذي يشبه

الثقب بين المحيطين، حُدِّد عند خط العرض أربعين، أي عند خليج ريو دي لابلاتا، حيث يصب نهرين عظيمين هناك، يشكلان معاً عند انتهاء المصب خليجاً هائلاً، ترقد على شاطئه اليوم كلُّ من عاصمتي الأورغواي والأرجنتين (مونتفيدو وبوينس آيرس) ضلَّ الجغرافيين فظنوه هو المدخل من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادي، ولكن المعلومة كانت خاطئة مما جعلت ماجلان يُزلزل عند اكتشافه هذه الحقيقة ويصاب بالارتباك والإحباط فلا يعرف كيف يتصرف، ولم يبق أمامه إلا أن يتابع مسيره إلى الأمام ولو أدى الأمر إلى إثبات نظرية بطليموس الخرقاء عن اتصال القارة بالقطب الجنوبي وهلاك السفن ووجود الوحوش المرعبة والتنينات التي تنفث النار؟! في هذه الأجواء المحبطة ارتعب البحارة وزاغت أبصارهم، وأخذت عيونهم تدور كالذي يغشى عليه من الموت، وزُلزلوا زلزالاً شديداً، فانتهز الفرصة الربابنة الإسبان المرافقين في الحملين فأعلنوا العصيان. ولكن عناد ماجلان وطموحه لمتابعة الرحلة كانت بغير حدود حتى إلى الموت، فدخل معهم في اشتباك قاد إلى الدم والإعدامات، ورمي موظفين كبيرين للبلاط الإسباني على الساحل الأجرد عند خليج (خوان خوليان) جنوب الأرجنتين الحالية، وتابع طريقه بحذر شديد إلى الجنوب في جو أعاصير مرعبة من عنف البحر وقساوة الشتاء، مما اضطره إلى بقاء الشتاء هناك منتظراً الربيع، وفي جو يأس مسيطر استطاع أخيراً أن يعثر على الممر المنشود عند عنق رأس القارة الأمريكية الجنوبية. وكانت لحظة الاكتشاف خالدة مؤثرة، بكى فيها الرجل العنيد العبوس الصامت الأعرج، كما وصفه مؤرخ الرحلة الإيطالي بيجايتا.

## الرجل الحديدي يبكي

تالاسا... تالاسا... هذه الكلمة ومعناها البحر التي كان قدماء اليونانيين يحيون بها أرض الوطن بعد عودتهم من سفر طويل تنطلق الآن من الحناجر ولكن بلغة أخرى! إن هذه اللحظة لأعظم لحظة مر بها ماجلان... لحظة ينعم فيها الإنسان بفرح غير محدود لا يذوقه إلا مرة واحدة في حياته. فقد تحقق حلم ماجلان الآن... هذا الحلم الذي اكتفى آلاف الناس من قبله بمجرد التفكير فيه وهذه الساعة الفريدة في التاريخ تبرر كل ما فعله ماجلان في حياته التي طبعها بالخلود. وفجأة حدث شيء لم يكن أحد ينتظره من هذا الرجل الحديدي فقد غلبه التأثر وخنقته العبرات، وهو الرجل الذي لم يفضح وجهه قط شعوره. إن عينيه تترقق فيهما الدموع الحارة، التي تنهمر الآن على خديه وتتخلل لحيته الكثيفة... إن ماجلان يبكي من الفرح<sup>(8)</sup>.

ولكن عناء الرحلة لم يبدأ، كما أن المسافة الفعلية التي سوف يمضيها في المحيط الهائل مرعبة بحق، ودفع ماجلان فيها الدفعة الأولى من رجاله إلى الموت فمات ما يزيد عن عشرين رجلاً. قبل أن يدفع وجبة لاحقة من الموت الجماعي في جزر الفلبين في مذبحه لرجاله بسبب اعتدائهم على أعراض أهل الجزر المسالمين.

## السير في المحيط العظيم

وبدأت السفن بعد أن أطلت على الصفحة الهادئة للمحيط بالتقدم

(8) المصدر السابق، وهي قصة شيفة بحق ينصح بقراءتها.

بفرح، فليس أمام الوصول إلى الهند سوى خطوات قليلة، ولكن السفن الثلاث تمشي بدون نهاية عشرين يوماً ثم ثلاثين وأربعين وخمسين وستين يوماً دون أن يلمحوا وراء الأفق ظل الأرض، أو يبدو لهم ما يدل على أنهم يقتربون من الساحل، ومضت أسابيع أخرى أيضاً فصار المجموع ثلاثة أشهر أي أطول من المدة التي عبر فيها كولومبو المحيط الأطلنطي ثلاث مرات. وطفقت سفن ماجلان تسير على غير هدى آلاف الساعات بعد أن اختفى في الأفق رأس (كابو دي سيادو) منذ الثامن والعشرين من شهر نوفمبر (عام 1520 م) ولم تبق لخرائط ماجلان ومقاييسه أي قيمة، واتضح أن جميع المسافات التي دونها صديقه فاليرو خاطئة، وماجلان يعتقد أنه قد تجاوز جزيرة سيبانغو (اليابان) منذ زمن بعيد، ومع ذلك فإنه لم يعبر بعد غير ثلث المحيط المجهول الذي سماه بسبب انقطاع الرياح فيه المحيط الهادي.

### المعاناة الرهيبة

المؤن تنقص بصورة مخيفة والمجاعة تتفاقم يوماً بعد يوم، والذي يوزعه الموظف المختص على البحارة كل يوم ليس طعاماً ولكنه أكوام من الأقدار، والمياه العذبة المحفوظة في البراميل فارت تحت نار الشمس التي لا ترحم، فانبعث منها رائحة كريهة تضطر البحارة المساكين إلى سد أنوفهم بأصابعهم عندما يبللون شفاههم بقطراتٍ منها، أما الخبز المجفف وهو مع السمك أساس غذائهم فقد تحول إلى مسحوقٍ قائمٍ قدر، اختلط به الدود وأفسده براز الجرذان، التي دفعها الجوع إلى السطو على البقية الباقية من الزاد. والبحارة

يطاردون تلك الحيوانات الكريهة، لا ليتخلصوا منها بل ليأكلوها، والصيد الماهر الذي يظفر بفأر في يده يبيعه بنصف دوكا ذهباً. فيأخذه المشتري السعيد ويلتهمه بشراهة، ويخترع البحارة ألواناً من الأطعمة ليخدعوا بها أمعاءهم الفارغة، فإنهم يخلطون بقايا الخبز المجفف بنشارة الخشب ليضاعفوا حجم الجراية اليومية التافهة، وتفاقت المجاعة حتى اضطر البحارة إلى التهام الجلود التي تكسو عوارض السواري، كما تنبأ بذلك ماجلان نفسه<sup>(9)</sup> على الشكل الذي نقله مؤرخ الرحلة (بيجافيتا): «لقد انتهى الأمر بنا كي لا نموت من الجوع إلى التهام قطع الجلد التي تكسو عوارض الصارية الكبيرة لتحمي الحبال من التمزيق وقطع الجلد هذه معرضة للشمس والمطر والرياح منذ سنة كاملة، ولهذا أصبحت جافة فاضطررنا إلى وضعها في الماء لتلين ثم طبخناها على النار وأكلناها».

### المرض يتفشى

وبدأ المرض يشارك في حملة الإبادة، فقد ظهر على البحارة أعراض فساد الدم، وبدأت أسنانهم تقع وامتلأت أفواههم بالقروح، وأصبحوا لا يقوون على مضغ الطعام، ومات كثيرون منهم في عذاب أليم، وأما الذين بقوا على قيد الحياة فقد أنهك الجوع قواهم، وهم يتحركون في السفن متوكئين على عصيهم، ثم يستلقون قابعين في زوايا السفن. مات في تلك الرحلة تسعة عشر بحاراً، أي عشر مجموع الرجال في السفن، ومات ذلك العملاق الباتاجوني (الذي تم

(9) ماجلان قاهر البحار - تأليف ستيفان زيفايغ - ترجمة حبيب جاماتي - ص



اصطياده من جنوب الأرجنتين بطريقة ماكرة، بوضع سلاسل الأقدام في ساقيه برنينها الذي خُدع به) الذي كانوا قد أطلقوا عليه اسم (جوان جيجانتي) أي العملاق جوان والذي كانوا من قبل لينظرون إليه بإعجاب، لأنه يلتهم نصف صندوق من الخبز المجفف ويشرب جرلاً من الماء دفعة واحدة.

### نهاية ماجلان بحماقة

عندما وصل ماجلان أخيراً إلى جزر جوام، ثم الفليبين، كان قد أشرف على الموت حقاً بفارق ثلاثة أيام فقط، بين تسجيل اسمه في التاريخ أو تحول السفن إلى مقابر جماعية تقودها رياح المحيط التائهة. ارتكب ماجلان وجنوده حماقة كلفتهم حياتهم، فبعد هذا العطش الجنسي الرهيب بدون نساء كل الفترة السابقة، هجموا على نساء الجزر المسالمين مثل أكباش الأغنام أو الشيران الشاردة، فاشتبكوا مع الأهالي، ليُقتل ماجلان في معركةٍ طائشة، بيد أمير جزيرة صغيرة اسمه (لابو لابو) وهرب من حوله، فرميت جثته بالعراء وهو ذميم.

عندئذٍ أدرك أهالي الجزر أن هؤلاء بشر ينطبق عليهم ما ينطبق على البشر فهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً. وكان الإسبان يوحون إلى الأهالي أن معدنهم إلهي؛ فكانوا يدفنون خيولهم الميتة سراً، وكان هذا الاعتقاد يرعب الهنود الحمر ويشل حركاتهم، وعندما وقع أحد الغزاة الإسبان فغرق في النهر، ظل الهنود جامدين حول الجثة ثلاثة أيام يخشون أن يلمسوها، خوفاً من أن ينبهوا الإله الأبيض من سباته، ولم تعد إليهم

شجاعتهم، إلا بعد أن تطرق الانحلال إلى جثته فاستعدوا للمقاومة. بعد موت ماجلان ومذبحة جزيرة سيبو لم يرَ الطاقم البحري أفضل من الهرب على وجهه، يملأ سفينة واحدة بما تيسر من بهارات الجزر القريبة، ليتابع الرحلة المميتة من جديد في رحلة العودة إلى الوطن، سالكاً طريق الفرار من قبضة البرتغاليين المتربصين ما أمكن، ليصل في النهاية من أصل خمسة سفن واحدة فقط هي السفينة فيكتوريا (النصر) بعد أن تحطمت واحدة قبل المضيق وهربت أكبرها (سان أنتونيو) بكل الزاد قبل اختراق المضيق، وهلاك الثالثة عند جزر البهارات وعودة الرابعة عن طريق المحيط الهادي من جديد، وأما الرجال فلم يرجع من 265 رجلاً إلا أقل من العشر، بعد أن هلك معظمهم في موت مروع بالجوع والعطش والذبح والمرض.

كلما قرأت فتح المكسيك ببضع مئات من الرجال على يد كورتيس، وأقل من مائتين لفتح إمبراطورية الإنكا على يد بيثارو، وعملية ماجلان بوضع اليد على الفليبين وضمها إلى التاج الإسباني بجرة قلم، لتبقى تحت نير العبودية لمدة 370 سنة، أتذكر فكرة تقرير المصير التي كتبها الفيلسوف والمؤرخ الألماني أوسفالد شبنجلر، فتحت سطورها معنى ضخم لمصير الشعوب ومقدرات الأمم.

### فكرة تقرير المصير عند الشعوب

يتعجب الفيلسوف من سيطرة روما على العالم القديم على الرغم من هزلة الوضع الروماني ونضوب العصارة الحيوية فيه، ولكنه يرى التفسير في العجز الفاضح في إرادة الأمم الخرساء التي تصبح جاهزة لأن يركب رقبتها أي مغامر.

يقول شبنجلر: «كانت السيطرة الرومانية على العالم تشكل في حد ذاتها ظاهرة سلبية فلم تكن هذه السيطرة وليدة فضلة حيوية لم تخب في الرومان، فالرومان قد استنزفوا آخر طاقاتهم منذ عهد زاما<sup>(10)</sup>، بل إنما جاءت نتيجة لعجز الشعوب الأخرى عن المقاومة والدفاع، فالشيء الأكيد أن الرومان لم يفتتحو العالم، بل إنما وضعوا أيديهم على غنائم وأسلاب كانت في متناول يد كل راغب. فلم تسلك الإمبراطورية الرومانية طريقها إلى التجسد والوجود نتيجة لضرورات عسكرية أو جهود مالية كتلك التي طبعت الحروب البونية (سلسلة الحروب الضارية بين روما وقرطاجنة) بطابعها، بل إنما مارست وجودها لأن الشرق القديم كان قد تنازل عن جميع حقوقه في تقرير مصيره، ويجب أن لا نخدعنا بعض انتصارات عسكرية رائعة قليلة، فلوكولوس وبومباي استطاعا بحفنة من الألوية الرومانية الرديئة

---

(10) معركة زاما هي المعركة النهائية التي خاضتها قرطاجنة ضد روما عام 164 قبل الميلاد في سلسلة من الحروب العالمية في العالم القديم في معركة صراع البقاء، وخاضها هانيبعل أمام أسوار قرطاجنة، ولكنه خسرها مع أنه كان من أبرع العسكريين الذين عرفهم التاريخ العسكري في تاريخ الجنس البشري، وإليه تنسب فكرة الكماشة (الكانيه) العسكرية التي طورها في معركة كاني التي خاضها عندما نقل الحرب إلى الأرض الإيطالية، حيث سحق جيشاً إيطالياً تعداده ثمانين ألف مقاتل، فقطعه كما يفرم لحم السلامي والسجق وبعدها لم تحارب روما هانيبعل مواجهةً، حتى أتقنت أساليبه نفسها، فهزمته بأساليبه على يد سيبو الأفريقي، وبعد هزيمة زاما تم تدمير قرطاجنة لاحقاً بشكل نهائي وحرثها بالمحراث، وذبح معظم سكانها البالغ عددهم نصف مليون في تعداد سكان تلك الأيام، وأخذ ما تبقى منهم خمسين ألفاً إلى العبودية، في درس روماني سيتكرر في كل مكان، فروما لا تعرف الرحمة مع خصومها.

القيادة والتدريب أن يفتتحا ممالك واسعة ويخضعن أقاليم شاسعة ووقوع مثل هذه الظاهرة أمر غير معقول في فترة كالفترة التي نشبت خلالها معركة إبسوس»<sup>(11)</sup>.

---

(11) سقوط الغرب - أوسفالد شبنجلر - ترجمة أحمد الشيباني - نشر منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - المجلد الأول - ص 96.

## IV

إعادة النظر في بعض الأحداث  
والمكونات التاريخية



## الثقافة الإمبراطورية هارون الرشيد

يروى عن هارون الرشيد أن غمامة مرت فوق رأسه فخاطبها قائلاً: اذهبي حيث شئت، فخراجك سيأتيني. إنها قصة ممتعة تدخل نشوة فائقة إلى نفوسنا، ولكن لا نسأل من الذي سيدفع الخراج؟ وعندما نكون في صف من سيأخذ (الخراج) لا يخطر في بالنا عذابات الأقسام وذلكم كي يدفعوا المال للإمبراطور. وبالمقابل فإن طرق إنفاق المال الإمبراطوري تذكرها كتب تاريخنا أنها مفخرة، فعندما تزوج ابن هارون الرشيد (المأمون) من (بوران) أنفق من خزائن أبيه (هارون) كل الخراج الذي سحت به مياه السحابة التي رآها أبوه يوماً. وكان هذا الاحتفال الإمبراطوري للمأمون بعد أن خرَّب بغداد في حرب أهلية دامت 14 شهراً ثم احتزت رقبة أخيه الأمين بالبلطة وجيء بالرأس المقطوع على طبق لصاحب (دار الحكمة) ودشن اضطهاداً عقلياً بفرض فكر المعتزلة بقوة السلاح، فكان العلماء يحملون إليه أذلاء معتقلين، فمن قبلَ بفكرة خلق القرآن خلوا سبيله ومن رفض كان مصيره النطع والجلاد. ومن قوانين التاريخ أن كل فكر فرض بالإكراه كان مصيره الفناء. وهكذا اختفى فكر المعتزلة واندثر تراثهم، بسبب حماقة المأمون ولم يكن بحاجة للخناجر. وتم اغتيال العقل على نحو منظم على يد الاتجاه النقلي تحت عيون جواسيس السلطان. لينتهي

بثلاث كوارث متتابعة: الاستبداد الديني الذي قاد إلى الاستبداد السياسي والذي قضى بدوره على جهاز المناعة في جسم الأمة فانسحبت من التاريخ وانقلبت محاور الأرض وحبس العرب في زنزانة البحر المتوسط، وظهرت حضارة الأطلنطي وهي تملك الديمقراطية ومؤسسات البحث العلمي ومصارف المال والقوة الحربية. إن قصة هارون الرشيد ليست الوحيدة، بل هي قانون متتابع للقوى العظمى حينما تسكر بخمر القوة قبل أن تفاجئ بالسقوط بغير استعداد. وعندما كان السلطان العثماني ينه أن هناك تطورات هامة تحدث في الغرب، كان جوابه: سلطان المسلمين لا يزور بلاد الكفار إلا فاتحاً. في الوقت الذي كان إسحق نيوتن يكتشف قانون الجاذبية. وهذا المنطق نفسه ظهر في الرسالة التي وجهها سفير الملكة فكتوريا لسيدته وهو يصف الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. واليوم تقلصت الإمبراطورية العثمانية إلى تركيا صغيرة. وانحجبت كل أشعة الشمس عن بريطانيا العظمى فهي تعيش في الضباب وحرب داخلية بين الكاثوليك والبروتستانت. هذا المرض إنساني ويمكن أن يصيب أي طاغية. تعرض لهذا الوباء (نابليون) فحمل مدفعيته بنصف مليون جندي ولم يرجع منهم سوى 5%، ومات في النهاية مسموماً بالزرنيخ في جزيرة تذكر بجهنم. وأصيب به (هتلر) فهلكت عساكره على ضفاف الفولكا عند ستالينغراد، ومات هو في النهاية منتحراً بالرصاص. واستولى هذا الحلم على جندي ألباني مغامر وضع يده على مقدرات مصر بالخناجر والاغتيالات هو (محمد علي) الذي تلقب (بالباشا) ثم حمل جنوده حتى حافة الأستانة فخاب وندم. واليوم يحلم بهذا (شارون) ملك إسبارطة الجديد في دولة ترفض أن



يكون لها حدود، إلا حيث امتدت قوة السلاح. ويقف اليوم (بوش) مترنحاً بخمر للقوة لا يقاوم أغراءه. وهو يستعرض 65 قاعدة عسكرية له في العالم مثل روما. ويتأمل جهنم أرضية في (جنين) وقودها الناس والحجارة بدون أن يطرف له جفن. مذكراً بمذبحة الماسادا اليهودية التي نفذها تيطس عام 71 م. إنها سخرية التاريخ مع القوى العظمى كيف تقوم وكيف تنهار وهي في أوج قوتها وعظيم عسكرها وتسلمها. يقول توينبي المؤرخ البريطاني عن علة انهيار الحضارات: إن دولة آشور «ماتت مختنقة في الدرع» فلم يكن ينقصها سلاح، وكانت تطور آلتها الحربية باستمرار وإتقان، وأخضعت شعوب المنطقة بذراع عسكرية بطاشة، وسوت العديد من المدن بالأرض، وعندما استنزفت بما فيه الكفاية تحولت إلى جثة في درع ميت، ثم دفنها التاريخ. وبعد قرنين من اختفائها مر (كسينوفون) المؤرخ اليوناني مع فرقة عسكرية فهالته فخامة التحصينات، ولم يكن هناك شيء اسمه آشور. والذي نبش هذه الدولة الرهيبة من مرقدها للمرة الأولى في التاريخ كان (هنري لايارد) في منتصف القرن التاسع عشر. إن علة اختفاء هذه الإمبراطوريات من التاريخ هي نفسها علة اختفاء الديناصورات التي حكمها عقل قاصر مع جبروت مذهل من قوة العضلات، فاخفت من وجه البسيطة وبقيت عظامها العملاقة تدل على مرورها في الزمن السحيق قبل 65 مليون سنة. هذا الاصطدام مع قانون التاريخ ساحق ماحق وارتدادي، لكن يبدو أن الديناصورات عديمة الفهم فلا تتعظ بما يحدث، فبقدر ضخامتها أبدانها تكون ضالكة عقولها. وأمريكا اليوم باعتبارها الديناصور اللاحم الأكبر لم تتعظ بحادث البرجين فلم تراجع نفسها لم حدث ما حدث؟ وعندما تفقد

آلية النقد الذاتي تتوقف آلية التصحيح والنمو. وهناك ارتباط عضوي ما بين قدرة مراجعة النفس والتوبة وتصحيح المسار في الاتجاه السليم. ولكن قدرة النقد الذاتي هي قدرة أخلاقية وليس تكنولوجية. وقد تستطيع التقنية تركيب كمبيوتر بتريليون عملية في الثانية، لكنها لا تستطيع رفع المستوى الأخلاقي نصف درجة، ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. وعندما انتقل التحدي في وجه الحضارة الفرعونية من (البيثة) إلى (النفس) كما يقول المؤرخ توينبي قصرت عندها الطاقة الإبداعية ووضع الموت يده الباردة عليها. ولعل هذه المرحلة هي التي واجهها موسى عليه السلام، حيث انقلبت الحضارة الفرعونية من حضارة (حياة) إلى ثقافة (موت)، وكان الشعب كله يسخر لإقامة قبر هائل لشخص فان فصب عليهم ربك سوط عذاب. هارون الرشيد والملكة فكتوريا وجنكيز خان والجندي المغامر محمد علي الذي تلقب بالباشا وشارون وبوش كلهم يرضعون من الثدي الملعون نفسه من ثقافة الإمبراطورية والاستعلاء، ﴿تَبَاكَ أَلْدَارُ الْأَخِرَةُ بِنَعْمَتِهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. واليوم تتحرك مظاهرات في العالم العربي تريد تكسير المرافق العامة وتتلطمز للفتك بالحكام جلاديتها. لكن التظاهرات هي حالة إعلان الوعي أكثر من الانزلاق للفوضى. والجماهير مع الحكام لا يؤمنون سوى بالثقافة الإمبراطورية، فإذا صار الأمر إليهم تحولوا إلى جبارين. إن الداء الدوي الخفي هو وضع القوة فوق العقل، ومع أن اليابان تشبه آية الشمس حينما تحررت من القوة، فصعدت بدون سلاح، لكن (السوبرنوبا) مع كل استعارها الأعظم لا يراها من كان أعشى يمشى بعصى وكلب. والثورة الفرنسية لم تحل المشكلة، كونها جاءت بالقوة

ورجعت الملكية بعد الإمبراطورية، ولم تولد الديمقراطية في فرنسا إلا بعد هزيمة نابليون الثالث عام 1870 م، أي بعد قرن من احتلال الباستيل. والديمقراطية لا تولد مرة واحدة، بل هي شجرة تكبر مع الزمن، وتؤتي أكلها كلَّ حيثٍ بإذن ربها. وإذا صارت لنا القوة مثل هارون الرشيد فلسوف تسيطر علينا (ذهانات) القوة للسيطرة على العالم، والقضية الفلسطينية لا تخرج عن هذا التصور. كما أن تركيبة العالم السياسية هي ضمن هذه المنظومة. فنحن واليهود نؤمن بالقوة سبيلاً للخلاص. وأفغانستان نموذج فاقع لونه لا يسر الناظرين. ولم يستطع الأفغان حل مشكلة بلادهم بأيديهم. وتم حل المشكلة (مؤقتاً) بقانون الديناصورات، أي إن من يعتمد على القوة يأت من هو أشد منه بأساً فيقضي عليه، ويتم تبادل الأدوار وفق قانون العضلات وتغيب الوعي. وقانون الأنبياء يسلك طريقاً مختلفاً بتحرير الإنسان ليس بالقتل بل بالحياة. لذا اعتبر القرآن الشهادة نوعاً من الحياة، والشهادة معنى ضخم فيها يموت الإنسان من أجل أفكاره فيدفن صاحبها في التراب مثل البذرة لتنمو الفكرة، لكن القتل لا يأتي إلا بالقتل. والحضارة الغربية اليوم عجزت عن صنع (كلمة السواء)، لأن العالم مبني على (الشرك)، أي حق (الفيثو)، وما لم يتشكل برلمان عالمي يوافق بأغلبية الأصوات على قرارات قابلة للتنفيذ فسوف تبقى إرادة العالم مصادرة بيد ديناصورات القوة. وطالما كان العقل مغيباً، فإن العالم سيعيش حالة الغابة وسوف يدفع الثمن في صورة حروب أهلية وعرقية ودينية وربما نووية حتى يرجع بعد أن يعبر جسراً من المعاناة فوق نهر من الدموع، ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

## صلاح الدين الأيوبي تحت المجهر

في زيارتي الجديدة لمونتريال في كندا في أيار/ مايو 2005 م كنت حريصاً على رؤية فيلم صلاح الدين الجديد في أسبوعه الأول الذي أخرجه رايدلي سكوت (Regisseur Ridley Scott)، وأتذكر من طفولتي رؤيتي لفيلم صلاح الدين الأيوبي حين تبارينا أنا وجاري المسيحي (لييب) حول مقارنة البطلين، فقد تحمس زميلي المسيحي للصليبيين وأنا تحيزت بالطبع لصلاح الدين، ومما حفر في ذاكرة الطفولة عندي من تلك الأيام في القامشلي، تنافس صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد، فالثاني ضرب بسيفه عموداً من الحديد ففلقه إلى نصفين، أما صلاح الدين فقد طوح في الهواء بوشاح من حرير ثم ضربه بالسيف بنعومة فقصه قطعتين فتعجب ريتشارد من ذلك؟ وكان صديقي المسيحي يسعى جهده في البرهنة على أن جبروت ريتشارد يفوق خفة صلاح الدين.

وفي الواقع، فإن نقلة أربعين سنة تفصل بين الفيلمين، وأنا في زيارتي إلى كندا كنت حريصاً على معرفة ما الذي تغير في النظرة الغربية تجاه الثقافة الإسلامية والعرب، وقد ظهر هذا واضحاً في المقابلة التي أجرتها مجلة المرأة الألمانية (في عددها 18 / 2005، ص 172) مع الممثلة إيفا جرين (Eva Green) التي أخذت دور ملكة القدس سيبيلا (Sybilla) مع زوجها جاي فون لوسينيان (Guy von

(Lusignan)، فقد سئلت عن تدمير بعض المسلمين النشطاء أن الفيلم يحمل صورة سلبية عن الثقافة الإسلامية؟ مع أن الفيلم الذي كلف 125 مليون دولار، عرض على لجنة خاصة في مكافحة العنصرية وأستاذ في الإسلاميات من جامعة كاليفورنيا، وهذا تقدم نوعي في عرض الأفلام، وهو من نتائج العولمة، والاتصال الإلكتروني، فلم يعد يعرض العربي أنه ذلك السفاح المتعطش للدم الجهول المتخلف، وكان جوابها: لعلهم لم يشاهدوا الفلم، ولو رأوه لغيروا رأيهم، فهو يحمل كل الاحترام للثقافة الإسلامية، وصورة كريمة جداً للإنسان العربي، فضلاً عن هذا إن الفيلم يظهر بوضوح أن كل دين فيه طائفة من المتشددين الذين يمثلون أنفسهم أكثر من الدين الذي ينتسبون إليه، وفي القرآن يتأكد هذا القانون أن البشر «ليسوا سواء»، «وأن الدليل على صحة الكتاب «أولم يكفهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل» وأن قوم موسى ليسوا صنفاً واحداً ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾».

وهذا القانون من عدم التعميم الشخصي والتاريخي قارب نجاة، فالأمم يتفاوت فيها الناس، وفي التاريخ تتغير الأمم، وأمراض أهل الكتاب لا تخص المسيحيين أو البوذيين لوحدهم، بل ينطبق على الجميع قانون ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ وقانون ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟﴾.

وحين سئلت الممثلة (إيفا جرين) أن الفيلم حافل بمناظر الحرب والقتل والدم؟ قالت نعم هذا حق، ولكن العنف الذي ظهر في الفيلم لم يقصد العنف لذاته، بل لإظهار أن العنف لا يخدم قضية، وأن الناس لم يستفيدوا من درس التاريخ شيئاً، ثم سخرت من رجال

هوليود المغرمين بمناظر العري والجنس، أنهم في فيلمهم الجديد لم يخرجوا فيلماً مكرراً للنسخ التي عندهم؛ بل كانوا أذكى هذه المرة، فحملوا الفيلم رسالة سياسية، وهذا أمر هام.

وعن دور المرأة ظهرت (سبيللا) بلباس المرأة العربية الفارسة وتكلم اللهجة العربية، وفي القدس ظهرت المساجد بجانب الكنائس، وظهر اختلاط العرب بالصلبيين وتأثر كل طرف بالآخر، ومما روى العقاد أن أكبر خطر كان من الحرب الصليبية ليس هجوم الصليبيين ودحرهم بعد ذلك، بل النوم على الأمجاد، حتى استيقظ الشرق على صفة نابليون تحت سفح الأهرام ومعركة أبو قير.

وأنا شخصياً كنت أفتش في زوايا الفيلم حتى أرى الجديد، لأنه يعطيني فكرة عن التطور التاريخي في علاقة الغربيين بالعرب، وهو الأمر الذي حكاه المخرج (رايدلي سكوت): أن الحملات الصليبية التي خرجت بدعوى تحرير القدس من أيدي الكفار كانت كذباً وبهتاناً، وأن هذه الحملة ما زال صداها يرن عبر التاريخ، حتى تخرج كلمات ينطقها بوش في حربه على الإرهاب، وفي الواقع فليس هناك من حرب أطول ولا أحفل بالضحايا والدماء مثل الحروب الصليبية، التي انفجرت بين أوروبا والشرق الأوسط، ونكب بها الطرفان بل وحتى القسطنطينية والأطفال، ففي إحدى الحملات سخرُوا الأطفال فمات وخطف واستعبد معظمهم قبل أن يصلوا الأرض المقدسة بعد أن غادروا دفاً أحضان أمهاتهم.

وفي عام 1204 كانت الحملة الرابعة مصيبة على رأس أهل قسطنطينية، فقد نهبوا وفعلوا بها ما لم يفعل الأتراك، ودنسوا مقدساتها، وسلبوا الحرز والأيقونات والآثار التاريخية.

وفي الفيلم يظهر صلاح الدين الأيوبي وهو ممثل سوري ضرب ضربته العالمية هذه المرة وكان ناجحاً ومعبراً في دوره الرحيم، فهو يقابل ملك القدس المريض ليرسل له أطباءه الخاصين، وهي تمثل النقلة الحضارية بين برايرة أوروبا، وفي الحقيقة كما كتب (جب) في كتاب خصصه عن صلاح الدين أن سر الرجل كانت أخلاقياته العالية، وهو أدرك أن خلف الإخفاق السياسي انهياراً أخلاقياً، فعمد إلى ترميمه ونجح مؤقتاً، والرجل لم يكن صاحب دعوة بل رجل دولة، وهو أمر استنكره البعض عليّ حين قلت إن شخصية صلاح الدين وغيره تخضع للنقد التاريخي، والقاضي (ابن شداد) وهو خير من أرخ للسيرة الذاتية لصلاح الدين يذكر من مناقبه وتحمله الشيء الكثير، وهو كتاب جميل ينصح بالاطلاع عليه، في مناسبة فيلم (مملكة السماء) حتى تكشف عن بعض كنوزنا التاريخية، ويقول ابن شداد إنه كان يوماً مصاباً بخراج حول الشرج - ونحن الأطباء نعرف ألم وخطر هذا المرض - بقي راكباً حصانه يقود الحملة، وحين جاء الموت وهو صغير السن حوالي الخمسين باليرقان، كان يطلب قدح الماء البارد، فيعطى غير ذلك فلا يشتم ولا يضرب ولا يأمر بالأذى، بل يقول بكل أريحية وضبط نفس، وهو يصارع أمواج الموت: «يا سبحان الله ألا يوجد من يعطيني قدحاً من الماء البارد؟»، ويقول عنه ابن شداد إن ملوك ذلك الزمان لو حصل معهم ما حصل معه لفعلوا الأعاجيب من قسوتهم واستبدادهم وبطشهم.

ومع أن صلاح الدين كان نزيهاً نظيفاً لم يترك خلفه أكثر من 17 درهماً، ولكنه قسم مملكته بين 17 ولداً مما قاد إلى كارثة سياسية بعد رحيله.

ومن الغريب والخفي عن الأذهان معاصرة صلاح الدين للخليفة العباسي الذي تحول من حقيقة إلى شكل، قبل أن تدمر بغداد، وتجرف بالحصادة المغولية عام 1258 م، ومعركة حطين التي نرفع رأسنا بها حتى اليوم كانت عام 1187 م واسترداد القدس عام 1188 م.

ومن المهم أن نربط الأحداث ببعض فالحملة الصليبية كما يقول (الصادق النهوم) في كتابه *معنة ثقافة مزورة* أنها لم تبدأ عام 1099 م في القدس بالاستباحة، وقتل أهلها فسالت في الشوارع مجاري الدماء، بل بدأت في الغرب بسقوط توليدو عاصمة شبه الجزيرة الإيبيرية عام 1085 م، ولم تنفع حملة بن تاشفين في استردادها، وتابع مسلسل السقوط وحروب الاسترداد طريقه حتى سقوط بالنثيا عام 1236 م وقرطبة عام 1238 م وإشبيلية على المحيط عام 1248 م، ومع سقوط بغداد اكتمل سقوط جناحي العالم الإسلامي، ومع سقوط القدس وقيام دولة إسرائيل الصليبية الثامنة، سقط القلب بعد الجناحين. وتلك الأيام نداولها بين الناس، وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين. وأنا أكتب عن صلاح الدين، لجأت إلى بيت ريتشارد قلب الأسد في كندا، حيث آمن على نفسي وذريتي، بعد أن لم يبق أمان لطير وقط في أرض صلاح الدين؟

ومن وقفات الفيلم المؤثرة حين استرد صلاح الدين القدس فيسأل (بايلان) البطل المدافع عن القدس قبل أن يصل ملك إنجلترا عن مصير المدينة فعيطيه الأمان لكل من فيها، وأجداد بايلان لم يبقوا على أحد من المسلمين؟

ومنه نعرف أن كل ملوك أوروبا اجتمعوا علينا من الغرب، يضاف إليها المغول من الشرق فأصبحنا بين فكي كماشة، ولكن



المحصلة لم يكن يراها أهل ذلك الزمان سوى كارثة وريح عقيم ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريميم، ولكن الذي نتج عن هذا الضغط التاريخي أن المغول تحولوا إلى الإسلام، والصليبيين ردوا على أعقابهم مخذولين بعد هجوم طال 171 عاماً. وانطلق مد معاكس من الأتراك هز الأوروبيين مدة خمسة قرون وفيها حاصر العثمانيون النمسا ثلاث مرات، كان آخرها حصار عام 1683 م، حين كان إسحق نيوتن يكتب حول تحليل الضوء وقانون الجاذبية، وكانت أوروبا بذلك قد تحولت تحولاً جديداً، ونشأت نشأة مختلفة، وولدت خلقاً آخر، وحتى جاء غورو فضرب قبر صلاح الدين حين دخل دمشق عام 1925 م فقال لقد عدنا، ولم يعد طاغية يقاتل طاغية، كما كان حال العصور الوسطى، بل إدارة جماعية تواجه طاغية من نوع صدام، فلا غرابة من سقوط صدام السريع في ثلاث أسابيع حسوماً، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغِي كَأَنَّهُمْ آعْجَازٌ نَخْلٍ حَاوِيَةٌ \* فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾؟

والسؤال هل ينصح برؤية فيلم من هذا النوع، ورأيي أنا أنه يجب رؤية أي فيلم يعرض ثقافتنا على أي حال، وحين رأيت العام الفائت فيلم آلام المسيح، تذكرت الفروع الأمنية في العالم العربي بالجلد والسلك، وكتبت مقالة أنصح فيها القراء أن لا يروه، وفي الثمانينيات حينما كنت في ألمانيا أضفت إلى المجموعة من الأفلام السينمائية في مكتبتي фильماً للمسيح بطول ستة ساعات، وهو من أجمل ما أخرج وأنتج في إظهار صورة (المعلم) الذي يعظ الجموع بأطيب الكلام والأمثلة. والفرق كبير بين الكنيسة والإنجيل، وبين المسيح والبابا. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

## سقوط القسطنطينية من منظور جديد

1453 م

يفرح المسلمون بسقوط القسطنطينية عام 1453 م، ولكن هناك من يذكرها مع الدموع فهل كان فتحها إسلامياً؟ ثم ما هي النتائج المدمرة على العالم الإسلامي من وراء هذا الفتح المبين؟ إن المشكلة هي أن ما يفعله المرء يراه عين الصواب، ولا يخطر في بالنا أن تاريخنا قد يكون في بعض صفحاته مرباداً أسود كالكوز. لقد عرض يومها محمد الفاتح على الإمبراطور (قسطنطين الحادي عشر) تسليم المدينة مقابل تهجير جماعي لسكانها وتوطينهم في اليونان ما يذكر بفعلة ستالين مع التهجير الجماعي للشيشان أو الاقتلاع الجماعي لليهود على يد نبوخذ نصر أو مصير الأكراد في العراق. وكما يقول (توينبي): «أن المؤرخين في العادة أميل إلى شرح آراء الجماعات التي يكادحون في محيطها منهم إلى نقدها». إن عرض (محمد الفاتح) يذكر بشارون وهو يريد احتلال القدس وطرده أهلها منها، ولكننا وتحت ضغط التحيز والرؤية الانتقائية نفقد حاسة النقد السليمة في أحداث طوتها لجة التاريخ. وبغض النظر عن فظاعات الفتح وحجم النهب والسلب والاعتصاب على يد الإنكشارية، فإن أول ما فعله الفاتح بأهالي المدينة المنكوبة أن وضع يده على أقدس مقدساتهم فدخل كنيسة (أياصوفيا) التحفة التاريخية التي أفرغ (جوستينيان) خزينة

الدولة على بنائها وحولها إلى فاتيكان شرقية أن حولها إلى مسجد. في فعل لا يوصف بروح التسامح الإسلامية، ولا يذكر بعمل الفاروق عمر حينما دخل القدس بعباءة مرقعة على ظهر حمار يرفض الصلاة داخل كنيسة القيامة، حتى لا يتخذها بعض صغار النفوس حجة للاستيلاء عليها وتحويلها إلى مسجد. إن السيف الأموي في الأندلس والمدفع العثماني في البلقان يصلحان تفسيراً لانحسار الإسلام عن أوروبا، لأنه لم يكن انتشاراً على منهج النبوة بل اجتياحاً عسكرياً، وفي عهد المنصور العامري لوحده تم شن 52 حملة عسكرية في الأندلس، وهو أمر ازداد انفصلاً عن منهج النبوة مع تقدم الوقت، وبدا أشد وضوحاً مع النموذج العثماني. ولا تقف مشكلة استخدام القوة (الإكراه) على صورة الفتح الفجة البدائية، بل آثارها المدمرة، فبعد زوال الضغط عن الجناح الغربي في شبه الجزيرة الإيبيرية انطلق تينين أوروبي برأسين برتغالي وإسباني، كرد فعل على حروب لا نهاية لها في هذه الحافة المشؤومة وانطلق فرسان (الاسترداد) على الحصان العربي نفسه بعد تمرسهم الطويل على آلة الحرب ضد المسلمين، وكما يقول (توينبي) إن ردة الفعل لا تكون في التاريخ مثلها في الفيزياء، فهي هنا ليست مساوية في الفعل ومضادة في الاتجاه، بل أشد ارتكاساً وفي أكثر من اتجاه، ما يشبه انفجار السرطان. ظهر هذا واضحاً في العنف الفائق الذي استخدمه الإسبان ضد حضارتي الأزتيك والإنكا. وفي العاصمة (تينوشتلان) في المكسيك ذبح 240 ألفاً من السكان، ما يعادل ثلثي سكان عاصمة تشبه نيويورك حالياً. وفي البيرو تم تخيير (أواتا هوالبا) ملك الإنكا بإنقاذه من الموت حرقاً، بالشنق إن هو اعتنق المسيحية، ولم تنفعه فدية الذهب التي

ملأها في غرفة ضمت ستة أطنان من الذهب و12 طناً من الفضة جمعت من أرجاء مملكة تعج بعشرة ملايين من السكان على مرتفعات الأنديز. وأما في شرق أوروبا فكانت نتائج الضغط العثماني أشد ترويعاً، لأنه مع قطع طرق التجارة إلى الشرق استند الغرب بظهره إلى بحر الظلمات فقام بقفزته الكبرى إلى المجهول وعلى ثلاث محاور: (غربي) فاكتشف أربع قارات جديدة وآلاف الجزر الغنية ووضع يده على مضائق البحار ومعها الثروة العالمية واليوم يمتلك الغرب في جيبه ثمانية قروش ونصف من كل تسعة. و(شرقي) فأحكم شد الأنشطة على عنق الصحة الإسلامية بالالتفاف حول أفريقيا. و(شمالي) قام به القوزاق الروس فدمروا بقايا ممالك التتار واحتلوا القرم. يجب أن يشكر الغرب الأتراك جداً على ما فعلوه. وعندما نذكر تدمير بغداد على يد التتار نحزن، ولكن احتلال القسطنطينية هو في عين آخرين (تتار) من نوع مختلف، والأتراك على كل حال هم فصيل من التتار نزع من آسيا الوسطى. إننا بالعكس عندما نذكر احتلال القسطنطينية التي عمرت ألف عام بعد انهيار روما وذبح سكانها وهرب علماءها نذكره بنشوة الفتح ونسميه إسلامياً. كل هذا يحدث تحت ظاهرتي (الوعي الانتقائي) و(العمى التاريخي)، فليس عندنا قدرة في مراجعة تاريخنا، ولا نعتبر مثلاً أن معركة صفين كانت كارثة توقف فيها المد الإسلامي الصحيح والأساسي، وظهرت إلى السطح نسخة إسلامية أموية مزورة صادرت الحياة الراشدية، وتدثر الخليفة مرتاحاً بين الغلمان والحريم بعباءة كسروية، وتحولت دولة (العدل) إلى (إمبراطورية) بيزنطية تجتاح الممالك بالسيف على مبدأ كرة الثلج: كل بلد يفتح يجند أولاده، ويكبر جيش المرتزقة ليفتح به بلداً جديداً. . .

وهكذا. كان (أبو ذر) واعياً حينما قال للنظام الأموي: (أتريدونها هرقلية؟). وهو الذي دفع عمر بن عبد العزيز إلى وقف موجة الفتوحات العسكرية حتى مات مسموماً بعد سنتين من حكمه. إن هذا التحول في الحياة الإسلامية لم يدخل وعينا كما أن إمكانية نفوذ تاريخنا لمعرفة ما حدث لم يبدأ العمل به. وما زال تاريخنا مقدساً مصاناً بعيداً عن عين النقد وأدوات السبر والمراجعة، وما زالت روح الفتوحات والسيف تظلل الحياة السياسية حتى اليوم.

والشيء المرعب الذي حدث ولعله تأسس منذ مصالحة الفقيه (أبو يوسف) مع النظام العباسي بكتابه عن الخراج إلى هارون الرشيد، بحيث ساد العقل الإسلامي وما زال أن الذي يتمكن بالسيف من قهر العباد (ويمكن له)، تسكُّ النقود باسمه ويدعا له على ظهور المنابر يوم الجمع، ولو كان من عتاة المجرمين. وبذلك ودع المسلمون (الرشد) في إجازة مفتوحة إلى إشعار آخر. وهذا التأسيس لفكرة (الإكراه) وعبادة القوة أخرجاً نموذج الإنسان الخائف المنسحب الذي يردد (اللي أخذ أمنا بنسميه عمنا) ويصفق لكل انقلابي ناجح، وأدخلا المرض إلى مفاصل الثقافة الإسلامية بأشد من الروماتيزم الخبيث. ولم يخرج (الحداثيون) من قمم الفكر التراثي، ففكروا بطريقة السفاح وأبو مسلم الخراساني نفسها، فاعتلوا ظهر الحصان العسكري لتحقيق طموحاتهم فأوردتهم المهالك. وعندما اعتمد (صلاح البيطار) أسلوب الانقلاب دفع ثمن ذلك أن وقع صريع رصاصهم في باريس، إن في ذلك لآيات للمتوسمين. إن المثقفين مثل عفلق والبيطار الذين استولى عليهم شعور إنقاذ الأمة من التخلف كانت (نواياهم) طيبة، ولكن لم يفهموا أن إدخال القوة والعنف لتغيير الأمة إفساد له، ولا يمكن أن

يكون إصلاحاً بحال. فهنا جمعوا بين (نية الصلاح) و(طريق الفساد) من غير أن يشعروا. وهذا ينطبق على الإسلاميين كما ينطبق على القوميين. وعندما تكون (النية) جيدة وأن تغيير الأمة يجب أن يتم (بالإكراه) والأفكار بالقوة، فإن النية لا تشفع ويدخل المرء عمق الفساد. ويدرك المرء بمرارة أن الاعتماد على العسكر خطير، وأن كل حصان قابل للترويض إلا الحصان العسكري، وأن العسكر سيلتهمون أصحاب النية السليمة، وأن الجناح العسكري هو الذي سيحكم المثقفين، وأن السيف سيكون فوق القانون، وأن كرسي السلطة ألد من كل لذائذ الدنيا، وأن المرجعية الأساسية في المجتمع هي القوة. من الذي قتل البيطار وحسن البنا وأنطون سعادة؟ إنها الأفكار التي رعوها. وطالما تغذى الجميع من فكر القوة واعتبروا أن القوة فوق الجميع، فإن تصفية الرفاق والإخوان بعضهم لبعض هي تحصيل حاصل. إن فكرة تغيير الأمة بالجيش والأفكار بالقوة فاسدة من أقطارها الأربعة: (الدين) و(علم الاجتماع) و(البيولوجيا) و(السياسة): فهي الشرك في (الدين). وكما كانت شهادة أن (لا إله إلا الله) الأعظم كذلك بنيت الحياة السياسية على مبدأ (لا إكراه في الدين). وحرف (لا) للنفي يدخل على كل صور الإكراه، وكل دين وفي أي اتجاه. فلا يقتل الإنسان من أجل آرائه أياً كان، اعتناقاً وتركاً دخولاً وخروجاً، وإلا كانت إكراهاً وحبساً وسيارات تمشي للأمام فقط، وطرقات سريعة باتجاه واحد. وهذا يعني أنه بمجرد دخول الإكراه في الدين، فقد دخل الشرك ومزج التوحيد بالوثنية، واختلط الحق بالباطل. والذي يعلق أي أمل بالقوة فقد أشرك في لغة الدين وأدخل مع الله آلهة أخرى وأبطل عمله، فمع الشرك يحبط كل عمل (لئن

أشركت ليحبطن عملك). وهي ثانياً في لغة (علم الاجتماع) الدخول إلى (شريعة الغاب)، والذي يملك القوة هو الله لا إله غيره وهو ما قاله فرعون لموسى ﴿لَئِنِ أَخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾. أو للسحرة ﴿فَلَا تُفْطِرْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتُمْ لَكُمْ مِنْ خَلْقٍ وَأَلْمِئْتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾. وهكذا فإن (عبادة القوة) هي عبادة الطاغوت والسجود للصنم. وهي ثالثاً في (اللغة البيولوجية) طلاق العقل واعتماد العضلات وهو الفساد الأكبر للإنسان عندما تنقلب الأدوار فيمشي الإنسان على رأسه منكساً، ولكن من يمشي على رأسه يخسر رأسه ورجليه معاً.

وفي مقابلتين منفصلتين مع قناة الجزيرة سئل قيادي إسلامي وآخر شيوعي السؤال نفسه: هل مارستم العنف؟ وكان جواب الاثنين واحداً: (نعم دفاعاً عن النفس). إن استخدام العنف لتحويل المجتمع هو الذي يجعل القاتل والمقتول في النار، لأنه (ليس كل دفاع عن النفس حقاً). وهذا الشيء لا يستطيع فهمه لا الشيوعي ولا الإسلامي ولا الليبرالي ولا القومي، كما أن العالم جميعاً ليس له قدرة على فهم هذا الشيء الذي جاء به الأنبياء، لأن الكل يجيز (الدفاع عن النفس). ولكن الدفاع عن النفس هو في الحقيقة في وجهه الثاني الخفي الاستعداد للهجوم على الآخرين، أي برمجة العدوان والقوة في المجتمع، وعندما يلتقي الطرفان بالسيف يتحول المجتمع إلى جهنم يلتهم كل الناس، وما حديث أفغانستان ببعيد. ما معنى أن يكون الإنسان في مجتمع؟ إن وعياً مقدساً من هذا النوع يخلق (المواطن المنتمي) لأن المجتمع يحمي من العدوان، والمجتمع الذي لا يستطيع حماية أفرادهِ ويلجأ فيه كل فرد إلى الأخذ بحقه بذراعه يتحول إلى

(مجتمع غابة)، وهي نكسة نوعية للخلف عشرة آلاف سنة. ومجتمعات (الغابة الجديدة) لا ينفع فيها التغيير بالقوة لأنه تغيير أشخاص بأشخاص دون المساس بنظام الفكر الذي يهيمن عليه. ولهذا فإن الفرقاء كلهم من (ملة واحدة) هي ملة (الشرك) و(العضلات) و(الغابة) و(الديكتاتورية).

وأخيراً في (علم السياسة) تعني الديمقراطية أن يقر الجميع أن لا يلجأ طرف إلى العنف وأن تطلق الحريات في (التفكير) و(التعبير) والتجمع والتحزب، ويحرم شيء واحد فقط هو استخدام القوة والسلاح والإكراه لفرض الأفكار. ومنهج الأنبياء يقوم على (تراض منهم وتساور) و(لا إكراه في الدين) وهو يستخدم اللاعنف من طرف واحد حتى لو اعتمد الآخر على العنف؛ لأن التورط في العنف معناه الدخول في مذهب الآخر، والأنبياء دعوا إلى شق طريق جديد في تحرير الإنسان من علاقات القوة ووثنية الإكراه بأن لا تكون المرجعية الأساسية في المجتمع السلاح والعضلات والإكراه، فهذا هو لب التوحيد أن لا إله إلا الله، وليست القوة هي الله، وليس الحاكم هو الله رب الناس ملك الناس إله الناس، ولتحقيق هذا دعا الأنبياء الناس أن لا يقتلوا أحداً أو حاكماً لتغيير الأوضاع، لأنه استبدال طاغوت بطاغوت، ولكن أن يغيروا رصيد ما بنفوسهم بالتخلص من القابلية لعبادة القوة. وهكذا فقول الحق وعدم الدفاع عن النفس والموت من أجل هذا هو الذي يكرر عمل ابن آدم وسيد الشهداء حمزة. إن الذين لا يفهمون هذا حوارهم حوار طرشان، وهو ما يجري في المحطات الفضائية اليوم بسبب شدة استحكام أفكار القوة في مفاصل الفكر العربي، وهي استبدال طاغية بطاغية واستبدال قوة بقوة، وهذا لا



يصنع ديموقراطية ولا دنيا ولا ديناً ولا مجتمعاً إنسانياً، بل يصنع تبادلاً مستمراً للقتل، والاستمرار في القتل والقتل المضاد، والذي لا يفهم هذا لا يمكن أن يكشف ما جاء به الأنبياء ولا ما جاءت به الديموقراطية.

والآن إذا كانت الحضارة الغربية قد ولدت فهل لها أب وجد وأم وجدة؟ أي هل ولدت بالقانون الذي يسري عليها وعلى غيرها أم ولدت بدون قانون؟ هل هي كائن غير شرعي وُلد سفاحاً وترك لقيطاً، فلا تريد الحضارة الغربية الاعتراف بأب وأم؟ أم هي كائن خارق للعادة، وكأنه المسيح الذي خلق من بويضة بدون نطفة؟

هذا السؤال عذبي كثيراً، ولم يشفني فيه مجرد كلمات المديح والثناء والانتفاخ، عن أثر الحضارة الإسلامية في إنجاب هذا الطفل «العاق والمتمرد» والمتنكر لإصله؟ فرحت أحاول مسك الخيوط التاريخية، وبالأسماء والتواريخ على وجه الدقة، فاصطدمت بمعالم واضحة ارتسمت على محياها عبر التاريخ، خاصة منعطف منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، الموافق لمنتصف القرن السابع الهجري، حيث يشكل هذا التاريخ «انعطافاً نوعياً» ليس في تاريخ الغربيين فحسب، بل في تاريخ الجنس البشري قاطبة، حيث خسر العالم الإسلامي قيادة الجنس البشري على الرغم من بدايات تحول خطير لتحول حضاري نوعي من خلال أمرين هما التراكم المعرفي وتكدس الثروة.

في هذا المنعطف بدأ في التشكل تياران، أو منعطفان، مشى فيه المخطط الأول باتجاه القوة والتقدم، والثاني باتجاه الانحطاط والتراجع، وبدا انقلبت محاور العالم ليصبح الشمال جنوباً والجنوب شمالاً، ولتولد نحن في خط الجنوب، حيث تنقل لنا الإذاعات الأخبار التي لا تسر تنصب علينا مع كل شروق شمس!

ولكن ما بالنا نستعجل التحليل التاريخي بدون مقدماته؟

## خالص جلبي

كاتب ومفكر سوري يكتب في مجال تنوير وتحريير العقل الإسلامي ونبذ العنف

ISBN 978-9953-68-670-7



9 789953 686707

مهلهن  
بل حدود  
Mominoun Without Orders  
مؤسسة دراسات وأبحاث

المركز الثقافي العربي



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)  
بيروت: ص. ب. 113/5158  
markaz.casablanca@gmail.com  
cca\_casa\_bey@yahoo.com